هاروكي موراكامي

القَزَمُ الرَّاقِصُ

وقصص أخرى

ترجمة وتقديم

لحسن أحمامة

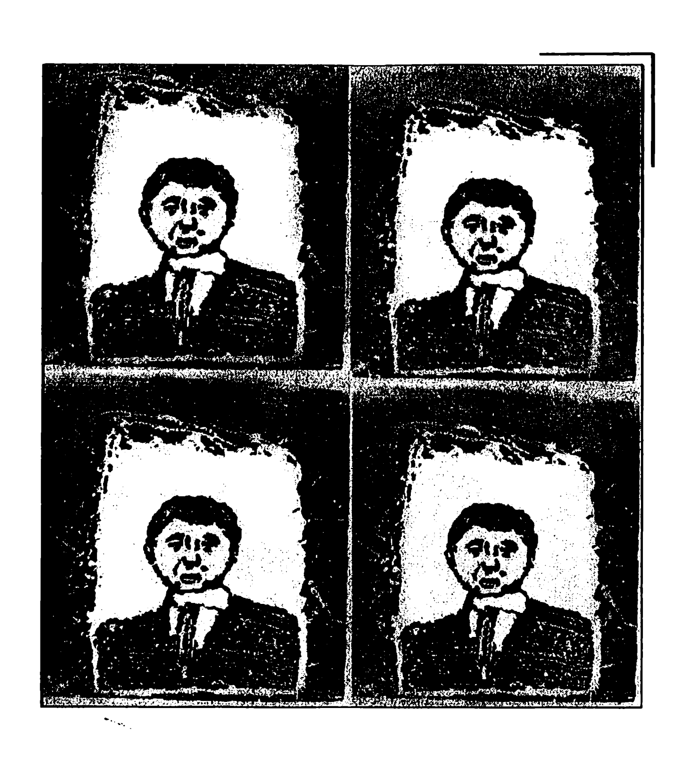


للنشر والتوزيع

2016

الْقَزَمُ الرَّاقِصُ

وقصص أخرى



Haruki MURAKAMI ,

L'éléphant s'évapore, Edition Seuil, 1998.

Saules aveugles, femme endormie, domaine étranger,

10/18, Belfond, Paris, 2008

(تم أيضًا الاعتماد على الترجمة الإنجليزية

للنصوص المتضمنة في المجموعة)



للنشر والتوزيع

2015

عنوان الكتاب : **القزم الراقص وقصص أخرى**

اسم الكاتب : **هاروكي موراكامي**

ترجمة : **لحسن أحمامة**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 0122/3529628

8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2016

رقم الإيداع : 2016/2595

الترقيم الدولي : 978-977-499-211-7

إهداء

إلى لحسن معاد. مثقف آثر الظل

ملاحظة

النصوص المترجمة من المجموعة الأولى هي:

الهجوم الثاني على المخبزة، وسقوط الامبراطورية الرومانية، والوحش الأخضر، والقزم الراقص، والفيل يتبخر، والنافذة.

ومن المجموعة القصصية الثانية:

قرد شيناجوا، وسنة سباجيتي، وصفصاف أعمى، وامرأة نائمة، والرجل السابع



تقديم المترجم

يُشَكِّل الروائي والقاص الياباني هاروكي موراكامي علامةً فارقة في المشهد الإبداعي العالمي من خلال تميز كتاباته السردية، مما جعله يقف إلى جانب كبار كُتَّاب اليابان: ياسوناري كواباتا، يوكيو ميشيما، ناتسومي سوسيكي، كينزا بورو أوي، وكوبو آبي، وغيرهم. وليس من الصدف أن يُرشَّح مرارًا للفوز بجائزة نوبل. فنصوصه الروائية، وقصصه القصيرة التي انتخبنا بعضًا منها، تُؤكِّد رؤياه في الكتابة السردية، والطريقة التي يصوغ بها منجزه الإبداعي الذي يستكنه عوالم تتأرجح دائمًا بين الواقعي والحلمي في حبكة تمسك بتلابيب القارئ منذ البداية، وتحقق له تلك المتعة التي سعى إليها القاص نفسه.

في تقديم لإحدى مجاميعه القصصية يقول: «بتعبير أبسط، أعتبر الكتابة الروائية تحديًا، والكتابة القصصية متعة.

إذا كانت كتابة الروايات مثل غرس غابة، فكتابة القصة القصيرة كما غرس حديقة... الغابة تلقي بظلالها على الأرض، أما في الحديقة، فالبراعم تظهر في الورود، وتجذب الوريقاتُ الصغيرة الملونة النحلَ والفراشات، مذكرة إيانا بتحول بارع من فصل إلى فصل»[1].

ولئن كانت قصص موراكامي القصيرة تخضع لشروط الكتابة التقليدية مثلما نجد في القصة القصيرة الأميركية، فإنها تفارقها في ذلك العجيب، أو الخارق الذي تتميز به. إذ إنها دائمًا ما تنتهي بتلك المفارقة التي تكسر أفق انتظار القارئ، ملقية به في شرك عدة تساؤلات، لعل أهمها القلق الوجودي.

يقول الروائي الكولومبي جابرييل جارثيا مركيز: إن «الجهد الذي تتطلبه كتابة القصة القصيرة هو جهد مكثف مثل ذلك الذي تستلزمه بداية كتابة الرواية. بحيث يتعين تحديد كل شيء في الفقرة الأولى من الرواية: البنية، والنبرة، والأسلوب، والإيقاع، والطول، وأحيانًا حتى طبيعة الشخصية، أما التتمة فتظل مرتبطة بمتعة الكتابة... في

---

(1) Haruki Murakami, ***Blind Willow, Sleeping Woman***, tr. Philip Gabriel and Jay Rubin, Vintage book, New York, 2006, p. 5 (وهي النسخة الإنجليزية التي استندنا عليها خلال ترجمتنا، ومطابقتها بالنسخة الفرنسية، المترجم)

المقابل، ليس للقصة القصيرة بداية ولا نهاية: فقد تعمل أو لا تعمل. وإذا كانت لا تعمل، فالتجربة الشخصية، أو تجربة الغير تعلمنا أن من الأفضل، في أغلب الحالات، إعادة كل شيء من الأول، أو رميه في سلة المهملات»[1]. وكتبت الناقدة الأميركية مارتا فولي تقول: «القصة القصيرة الجيدة، قصة غير طويلة جدًّا، تُشعر القارئ بأنه قد مر من تجربة لا تُنسى»[2]. أما موراكامي فالقصة بالنسبة إليه تُخلق من تفصيل صغير جدًّا، أو فكرة تجتاح الذهن، أو كلمة أو صورة أو أي شيء آخر، وهي بمثابة حقل تجربة لكتابة الرواية. وهي بالنسبة إليه مثل ظلال ناعمة أُلقي بها في العالم، وآثار متبددة تركها خلفه. ولعل ذلك ما جعل سردياته تأسر القارئ، حيث الظلمة والنور يمتزجان إلى حد الإصابة بالدوار. وليس الأسر وحده، وإنما أيضًا تشركه - القارئ- في وقائعها وأحداثها.

وُلِدَ هاروكي موراكامي بكيوطو في 12 يناير سنة 1949. هاجر إلى اليونان، وإلى إيطاليا، وإلى الولايات المتحدة الأميركية. وفي سنة 1995 قرر العودة إلى اليابان بعد زلزال

(1) Gabriel Garcia Màquez, Douze contes vagabonds, tr.Annie Morvan, Grasset&Fasquelle,1993, pp.8-9.

(2) The Best American Short Stories, 2001, Barbara Kingsolver, Editor, Katrina Kenison, Series Edition, Boston- New York, 2001, p.IX.

كوبي. تأثر بالثقافة الغربية. وبدأ الكتابة في سن التاسعة والعشرين. حيث نشر أولى رواياته **اسمعْ الريح تغني** سنة 1979، وحاز بها على جائزة جونزو. بعد ذلك تواصلت كتاباته ما بين الرواية، والقصة القصيرة، والمقالة، والترجمة. من بين ما صدر له: **يوميات عصفور الزنبرك**، **وجنوب الحدود، غرب الشمس**، **وعشاق سبوتنيك**، **وكافكا على الشاطئ**، **والغابة النرويجية**. وفي سنة 2011 صدر له رواية **1Q84**.

كما قام بترجمة سكوت فيتزجيرالد، ورايموند كارفر، دجون أورفين. وحصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية. تُرجمت أعماله إلى حوالي أربعين لغة وصدرت في أكثر من ثلاثين دولة. صحيفة الجارديان اعتبرته واحدًا من أكبر الروائيين الأحياء. ولعل هذا التأثر بالثقافة الغربية جعله يتميز عن باقي الكُتَّاب اليابانيين، لكون تيماته وعناوينه تستحضر الموسيقى الكلاسيكية، مثلما نجده في قصة **السطو الثاني على المخبزة**، أو **القرد الراقص**. وكذا الطريقة التي يتعامل بها مع بعض القضايا الكبرى في الحياة دون الإجابة عنها؛ مثلما نجد في قصة **الرجل السابع**، حيث تيمة الخوف هي محرق النص. هذا التميز جعل المؤسسة الأدبية اليابانية تنتقد كتاباته وتعتبرها سريالية وعدمية، إذ تتخللها تيمة الوحدة والاستلاب، والمسحة الكافكاوية.

والملفت للنظر في هذه النصوص كونها تلتمس لغة بسيطة في صوغ محكيها، إذ إن الفكرة التي تدور حولها كل قصة هي ما يستأثر باهتمام الكاتب. هذه البساطة تبدو مثل ستار شفاف لكن خلفه تركن عوالم غرائبية. في مقابلة له مع مجلة ماجازين ليترير، قال موراكامي: «أعتقد أننا نعيش في عالم، هذا العالم، لكن ثمة عوالم أخرى بالقرب منا. فإذا ما حدتكم الرغبة حقًّا، بإمكانكم عبور السور، والولوج إلى كون آخر. بمعنى آخر، بالإمكان التحرر من الواقع. وهذا ما أسعى إلى تحقيقه في كتبي». تلك هي وظيفة الأدب عنده: العيش في عالم متخيل من خلال قراءة المتخيل القصصي.

ولأن هاروكي موراكامي يكتب باللغة اليابانية، فقد سعيت إلى ترجمة نصوصه من اللغة الفرنسية، معتمدًا على الترجمة الإنجليزية في غالب الأحيان، وهو عمل تكتنفه العديد من الصعوبات، باعتبار أن النسختين (الفرنسية والإنجليزية) مختلفتان بشكل صارخ في كثير من الجوانب. رغم أن الحكاية تظل في جل الأحيان نفسها. إذ يكتنف الترجمة الإنجليزية الكثير من الحذف، وهو ما لا نجده في الترجمة الفرنسية التي في اعتقادنا ظلت أمينة للنص الأصلي. ولعل خير مثال على ذلك قصة **قرد شيناجوا**.

ولقد كانت الذائقة الأدبية هي ما وَجَّه اختيارنا لهذه القصص لما تتميز به من تنوع فـــي التيمات وتعرض لجانب مهم من تجربة هذا الروائي ما بعد الحداثي الذي يعتبره العديد من القراء قصاصًا أكثر مما هو روائي، رغم أنه يعتبر نفسه عكس ذلك. وعلى الرغم من مزاوجته للقصة القصيرة والرواية، فإنه لا يكتب الأولى إلا عندما ينتهي من الثانية. هذه الطريقة في الكتابة، على ما نعتقد، تُمكِّنه من تحقيق مسافة بين النوعين، لما يفترضانه من شروط وتقنيات مختلفة فيما بينهما، وكذا الجهد والكثافة اللذان تتطلبهما كما أشار إلى ذلك ماركيز.

لا نتغيا من هذا التقديم وضع دراسة عن المنجز القصصي لهذا القاص والروائي، فذلك يتطلب تحليلاً مستفيضًا لمجمل نصوصه قد ينأى بنا عن الهدف المتوَّخَى من هذا الكتاب. فالغرض الأول الذي توخيناه هو تقديم بعض النصوص القصصية إلى القارئ العربي الذي لم يكن قد اطلع، أو اطلع على رواياته، دون أن يُشكِّل أدنى فكرة عن طبيعة الكتابة القصصية عند هذا الكاتب الياباني. والغرض الثاني هو عدم توجيه القارئ من خلال وضع دراسة تحليلية قد تُقيده، وتُحد من تفاعله مع النصوص؛ ذلك أن لكل قارئ استراتيجياته في القراءة بحكم مرجعياته التي تختلف من قارئ لآخر، ومن

زمن لآخر. فكل قراءة هي قراءة فردية، وكل تأويـــل هو تأويل شخصي مبعثه التفاعل الشخصي الحر وليس التفاعل الموجَّه.

1

سقوط الامبراطورية الرومانية

- سقوط الامبراطورية الرومانية.
- ثورة الهنود عام 1881.
- غزو هتلر لبولونيا.
- وعالم الريح الهوجاء.

1

سقوط الامبراطورية الرومانية

يوم الأحد بعد الزوال لاحظت أن الريح كانت هوجـاء، وكيما أكون دقيقًا حدث ذلك في الساعة الثانيـة وتـسع دقـائق بعد الزوال.

في تلك اللحظة وكالعادة – أي مثل كل أيام الأحـد بعـد الـزوال– كنـت جالـسًا عـلى المائـدة في المطـبخ أدوِّن يوميـاتي الحميمة الأسبوعية، وأستمع إلى موسيقى غير مستفزة.

خلال الأسبوع، أكتب كل يـوم أهـم الأحـداث بـشكل مختصر، عـلى أن أعيـد كتابتهـا بعبـارات واضـحة في مـذكرة يومياتي يوم الأحد.

مجرد ما إن انتهيت من كتابة كل ما حدث إلى غاية يوم الثلاثاء، لاحظت ريحًا هوجاء تصفر خلف نافذتي. توقفت عن الكتابة، أغلقت القلم بالسدادة، وخرجت إلى الفيراندا لإدخال الغسيل. كانت القمصان تصطفق في الريح محدثة صخبًا حادًا مثل أذيال مذنبات مستعدة لقطع حبال المراكب.

الظاهر أن الريح قد هبت من غير أن أنتبه. فعندما نشرت الغسيل في الفيراندا في الصباح- على الساعة العاشرة وثمانية وأربعين دقيقة بالضبط- لم يكن ثمة هبة ريح. تذكَّرت هذه اللحظة بدقة وبصلابة غطاء على كوكوت- مينوت. وأذكر أنني قمت بهذه الملاحظة: «لا داعي لمسك الغسيل بالمقابض».

لم تكن ثمة هبة ريح حتى.

طويت الغسيل ونضدته بعناية، بعد ذلك قمت بجولة في الشقة. أغلقت جميع النوافذ، فلم يعد يُسمَع تقريبًا أي صفير للريح. كنت أشاهد من خلال النافذة الأشجار- قسطل وأرز الهيملايا- تتلوَّى بصمت وسط العاصفة، مثل كلاب تركت نهبًا لحكة لا تحتمل، فيما كانت نتف الغيوم تجري بسرعة في السماء، شبيهة بعملاء سريين بنظرة شزراء. على فيراندا الشقة المقابلة، التوى قميصان أو ثلاثة حول حبل الغسيل النايلوني، متمسكين به مثل يتيمين ضائعين.

- عاصفة حقيقية، قلت في نفسي.

رغم إمعاني النظر في تقرير النشرة الجوية من كل الزوايا، لم ألحظ أدنى إشارة تُخبر بوقوع إعصار، فيما كان احتمال سقوط المطر صفرًا في المائة. وإذا ما صدقت النشرة الجوية، فيوم الأحد كان يعد بالاستقرار مثل الامبراطورية الرومانية في ذروتها.

تنفست الصعداء بكثافة بحوالي ثلاثين في المئة؛ أعدت طي الجريدة، وشرعت في ترتيب الغسيل في الدولاب. أعددت فنجان قهوة، وأنا أستمع إلى الموسيقى الهادئة. بعد ذلك عدت إلى تدوين يومياتي مع احتساء القهوة.

[يوم الخميس، ضاجعت صديقتي التي تعشق ممارسة الحب بعصَّابة على عينيها. لهذا السبب تتنزه دائمًا وفي حقيبتها الصغيرة واحدة من تلك العصَّابات المنسوجة التي يقدمونها في طائرات المسافات الطويلة.

بالنسبة لي هذه ليست إحدى عاداتي، على حين تبدو هي فاتنة بالعصَّابة على عينيها، ما يجعلني غير معترض على عادتها. فنحن بشر ولكل واحد منا حماقاته، أليس كذلك؟]

إجمالاً، هذا ما قمت بتدوينه على صفحة الخميس؛ لأن سياستي فيما يخص اليوميات الحميمة هي ثمانون في المئة للحدث، وعشرون في المئة للملاحظات الشخصية.

يوم الجمعة صادفت صديقًا قـديمًا بمكتبـة جينـزا. كـان يلبس ربطة عنق بزخارف غريبة فعلاً: عـدد كبـير مـن أرقـام الهواتف على خلفية الخطوط.

كنت قد وصلت إلى حد هذه السطور عندما رَنَّ الهاتف.

2

ثورة الهنود عام 1881

كانت ساعتي تشير إلى الثانية وست وثلاثين دقيقة عندما بدأ الهاتف يرن. قلت في نفسي: هي بكل تأكيد - أعني صديقتي، صاحبة العصَّابة على العينين. فقد تعين أن تأتي لرؤيتي اليوم. أضف إلى أن من عوائدها مهاتفتي قبل المجيء. وقد قالت إنها ستذهب إلى السوق لشراء ما يلزم للعشاء. إذ قررنا تحضير المحار في القدر.

يبقى أن الهاتف قد رَنَّ في الساعة الثانية وست وثلاثين دقيقة. المنبه إلى جواره. وفيما كنت أنظر إليه، رَنَّ الهاتف، كنت متأكدًا تمامًا مما أزعمه.

لكن عندما رفعت السماعة، تناهى إلى مسمعي صخب عاصفة رهيب.

ريح عنيفة – وووووووو – تصفر في السماعة، وكأن الهنود في الطريق إلى الحرب إبّان ثورتهم عام 1881. لما أضرموا النار في أكواخ المعمرين، وقطعوا أسلاك الهاتف، واغتصبوا كانديس بيرجن.

– ألو، قلت لمعرفة مَن المتحدِّث، غير أن صوتي تلاشى فورًا وسط الزوبعة المتواصلة للتاريخ.

– ألو!

صرخت هذه المرة ... في سبيل نتيجة مماثلة.

وأنا أرهف السمع، تناهى إليَّ بشكل ضعيف وسط هبوب الريح، صوتٌ مبهم لامرأة. لكن ربما أكون توهمت، فقد كانت الريح شديدة بالفعل، ثم إن عددًا كبيرًا من الثيران الأميركية قد انطرح أرضًا من قبل.

بقيتُ واضعًا السماعة على أذني للحظة من غير أن أنبس ببنت شفة. ظللت ملصقًا إياها لدرجة الإحساس بعجزي عن إزالتها. أخيرًا بعد حوالي عشر أو عشرين ثانية، انقطع التواصل بغتةً مثل توقف الحياة بسبب أزمة قلبية، ولم يتبقَّ سوى صمت مطبق دون حرارة مثل ثياب داخلية غمرها ماء جافيل.

3

غزو هتلر لبولونيا

هيـا إذن! قلـت في نفـسي متنهـدًا. ثـم عـدتُ إلى كتابـة يومياتي. بدا لي من الأفضل الإسراع للانتهاء من ذلك.

السبت، إذن، غزت بولونيا جيوشُ هتلر المصفحة. وابل من القنابل على فارصوفيا... لا أخطأت، ليس هـذا. اجتيـاح بولونيا كان يوم 1 سبتمبر 1939، ولـيس أمـس. البارحـة، ذهبت إلى السينما وشـاهدت فـيلم «اختيـار صـوفيا» لميريـل ستريب. في حين أن غزو بولونيا لا يعدو أن يكون إلا واحـدًا من أحداثه. في الفيلم تطلّق ميريل ستريب دوسـتين هـوفمان، وتلتقي بروبير دو نيرو في أحد قطارات الضواحي، مهندس في

الأشغال العمومية في الأربعين من عمره، وتقترن بـه. فـيلم لا بأس به.

على الكرسيين المجاورين، جلس تلميذان في الثـانوي. لم يتوقفا عن لمس بعضهما في البطن. بطن تلميـذ الثـانوي لـيس سيئًا. فيما مضى كان لي أنا أيضًا واحد.

4

وعالم الريح الهوجاء

حين أنهيتُ تدوين ما حدث لي خلال الأسبوع، وقفتُ أمام رف الاسطوانات لاختيار اسطوانة مناسبة لبعد ظهر يوم أحد عاصف. في الأخير، آثرت كونشرتو فيولونسيل لشوستاكوفيتش، متبوعًا باسطوانة لسلاي وفاميلي ستون. بدا ذلك اختيارًا موفقًا لبعد ظهر عاصف.

بين فينةٍ وأخرى، تعبر نافذتي أشياء محلقة في الفضاء. مر قميص أبيض في اتجاه الغرب، مُحركًا كمية، مثل ساحر يحضر جروعًا بالشُّريش، تتبعه يافطة من حديد أبيض، طويلة ومسطحة، ومقوِسة من الخلف، فقرتها الضعيفة كلوطي هاوٍ أثناء ممارسة الفعل.

https://t.me/fantazynov

وأنا أشاهد المنظر الطبيعي من خلال النافذة، وأستمع لكونشرتو شوستاكوفيتش، رن الهاتف من جديد؛ إلى جواره أشار المنبه إلى الثالثة وثمانٍ وأربعين دقيقة. وبما أنني كنت أتوقع صخب عاصفة شبيهًا بضجيج بوينج 747، رفعت السماعة، لكن هذه المرة لم يكن ثمة أدنى صوت للريح.

- ألو! فاه صوت امرأة.

- ألو، أجبت مُرجعًا الصدى.

- أرغب في رؤيتك الآن ومعي المحار، ألا يزعجك هذا؟

كانت صديقتي. وكانت ستصل، حاملة معها المحار والعصَّابة السوداء في حقيبتها.

- كلا، ولكن...

- هل توجد عندك طنجرة؟

- أجل، قلت، ولكن ماذا حدث؟ لا أسمع صخب الريح.

- لا، الجو هنا هادئ. لقد توقفت الريح في ناكانو منذ الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، ولن تتأخر في التوقف عندك أنت أيضًا.

- ربما، كذلك، قلتُ، ثم أعدت السماعة إلى مكانها. أخرجت قدرًا فولاذيًّا من دولاب المطبخ، وغسلته في مغسل الأواني.

طبقًا للتوقعات، توقفت الريح بالتدقيق على الساعة الرابعة إلا خمس دقائق. فتحتُ النافذةَ ونظرت إلى الخارج. كان تحتها بالضبط كلب كبير يتشمم الأرض بحدة. واصل نشاطه لمدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة دونما كلل. لم أدرك جيدًا لماذا كان عليه أن يتشمم تحت نافذتي إطلاقًا. لكن لا بأس.

بصرف النظر عن ذلك، بدا أن مظهر العالم ونظامه لم يتغيرا قيد أنملة خلال هذا الفاصل الريحي. أشجار الأرز وقسطل الهيملايا ظلت منتصبة من جديد وصامتة في العراء وكأن لا شيء حدث. تدلى الغسيل الجاف على حبل النايلون، وغراب واقف على رأس عمود التلجراف يحرك جناحين شديدي اللمعان مثل بطاقة بنكية.

في تلك الأثناء، وصلت صديقتي، وشرعت تهيئ المحار في القدر. غسلته وهي واقفة في المطبخ؛ قطعت بحيوية الكرنب الصيني إلى شرائح دقيقة، وصففت مربعات الطوفو الصغيرة، ثم أعدت مرقًا لتطبخ فيه ما حضرته.

سألتها إن لم تكن حاولت مهاتفتي على الساعة الثانية وست وثلاثين دقيقة.

- بلى، هاتفتك، أجابت، وهي تشطف الأرز في مصفاة تحت الحنفية.

– لم أسمع شيئًا.

– حقًّا. كانت الريح قوية جدًّا في تلك اللحظة، قالت، وكأن الأمر يتعلق بتفصيل غير ذي بال.

أخرجتُ قنينة جعة من الثلاجة، وجلستُ على حافة المائدة، ثم أفرغتُها في جوفي.

– ولكن في رأيك، لماذا تحوَّلت الريح إلى عاصفة لتتوقف فجأة؟ سألتها مهما حدث.

– هذا ما ليس لي به علم، أجابت (وأدارت لي ظهرها منشغلة بتقشير الجمبري بأظافرها)، ثمة عدة أشياء نجهلها عن الريح، مثلما هناك عدة أمور لا نعرفها عن العصور القديمة، وداء السرطان، وأعماق المحيطات، والكون أو الجنس.

– مِمَّ، قلت.

غير أن ذلك لم يُشبع فضولي. وإذ شعرت بخيبة أملي في إيضاح الحديث معها، صرفتُ النظر عن الأمر، وأخذت أنظر إلى إعداد طبق الطعام.

– هل أستطيع أن ألمس بطنك؟ سألتها.

أجابتني:

– بعد قليل.

وبينما كنت أنتظر أن تُجَهِّز الوجبة، دَوَّنتُ أحـداث اليـوم المهمة، في انتظار تحرير يومياتي الأحد المقبل.

هذا ما قمت بتدوينه.

سقوط الامبراطورية الرومانية.

ثورة الهنود عام 1881.

غزو هتلر لبولونيا.

وهكذا أكون متأكدًا من تذكر ما حدث هذا اليوم بدقـة، وحتى خلال الأسبوع. فالاحترام الشديد لهذا الإجراء سـمح لي بالحفاظ على يومياتي منذ اثنين وعشرين سـنة دونـها إغفـال يوم واحد. كل فعل مهم له إجراؤه الخـاص. أمـا أن تعـصف الريح أو لا تعصف، فعلى هذا النمط أعيش.

2

الوحش الأخضر

ذهب زوجي كعادته إلى العمل، وجلستُ وحيـدةً قُـرب النافذة متكاسلة، أرنو إلى الحديقة من خلال الـستائر. لم يكـن لديَّ أي سبب معين لتأمل الحديقة. غير أنني لم أجد أفضل من ذلك. قلت في نفسي عاجلاً أم آجلاً سوف تنتـابني فكـرة مـن شدة التحديق فى الخارج، خاصةً وأنني كنـت أشـاهدُ شـجرة السنديان، الشجرة المفضلة لدي. غرستها شتلة، وَنَمَـتْ أمـام عيني. كنت أفكر فيها مثل صـديق قـديم. ومـن حـين لآخـر أتحدَّث إليها في سريرتي.

في ذلـك اليـوم أيـضًا، كنـت آخـذة، مـن دون شـك، في التحـدُّث إلى الـسنديانة. لم أعـد أتـذكر عـن أي شيء كنـتُ أتحدَّث، ولا كم من الوقت جلستُ هناك. فالوقت يمر كَلَمْحِ البصر لما أشاهد الحديقة على هذا النحو. أرخى الظلام سدوله

https://t.me/fantazynov

في غفلةٍ مني. لكن المؤكد هو أنني جلست لمدة طويلة أمام النافذة، وعلى حين غرة سمعت ذاك الصخب. صوت خافت، على شكل احتكاك بعيد. اعتقدت للوهلة الأولى أن مصدره من داخل جسدي، من أعماقه، إنذار آت من الشرنقة المبهمة التي يحيكها جسدي في الداخل. حبستُ أنفاسي كي أستمع. بدأ الصوت، بالتأكيد، يقترب شيئًا فشيئًا. ما تُراه قد يكون؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرة. كل ذلك اقشعر له جسمي.

عند قدم السنديانة، بدأت الأرض تنتفخ، وترتفع وكأنما تحت ضغط سائل ثقيل وسميك. حبست أنفاسي من جديد. انشق ما ارتفع من الأرض، وبرز أمام عيني مخلبان مسننان، وعينان مصوبتان نحوهما. كمشت يدي وقلت في نفسي سيحدث أمر ما. هذه ليست إلا البداية. كان المخلبان يكشطان الأرض بعنف. بعد برهة تحوَّل الشق إلى ثقب اندفع منه حيوان صغير أخضر بجسد تغطيه حراشف خضراء لامعة.

ما إن خرج من الثقب، حتى تنفض لإزالة ما علق به من مدرات الأرض. كان له أنف غريب ممدود صار لونه الأخضر غامقًا عند نهايته. وكانت نهاية هذا الخرطوم ضامرة وذلقة تُذَكِّر بسوط. أما عيناه فكانتا بشريتين، انتابتني ارتعاشة عند النظر إليهما؛ إذ كانتا تُغَيِّران عن انفعالات مثل انفعالاتي أو انفعالاتكم.

بدون تردد، بتوانٍ وتروٍّ، اقترب الحيوان من البـاب. شرع يطرقه بطرف خرطومه الذلق. رجَّعت الطرقـاتُ الـصدى في كل أرجاء البيت. توجهت وأنا أمـشي عـلى رؤوس أصـابعي نحو الغرفة الداخلية، أمني النفس بـأن الحيـوان لـن يكتـشف وجـودي. لم أسـتطع حتـى الـصراخ. إذ كـان بيتنـا منعـزلاً، وزوجي يعود متأخرًا من العمل في المساء. لم يكن في مستطاعي الهرب من الباب الخلفي، لكون البيت لا يتوفر سوى على باب واحد. هو الباب الذي كان يجهد المخلوق الرهيب في اجتيازه. كنت أتنفس بهدوء بقدر ما أستطيع في محاولة لطمس كل أثـر لوجودي، آملة في أن يكل هذا الشيء ويعود أدراجه. غير أنه لم يكف. كنت أسمع خرطومه يطـرق البـاب ويقلـب في جهـة القفل. بدا أنه لم يجد صعوبة في كسر القفـل. عـلى إثـر ذلـك، انفتح الباب، محدثًا صريرًا. رأيت خرطومه ينـدس في الفتحـة ثم شلت حركته. ظل على هذا النحـو لمـدة طويلـة مثـل حيـة بخطم منتصب، محاولاً استنشاق هواء البيت. قلت في نفـسي: لو كنتُ أعلم أن هذا سيحدث، لظللت بالقرب مـن البـاب، وحالما يطل أجذع أنفه. فقد كان بالمطبخ العديد من السكاكين المشحوذة. ما إن عبرت هذه الفكرة رأسي حتى تخطى المخلوق العتبة هازئًا، وكأنه عرف ما جال بذهني. ثم بدأ يتكلم بـدون تلعثم لكن مع تكرار بعض الكلمات، وكأنه تعلمهـا حـديثًا. «لـن يفيـد ذلـك في شيء، لـن يفيـد». قـال الـوحش. «إن

خرطومي، مثل ذيل عظاية، يدفع دائمًا بقوة وإلى أبعد حد. قد تكوني تلقيتِ نتيجة عكسية، عكسية». ثم أدار عينيه وكأنهما دوامتان غريبتان.

يا إلهي، لا.. قلت في نفسي. إنه يعرف ما يجول في خاطري! فأنا أكره حتى فكرة أن يعرف شخص ما أفكر فيه، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بوحش صغير مرعب ومتعذر سبره مثل هذا الوحش. أحسست بعرق بارد يكتسح كل أطراف جسدي. ما الذي سيفعله بي هذا المخلوق؟ هل سيفترسني، أم سيجرني معه إلى غياهب الأرض؟ على الأقل إنه ليس من الرعب بحيث لا أتحمل النظر إليه. هذا شيء جيد، قلت في نفسي وأنا أنظر إليه. برزت من قوقعته ذات الحراشف الخضراء التي تغطي جسمه قائمتان ورديتان نحيفتان تنتهيان بمخالب طويلة. وجدتهما ظريفتين من فرط النظر إليه؛ أدركت أيضًا أن هذا المخلوق لا يريد بي سوءًا.

بكل تأكيد لا، قال وهو يهز رأسه. وعند كل حركة، ترتطم الحراشف بعضها ببعض وكأن أحدًا ما دفع مائدة تكدست عليها فناجين القهوة. أي فكرة رهيبة يا سيدتي. أكيد لا، لا، لا، لن أفترسك، ولا أضمر لك الأذى. كنت على حق، فقد كان يسبر أفكاري.

سيدتي، سيدتي، ألا ترين؟ جئت من القاع، من قاع الأرض لأبوح لك، أبوح. لقد تعين عليَّ أن أزحف لأصل إلى

هنا. كان الأمر فظيعًا، وكان علي أن أحفر، أحفر. انظري، مخالبي ملوثة الآن. وما قمت بذلك بغية إزعاجك قطعًا. إنني أحبك، أحبك لدرجة أنني لم أعد أحتمل البقاء تحت الأرض. لهذا قطعتُ هذه المسافة زحفًا للوصول إليك. حاولوا ثنيي، غير أنني ما عدتُ بقادر على العيش في التحت. فكري في الشجاعة التي كان عليَّ امتلاكها، فكري! أكان عليَّ أن أقوم بكل هذا مجانًا إذا ما اعتقدت أن ذلك كان فظاعة وادعاء من جانب وحش مثلي كي يبوح لك بحبه!

لكن ذلك كان فظاعة وادعاء بحق، قلت في نفسي. كيف يتجرأ هذا المخلوق الرهيب مثلك على الحضور ليطلب مني أن أحبه؟

ما إن خطرت هذه الفكرة ببالي حتى ارتسمت على الوحش الصغير الخيبة. تغيَّرت حراشفه إلى لون بنفسجي وكأنها تُعبِّر عن أحاسيسه، وبدا كل جسمه متقلصًا. شبكت ذراعي، وأنا أراقب هذه التحولات تجري أمام عيني. ربما هذه الظاهرة تحدث متى تغيَّرت أحاسيسه. وربما يخفي هذا المظهر الخارجي البشع قلبًا هشًا حنونًا مثل قطعة نبات الخبازيات. أدركت أنه إذا كان على هذا النحو، فقد أفوز. كان عليَّ أن أحاول. إنك وحش صغير مقرف، صرخت في دواخلي بشدة بحيث شعرت بالصدى يهتز له قلبي. أنت منفر أيها الوحش التافه! غَمُقت حراشفه شيئًا ما، وبدأت عيناه تجحظان وكأنها

تمتصان كل الكراهية التي أوجهها إليهما. صارتا نـاتئتين وهمـا تخرجان من وجهه مثل تينتـين ناضـجتين إلى حـد الانفجـار، ودموع تشبه عصيرًا أحمر جعلت تسيل وتصل إلى الأرض.

لم يعـد الـوحش الـصغير يرهبنـي. تخيلـت كـل أنـواع التعذيب التي رغبتُ في إلحاقهـا بـه. ربطتـه إلى كـرسي ثقيـل بخيوط حديدية سميكة، وبمنتاف نزعتْ كـل حراشـفه مـن جذرها واحدًا واحدًا ، وحميت سكينًا مـسننة وحـززت لحـم عرقوبيـه النـاعم الـوردي حـزات غـائرة، ثـم كويـت عينيـه الجاحظتين مثل تينتين. عند كل تعـذيب جديـد أتخيلـه يقفـز ويتلوَّى، ويئن وكأنني أنزل به حقًّا هذا العذاب الشنيع الـذي أمارسه عليه. عيناه تذرفان دمعًا ملونًا، وسائل ينساب بهـدوء إلى الأرض، وبخار رمادي بشذا الزهـور ينفلـت مـن أذنيـه. كانت عيناه ترسلان نظـرات عتـاب مزعجـة. سـيدتي، صرخ قائلاً، أرجـوك، أتوسـل إليـك، لا تـسيئي الظـن بي. فلـست أرغب في إذايتك بأدنى شيء. كـل مـا أشـعر بـه تجاهـك هـو الحب، الحب! لكنني رفضت الاستماع إليه. أجبته في خيالي: لا تكن تافهًا. زحفت إلى حديقتي، وفتحـت البـاب بـدون إذن، ودخلت إلى بيتي بعد أن كسرت الباب. لم أدعُك البتة إلى هنا. ولي الحـق في التفكـير في كـل مـا أريـد. وهـذا بالـضبط مـا استمررت في القيام به. وجهتُ أفكارًا رهيبة أكثر فأكثر نحـو المخلوق. كنت أشج وأعذب لحمه بواسطة كل الآلات التـي

تصورتها. استعرضت كل الطرق الممكنة لتعذيب كائن حـي، وجعله يتلوى من شدة الألم. هاك، انظر، أيها الوحش الصغير التافه، أنت لا تعرف مَن تكون المرأة. فعذابي آبد. لكن سرعان ما بدأت حدوده تتمازج، وخرطومه الأخضر يقصر إلى حـد لم يعد بحجم سُرفَة الذباب. تلوى على الأرض، حاول أن يفتح فمه للكلام، باذلاً كل ما في وسعه لتحريـك شـفتيه ويبلغنـي يعلم الله أي رسالة، أو يوصـل إليَّ حكمـة قديمـة، أو معطـى أساسي سها عن إبلاغه إيـاي. مـع ذلـك، وقبـل أن يوفـق في الأمر، انتاب فمَه جمود مؤلم، ثم تمازج واختفى. ولم يعد سـوى ظل شاحب ذي مسحة مـسائية. لم تبـقَ إلا عينـاه الجاحظتـان الكئيبتان معلقتين في الهواء. هذا لـن ينفعـك في شيء، قلـت. يمكنك أن تنظر إليَّ قدر ما تستطيع، لكن لن تقدر على قول أو فعل أي شيء. وجـودك زال وانتهـى، ومُحيـت مـن الخارطـة. لحظتئذٍ بدأت أرى عينيه، هما أيـضًا، تـذوبان في الفـراغ، وفي أرجاء الغرفة عَمَّ دجى الليل.

3

الهجوم الثاني على المخبزة

هل كان اختياري في محله يوم حدثت زوجتي عن الهجوم على المخبزة؟ اليوم أيضًا لست متأكدًا، ولكن قد لا نحكم على هذه القضية بحسب الاختيار الحسن أو السيئ. ما أود قوله هو أن في الحياة اختيارات سيئة تفضي إلى نتائج إيجابية، واختيارات حسنة تنتج عنها عواقب مشؤومة. لتفادي هذا العبث، أعتقد أنه يتعين استعمال هذه اللفظة - ، يجب الاعتراف، في الواقع، أن ما يحدث لنا لا نختاره. إجمالاً، هذا هو الموقف الذي تبنيته في حياتي. ما وقع وقع، والذي مازال لم يحدث، لم يحدث بعد.

إذا ما نظرنا إلى الأشياء من وجهة النظر هذه، على كل حال، فإنني حكيت لزوجتي عن الهجوم على المخبزة. ما

حكيته، حكيته، والحدث الذي ترتب عنه قد وقع، ولا أحد بقادر على فعل أي شيء. إذا ما اتفق وأن بدت هذه القضية شاذة في نظر أي كان، فأعتقد أنه يتعين البحث عن الأسباب وسط الظروف العامة التي تشمل أيضًا هذا الحدث. لكن ليست الطريقة التي أفكر بها هي ما سيتغير كيفما كان في الوقائع. إنها فلسفة، بدون زيادة.

ما دعاني لاستحضار هذا الهجوم على المخبزة أمام زوجتي تمثل في حدث خاص جدًّا. لم أتوقع مسبقًا أن أحكي لها كل شيء، لكن لم يكن قط من قبيل «على فكرة، فجأة تعود بي الذاكرة ...»، والواقع أنه إلى حدود استعمال عبارة «الهجوم على المخبزة» أمام زوجتي، كنت قد نسيت تمامًا اقترافي لهذا الفعل.

جوع لا ينطفئ ذكرني بهذا الحدث. أحسست به في الساعة الثانية صباحًا. حوالي السادسة مساءً تناولت أكلة خفيفة مع زوجتي، وفي الساعة التاسعة والنصف ذهبنا إلى النوم. ما إن أخذتنا غفوة حتى استيقظنا في الوقت نفسه لسبب لا أعرفه. جوع شديد يطحننا، تعادل قوته قوة زوبعة ساحر أوز. جوع قد توصف قوته بكونها خرقاء.

والحال أنه لم يكن في الثلاجة ما يستحق نعته بالأكل. قارورة خل، وست علب بيرة، وحبتا بصل يابستان، وبعض الزبدة، ومزيل الروائح. لم يمر على زواجنا سوى أسبوعين،

كما أننا لم نضع حتى الآن قواعد الاعتراف المتبادل المتعلقة بعلم التغذية. كانت هناك عدة أمور أخرى تعين علينا تسويتها في تلك الفترة.

في ذلك الوقت كنت أشتغل على دراسة، وكانت زوجتي تعمل سكرتيرة بمدرسة لتصميم الأزياء. كنت في حوالي التاسعة والعشرين من عمري(لست أعرف لماذا لم أعد أتذكر سنة زواجي)، في حين تصغرني زوجتي بسنتين وثمانية أشهر. كنا نعيش حياة مضطربة، شقتنا مكدسة مثل مغارة كنز، ولم يكن لنا حتى الوقت الكافي للتفكير في شراء التموين.

نهضنا من السرير، وتوجهنا إلى المطبخ؛ ظللنا للحظة جالسين إلى المائدة وجهًا لوجه دونما حاجة. طحننا الجوع طحنًا بحيث لم نعد نفكر في العودة إلى النوم - حتى فكرة التمدد كانت متعبة - شدة الجوع منعتنا حتى من النهوض ومباشرة أي عمل كان. لم تنتابنا أية فكرة عن كيف ولماذا باغتنا هذا السغب الشديد.

حدانا بصيص من الأمل، وتوجهنا، كل واحد بمفرده إلى الثلاجة التي عند كل مرة لم تتغير محتوياتها: البيرة، حبتا البصل، الخل، مزيل الروائح، الزبدة. لم يبقَ لنا سوى إمكانية قلي البصل في الزبدة، لم يكن معقولاً أن تشبع هاتان البصلتان الذابلتان ذاك السغب الذي يسحقنا. البصل جُعل ليؤكل مع شيء آخر. هو ليس بنوع الغذاء الذي يشبع نهم غول.

- ما رأيك في قليل من مزيل الروائح مقليًّا بالخل؟ اقترحت على زوجتي.

وكما كان متوقعًا، كان الجواب على تفكهي صمت صقيعي.

- لنأخذ السيارة، ونذهب بحثًا عن مطعم مفتوح طوال الليل، قلت، إذا أخذنا الطريق الوطنية، حتمًا سنجد واحدًا.

رفضت زوجتي الاقتراح، لم تكن لها رغبة في تناول العشاء خارج البيت.

- أن أتناول طعام العشاء خارج البيت بعد منتصف الليل، هذا منافٍ لمبادئي، قالت.

من هذه الناحية، كانت بالأحرى محافظة.

- كما تريدين. قلت متنهدًا.

ربما هذه نزعة مشتركة بين كل الشباب المتزوج، ومع ذلك، فهذا النوع من الآراء (أو الأطروحات) الذي عبرت عنه زوجتي رن في أذني وكأنه أمر. بعد أن قالت ذلك، حصل عندي انطباع بأن الجوع الذي يطحنني كان من نوع خاص، وليس جوعًا عاديًّا قد نسكته ببساطة بالذهاب إلى واحد من تلك المطاعم المتواجدة على طول الطريق الوطنية، والتي تظل مفتوحة طيلة الليل.

إنها ما الجوع الخاص؟

قــد أغــامر بعــرض الوضــع عــلى شــكل صــورة سينماتوجرافية. 1) أنا على متن مركب صـغير في المحـيط. 2) أنظر تحتي، وأرى تحت سطح الماء رأس بركان مـائي. 3) قـد يُقال إن بين هذا الرأس وسطح الماء ليس َثمـة مـسافة كبـيرة، لكن يستحيل معرفتها بدقة. 4) وهذا لكون شدة شفافية المـاء تجعل تقييم المسافة صعبة.

هذه، إجمالاً، الصورة التي عبرت ذهني خلال الـثلاث أو الأربع دقائق التي تلت إعلان زوجتي، الـرافض للـذهاب إلى مطعم مفتوح ليلاً، قبيل موافقتي بقولي: «معك حق». بطبيعـة الحال، وبما أنني لا أُدعى سـيجموند فرويـد، سيـصعب عـليَّ تحليل دلالة هذه الـصورة بدقـة، لكننـي أدركـت بحـدس أن الأمر يتعلق بصورة ذات كشف صـوفي. هـذا بالتحديـد لمـاذا قبلت بشكل آلي تقريبًـا - رغـم العنـف الاسـتثنائي لجـوعي الشديد - (أو بالأحرى إعلان) زوجتي.

ولأنه لم يكن هناك حل آخر، فتحت علبة بيرة وكرعتها. كان شرب البيرة أفضل من أكل البصل بألف مرة. أما زوجتي فقد كانت تكره هذا الشراب. شربـت أربعًـا، وهـي الاثنتـين المتبقيتين في الوقت الذي كنت أكمل الشرب. ثم ذهبتْ تفتش بهـدوء في دولاب المطـبخ، مثـل سـنجاب في شـهر نـوفمبر؛ وجدت أربع كعكات في قاع كيس تبقت يوم صنعنا شرلوتة.

كانت الكعكات مرتخيتين بفعل الرطوبة. أكل كل واحد منا اثنتين، وكأننا نتناول سلعة باهظة.

للأسف لا البيرة ولا البسكويت تركا أثرًا في بطنينا الجائعين، الشبيهين في اتساعهما وتحديدهما شبه جزيرة سيناء مُشاهَدة من السماء. وهذه النتوءات البارزة لا تعدو أن تكون منظرًا طبيعيًّا جاحدًا يعرض أمام نافذة القطار.

عكفنا على قراءة الحروف المطبوعة على علب البيرة الأليمنيومية. ننظر إلى ساعتينا عدة مرات، ونلقي نظرة على الثلاجة؛ نتصفح جريدة المساء لليلة الغد، ونجمع بزاوية الكارت بوسطال فتات البيسكويت المتناثرة على المائدة. كان الوقت ثقيلاً وكأنه وزن رصاص قصبة صيد في بطن سمكة.

- أول مرة في حياتي أشعر بمثل هذا الجوع، قالت زوجتي، هل تعتقد أن لذلك علاقة بالزواج؟

- لا أعرف، أجبت، قد تكون ثمة صلة وقد لا تكون.

من جديد فتشت زوجتي في رفوف المطبخ، بحثًا عن نتف من الطعام، فيما كنت وأنا مشرئب من جديد من على مركبي، أشاهد قمة البركان من تحت المياه. وضعتني شفافية ماء البحر المحيط بالمركب في حالة اضطراب رهيب. غمرني إحساس بكون هوة تنفتح في مكان خلف جوف معدتي. هوة خالصة بدون مدخل ولا مخرج. إحساس غريب بالنقص - الشعور

بالوجود الحقيقي للفراغ – يشبه ذلك الخوف المعطل الذي يشعر به المرء لما ينحني من قمة برج عالٍ. كان اكتشاف النقط المشتركة بين الجوع والدوار تجربة جديدة بالنسبة لي.

في تلك اللحظة بالضبط تذكرت أنني أحسست بالشيء نفسه. في تلك اللحظة شعرت بالجوع كما أشعر به الآن. وفي هذه اللحظة كان...

- الهجوم على المخبزة!

انفلت مني ذلك، وأمسكت زوجتي بالكرة في الجهة الأخرى.

- الهجوم على المخبزة؟ أي هجوم على المخبزة؟

تلكم كيف تذكرت الهجوم على المخبزة.

- منذ فترة طويلة هاجمت مخبزة، قلت لها. ليست مخبزة كبيرة، ولا حتى ذات صيت. لم يكن الخبز جيدًا بشكل خاص، ولا ذا مذاق حتى. مخبزة رديئة مثل المخبزات الأخرى في المدينة. جد يصنع بنفسه الخبز ويبيعه في زقاق تجاري. عندما يبيع كل ما خبزه، يغلق المحل. لقد كانت مخبزة متواضعة.

- ولماذا اخترت هذه المخبزة الصغيرة؟

- لم يكن من داعٍ للهجوم على واحدة كبيرة. كل ما أردناه، كان الخبز لملء بطوننا. لم نرغب في سرقة المال. لم نكن لصوصًا بل مهاجمي مخبزة.

- «نحن»؟ تسألت زوجتي. مَن هذه «نحن»؟

- شريكي في تلك الفترة، قلت. يعود ذلك إلى أكثـر مـن عشر سنوات. لم نكن نملك نحن الاثنين فلسًا واحدًا، ولم يكن لنا حتى ما يسعفنا لشراء معجون الأسنان. بطبيعة الحال، كنـا نعاني دائمًا من قلة الطعام. في تلك الفـترة قمنـا بـأي شيء. أي شيء كان مباحًا عندنا للحـصول عـلى الطعـام. الهجـوم عـلى المخبزة كان وسيلة أيضًا لإطعامنا...

- لا أتابعك جيدًا. قالت زوجتي، محدقة فيّ. (كانـت لهـا بالضبط نظرة مَن يبحـث عـن نجمـة شـاحبة في الـسماء عنـد الفجر.) لماذا كنتما بحاجة إلى القيام بذلك؟ ولمـاذا لم تـشتغلا؟ كان بالإمكان إيجاد عمل يمكنكما مـن اقتنـاء الطعـام، ألـيس كذلك؟ يبدو لي في الواقع أن مثل هذا الأمر أسهل من الهجوم على مخبزة، أليس كذلك؟

- ولكن لم تكن لدينا رغبة في العمل... تابعت قائلاً. كان ذلك واضحًا.

- ومع ذلك فأنت تشتغل الآن جيدًا؟

أومأت برأسي إيجابًـا، وأخـذت جرعـة مـن الجعـة، ثـم فركت جفني بباطن يدي. منحتني علب البيرة التي سكبتها في جوفي رغبة في النوم. نوع من وحل خفيف كان يرشح داخـل وعيي، آتٍ من خصام مع جوعي.

- الحقيقة أن الأزمنة تتغير، وكذا أمزجتنا، كما أن طريقة تفكيرنا تتطور، قلت. ألا نعود إلى النوم؟ يجب أن نستيقظ غدًا باكرًا نحن الاثنين.

- لا أشعر بالنوم، وأود أن تحكي لي عن هجومك على المخبزة، استطردت زوجتي قائلة.

- إنها بالأحرى قصة مملة. مخيبة للآمال وغير ذات أهمية عكس ما تعتقدين على كل حال. ليس هناك في الحقيقة مَن فعل.

- وهل مرت الأمور على ما يرام؟

هجرتُ النوم، ونزعت حلقة سدادة علبة بيرة جديدة. عندما ترغب زوجتي في الاستماع إلى قصة، يجب أن تستمع إليها حتى النهاية. تلك عادتها.

- كانت النتيجة جيدة. وفي الوقت نفسه لم تكن كذلك. بتعبير آخر، حصلنا على ما يكفي من خبز، إنما ليس بالقوة. أعني أن الخباز أعطانا ذلك الخبز قبل أن نهم بسرقته.

- مجانًا؟

هزرت رأسي نفيًا بشدة.

- ليس بالتحديد. هنا تعقد الأمر شيئًا ما. فقد كان الخباز مهووسًا بالموسيقى الكلاسيكية. حين وصلنا، كان في محله

يستمع إلى مفتتحات فاجنر، وعرض علينا صفقة: إذا استمعنا معه إلى هذه الاسطوانة حتى النهاية، سيدعنا نأخذ ما نشاء من الخبز. بعد أن نظرنا في الأمر أنا وصديقي، توصلنا إلى هذه النتيجة: يمكن أن نستمع إلى شيء من الموسيقى، لم لا؟ لم يكن ذلك عملاً بصريح العبارة، ولن يضر أحدًا في شيء. أعدنا سكينينا إلى محفظتينا، واستوينا على مقعدين للاستماع مع الخباز إلى مفتتح تانهوسر وفيصو فانتوم.

- بعد ذلك، قدم لكما الخبز.

- بالضبط. حشونا، أنا وصديقي، محفظتينا بالخبز الموجود في المحل. فصار عندنا ما نحتاج إليه لمدة أربعة أيام أو خمسة. قلت، وأفرغت جرعة من الجعة في جوفي.

جعل النعاس يمايل مركبي وكأن هزة أرضية تحت سطح البحر قد أحدثت موجة في القعر.

- بطبيعة الحال، أنجزنا المهمة وحصلنا على الخبز، تابعت قائلاً، إلا أنه لا يمكن اعتبار ذلك عملاً إجراميًّا. كان مجرد مقايضة. استمعنا إلى فاجنر، وبالمقابل قدّم لنا الخباز بعض الخبز . كانت صفقة قانونية.

- لكن الاستماع إلى فاجنر ليس هو العمل، ردت زوجتي.

- طبعًا، قلت، فلو طلب منا الخباز، بدل ذلك، غسل الأواني أو تلميع النوافذ، ما كنا لنقبل، وكنا بالتأكيد سنهجم ونسرق الخبز. غير أنه لم يطلب شيئًا من هذا القبيل. طلب فقط الاستماع معه إلى فاجنر. وهذا أدخلنا في حيرة. إذ من الطبيعي ألا نتوقع إقحام فاجنر في هذه القصة. كان مثل قدر نزل علينا. اليوم وبالعودة إلى الوراء لديَّ قناعة بأنه كان من الأفضل اتباع الخطة الأولية، والهجوم عليه ببساطة بالسلاح وسرقة خبزه. وهكذا لن يكون ثمة من مشكل.

- أكان ثمة مشكل؟

فركت جفني من جديد.

- نعم. ولكن ليس مشكلاً ملموسًا يرى بالعين المجردة. منذ هذه القصة، تغيرت الأشياء بشكل غير محسوس. فحالما تشرع الأشياء في التغيير، لن تعود إلى الخلف. أخيرًا، رجعت إلى الجامعة لإنهاء دراستي مثل الجميع، وهيأت لامتحان ولوج سلك القضاء باشتغالي على دراسة. بعدئذٍ التقيتك وتزوجتك. ولم أسط على مخبزة قط.

- وهل انتهت قصتك؟

- أجل. توقف الأمر هنا، قلت منهيًا جعتي.

كانت العلب الست فارغة آنذاك. وفي المرمدة كانت ترقد ست حلقات، التي تفتح منها العلب مثل قشرات حورية البحر.

بالطبع، لم يكن صحيحًا أن لا شيء حدث. فقد جرت عدة أحداث بعد هذه القصة. لكن لم تكن لي رغبة في حكيها لها.

- وصديقك، ماذا أصبح؟ سألتني زوجتي.

- لا أعرف. بعد هذا الحادث ساءت الأحوال بنينا لأسباب تافهة. لم أعد أره، ولا أعلم ما الذي يفعله اليوم.

ظلت زوجتي صامتة للحظة. وأعتقد أنها أحست بتملص في جوابي. ومع ذلك، لم تؤكد على هذه النقطة.

- ولكن السبب المباشر لانفراط شراكتكما كان السطو على المخبزة، إن لم أكن مخطئة؟

- بدون شك. أعتقد أن الصدمة التي تسببت فيها هذه القصة كان لها أصداء أجسم مما كان لنا في الحسبان. فبعد ذلك، وخلال أيام ناقشنا العلاقة بين الخبز وفاجنر. وتسألنا إن كنا قد قمنا بالاختيار الجيد؛ إلا أننا لم نصل إلى أي نتيجة. من ناحية التفكير العادي، الاختيار كان بالتأكيد جيدًا: لا أحد أصيب بجروح، والكل كان راضيًا، الخباز - لم أفهم أبدًا دوافعه الحقيقية، على كل حال، فقد سمح له ذلك بالترويج لفاجنر - أما نحن، فقد أكلنا الخبز براحة بال. ومع ذلك، كنت أشعر بأن في الأمر خطأً فادحًا. وأن الظلال السوداء لهذا

الخطأ، والذي انفلت منا دائمًا مبدأه، قد غمر حياتنا. وهذا لماذا تكلمت عن القدر قبل قليل. لا شك أن ذلك لعنة.

- وهل تظن أن هذه اللعنة قد انجلت اليوم؟ ولا تنوء بكلكلها عليك أنت وصديقك؟

جمعت حلقات السدادات من المرمدة، وصنعت منها دملجًا من الألومنيوم.

- لا أعرف. يبدو أن في العالم لعنات متنوعة، وحين تحل بنا المشاكل، من الصعب معرفة لأي مشكل تعود اللعنة.

- لا. هذا غير صحيح، قالت زوجتي ممعنة النظر فيّ. إذا ما فكرنا جيدًا، قد نعرف. لكن ما دمنا عاجزين عن فك هذه اللعنة بأيدينا، فإنها تجعلنا نتألم طوال حياتنا مثل سوس في ضرس لم يعالج جيدًا. وما ينطبق عليك، ينطبق عليّ.

- ينطبق عليك؟

- أنا الآن أعز أصدقائك، أليس كذلك؟ مثلاً، هذا الجوع الذي نشعر به هذه اللحظة، إنه يحق علينا. فقبل أن نتزوّج، لم أشعر بمثله، ولا مرة واحدة. ألا تجد ذلك استثنائيًّا؟ إنني على يقين بأن اللعنة التي نزلت عليك تحيق بي أيضًا.

أومأت برأسي، وفككت الدملج الذي صنعت، ثم ألقيت ثانية بالحلقات في المرمدة. هل كانت على حق أم لا؟ بدا لي ما قالته واضحًا تقريبًا.

من جديد عاد الإحساس بالجوع وارتد إلى تخـوم وعيـي؛ كان هذه المرة أشـد مـن ذي قبـل بحيـث شـعرت بـصداع في الرأس. وكانت اهتزازات أدنى ليف في معدتي مرتبطة بـأعماق رأسي بخيط. يا لها من آليات معقدة توجد داخل جسدي!

أشاهد مـن جديـد البركـان التحتمائـي. وصـل المـاء إلى مستوى شفافية لا تضاهى، بحيث قد ننسى تقريبًا حضور الماء إن لم ننظر بانتباه. كنت أشعر بأن هذا المركب يسبح وحيـدًا في الفضاء دونما سند سائل، وكنت أميز بوضوح أصـغر حـصاة في عمق الماء تبدو لي في متناول اليد.

- لم أعش معك حتى الآن سوى ستة أشهر، لكنني أحس دومًا بحضور نوع من اللعنة تحوط بك، قالت، ثم وبـدون أن تشيح ببصرها عني، شـبكت أصـابعها فـوق المائـدة. بطبيعـة الحال، حتى قبل أن تحكي لي قصتك، لم أكن أعـرف أن الأمـر يتعلق بلعنة. الآن أرى ذلك بوضوح. إنها لعنة تثقل كاهلك.

- كيف تحسين بها، وكيف هو شكل هذه اللعنة؟ غامرت بالسؤال.

- ستارة مليئة بالغبار لم يتم غسلها منذ سنوات، منـسدلة من السقف. هل تفهم؟

- هذا، لا يمكن اعتباره لعنة، قد يكون ببساطة أنا، قلت ضاحكًا.

لم تضحك هي.

- لا، لا، لست أنت. أعرف عما أتحدَّث.

- لنفترض ذلك لعنة كما تقولين، ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟

- أن تسطو من جديد على مخبزة، قالت بنبرة جازمة. فليس هناك من وسيلة أخرى للتخلص من هذا القدر.

- هناك، الآن، حالاً؟

- أجل. الآن مادمت تشعر بالجوع. عليك أن تنجز الآن المهمة التي لم تنهها من قبل.

- وهل تعتقدين أن هناك مخبزات مفتوحة في منتصف الليل؟

- لنبحث عن واحدة! قالت زوجتي. فطوكيو مدينة شاسعة. من المؤكد أن هناك على الأقل واحدة مفتوحة بالليل في مكانٍ ما.

* * *

ركبنا سيارة الكورولا القديمة، وجعلنا نطوف في أزقة طوكيو، بحثًا عن مخبزة مفتوحة في الثانية والنصف صباحًا. أمسك بالمقود فيما هي تجلس بجانبي، وتلقي على جانبي الطريق نظرات كاسرة ثاقبة. كان مسدس من نوع ريمنجتون مسندا على المقعد الخلفي مثل سمكة، والرصاصات التي

كانت زوجتي تحتفظ بها بتأهب في كيس شاطرة الهواء تطقطق بخشونة. وفي صندوق السيارة الأمامي، كان هناك كـاجولان للتزلج أسودان. لم تكن لي أدنى فكرة عن سبب حيازة زوجتي لمسدس، كما أنني لم أعرف لماذا كانت تحتفظ بكاجولي التزلج. فكلانا لم نكن نمارس هذه الرياضة. غير أنهـا لم تقـدم لي أدنـى تفسير؛ ومن جهتي لم أطرح عليها أية أسئلة. شعرت بأن الحياة الزوجية ظاهرة غريبة جدًّا.

مع ذلك، وبالرغم من هذه العـدة التـي يمكـن اعتبارهـا كاملة، لم نتمكن من العثور على مخبزة مفتوحة. ذرعنـا الأزقـة المقفرة من يويوجي إلى شينجوكو، ثم إلى يوتسويا، وأكاساكا، وهيروني، وأيويامـا، وروبـونجي، ودايكانيامـا، وشـيبويا. في طوكيو الليلية هذه، شاهدنا جميع أصـناف النـاس يتجوَّلـون، مثلما شاهدنا جميـع أنـواع المتـاجر مفتوحـة، لكـن ولا مخبـزة واحدة. لا أحد كان يهيئ الخبز بالليل.

في الطريق صادفنا سيارتي شرطة. إحداهما كانـت مختبئـة على طول الرصيف، فيما تجاوزتنا الأخرى بـبطء نـسبيًّا. عنـد كل مرة أحس بالعرق يتفصد من إبطي، لم تأبه زوجتي لذلك، كانت تواصل تركيزها بحثًا عن مخبزة. وفي كل مرة تغير فيهـا من وضعيتها، تصر الرصاصات في جيبها مثل قرنيات الحنطـة السوداء في وسادة يابانية تقليدية.

- لندع الأمر، قلت، فأنتِ ترين عدم وجود مخبزة مفتوحة في هذه الساعة. مثل هذا النوع من الأمور يتم الإعداد له.

- توقف! صرخت فجأة.

- ضغطت فورًا على دواسة الفرامل.

- هنا. قالت بصوت أكثر هدوءًا.

نظرت حوالي ويداي دائمًا على عجلة القيادة، غير أنني لم أر واجهة متجر يشبه المخبزة. كانت كل دكاكين الزنقة قد أسدلت ستائرها الحديدية، يحوط بها جو هادئ جدًّا. ومثل عين مائلة كانت لافتة حلاق ترفرف في الهواء البارد، وعلى بعد مائتي متر يلمع حرف **M** مكتوبًا بالنيون المشير إلى ماكدونالد.

-إيه، هذا ليس بمخبزة، قلت.

فتحت زوجتي الصندوق الأمامي دونما كلمة، أخذت منه شريطًا ملفوفًا لزجًا مقوى. نزلت من السيارة، وانحنت أمامها. قطعت قطعة مناسبة، وشرعت في إلصاقها على لوحة الترقيم الأمامية، بحيث صار غامضًا. قامت بالعملية نفسها على لوحة الترقيم الخلفية. كانت تبدو معتادة على ذلك. وقفت إلى جنبها، أنظر مذهولاً.

- نسطو على هذا الماكدونالد. قالت بنبرة هادئة، وكأنها تعلن عن وجبة ذاك المساء.

- لكن هذا ماكدونالد وليس مخبزة. قلت.

- إنه مثل مخبزة، أجابت قبل أن تصعد إلى السيارة. في بعض الأحيان يجب القيام ببعض التنازلات. على كل حال، أركن السيارة أمامه.

استسلمت للأمر، وتقدمت بالسيارة بمائتي متر، ركنتها في موقف السيارات الخاص بالماكدونالد. كانت هناك سيارة واحدة من نوع بلوبورد حمراء جديدة. مدت لي زوجتي المسدس ملفوفًا في غطاء.

- ولكن ما ثبت قط أن استخدمت مثل هذا الشيء، ولا رغبة لديَّ في أن أكون البادئ، قلت، مدافعًا عن نفسي.

- لن تكون بحاجة لاستخدامه. يكفي أن تحمله في يدك. لا أحد سيقاوم. سوف ترى. هل أنت على استعداد؟ نفذ ما أقول. أولاً سندخل إلى الماكدونالد معًا بحزم، وبمجرد ما أن يقول لنا المستخدم: «مرحبًا بكما في ماكدونالد»، ستكون هذه هي الإشارة بيننا، سنعتمر الكاجولين. مفهوم؟

- هذا، مفهوم. ولكن...

- بعد ذلك، صوب المسدس نحوه، واجبر كل المستخدمين والزبائن على الوقوف في إحدى الزوايا. يجب

تنفيذ هذا الأمر بأقصى سرعة. ثم اترك لي الأمور الأخرى. سأتكفل بكل شيء.

- حتى ولو...

- في نظرك كم نحتاج من همبورجر؟ ثلاثون، هل تكفي، أم لا؟

- ربما، قلت.

أخذت المسدس، مطلقًا زفرة، وبسطت الغطاء شيئًا ما لرؤيته. كان ثقيلاً مثل كيس رمل، وأسود كما ظلمة الليل.

- هل حقًّا كل هذا ضروري؟ سألتها. كان السؤال موجهًا إليها مثلما كان موجهًا إلي.

- ضروري، أجابت.

- مرحبًا بكما عند ماكدونالد، بادرتنا المستخدمة من خلف الكونطوار، موجهة إلينا أجمل ابتسامة ماكدونالد.

لحظتها شعرت بارتباك وأنا أشاهدها، إذ لم أتصور من قبل قدرة النساء على العمل بالليل في ماكدونالد، إلا أنني تداركت الأمر واعتمرت كاجولي.

كانت المستخدمة تنظر إلينا فاغرة فاها ونحن نعتمر كاجولينا بسرعة، دون أن تفهم شيئًا. لم تكن تتصور البتة كيف ستتعامل مع هذا الحدث، فقد كانت على أهبة إكمال عبارتها

المعتادة «مرحبًا بكم عند ماكدونالد»، غير أن شفتيها الباسمتين عجزتا عن الكلام. ورغم كل شيء، ظل أثر الابتسامة باديًا على محياها، مثل الهلال في سماء الفجر.

بسطت الغطاء بأقصى سرعة ممكنة ، وأخرجت المسدس، ثم أشهرته في الصالة، لم يكن بها سوى شخصين يبدو أنهما طالبان، جالسين أمام مائدة بلاستيكية، بل متكئين، يغطان في سبات عميق. على المائدة اصطف رأساهما وقدحان من الميلك- شيك بالفرولة، منحوتة حقيقية من الفن الطليعي. كانا في نومهما كما الأموات. بدا لي أن في مقدوري تركهما لقدرهما؛ لأنهما لن يعوقا خطتنا. وجهت فوهة المسدس نحو الكونطوار. كان به ثلاثة مستخدمين: الفتاة التي استقبلتنا، ورئيس ذو رأس على شكل بيضة، وسحنة سقيمةٍ، وشاب ذو تعبير غامض، لا مراء أنه طالب وجد عملاً في المطبخ. وقف ثلاثتهم أمام الخزنة المسجِّلة، يتأملون فوهة المسدس مثل سياح يتأملون بئر الإنكا. لا أحد منهم أطلق صرخة ولا حاول الإمساك بي. وضعت المسدس على الصندوق نظرًا لثقله، مبقيًا إصبعي على الزناد.

- سأعطيكما النقود، قال الرئيس بصوت متشنج. ليس هناك كثيرًا. تم جمع الخزنة في الحادية عشر. خذا كل شيء. ليس هناك من مشكل، فنحن مؤمّنون ضد السرقة.

- أسدلوا الستار الحديدي وأطفئوا العلامة، قالت زوجتي آمرة.

- انتظرا، قال الرئيس. سيتسبب لي ذلك في مشاكل، ليس من حقي إغلاق المحل متى أريد، لأنني سأتحمل مسؤولية الأمر.

كررت زوجتي أمرها.

- من الأفضل تنفيذ أوامرها، نصحته، وأنا أشاهده وهو في حيرة من أمره.

نظر بالتناوب إلى المسدس ووجه زوجتي، ثم أطفأ العلامة وضغط على زر التحكم في ستار الباب المفضي إلى الخارج. راقبت ما كان يقوم به كي لا يشغل صفارة الإنذار، غير أنه بدا لي عدم وجود جهاز إنذار متصل بمخفر الشرطة الأقرب في محلات سلسلة الماكدونالد. إذ لم يشك أحد من قبل في إمكانية السطو على تجارة الهامبورجر.

أسدل الستار، محدثًا ضوضاء كبيرة، وكأنها عصا كريكت تنهال ضربًا على سطل، ومع ذلك لم يمنع الطالبين من مواصلة نومهما. لم أر منذ مدة طويلة أناسًا يغطون في سبات عميق بهذا الشكل.

- ثلاثون وجبة ماكدونالد كبيرة نأخذها معنا، قالت زوجتي.

- أعطيكما كل المال الـذي تريدانـه، لكـن ألا ترغبـان في تناول الطعام في مكان آخر؟ سألنا الـرئيس، إن هـذا سـيربك حسابي بشكل رهيب. أريد أن أقول...

- الأفضل أن تنفذ ما تقوله لك، كررت قائلاً.

عاد المستخدمون إلى المطبخ، وعكفوا على العمل. جعـل الطالب يشوي قطع الهامبورجر، والرئيس يحـشوها في الخبـز، والمستخدم يرتبها في كيس أبيض. لم ينبس أحـد مـنهم ببنـت شفة. استندت على ثلاجة ضخمة، وفوهـة المسدس مـصوبة نحو صفيحة المشواة التي كانت تشوى عليها صفوف الشرائح المفرومة الوردية الشاحبة، والبيـضوية الـشكل مثـل قطـرات الماء؛ كنت أحس برائحة مرق اللحم المشوي تصعد مـن كـل مسام جسدي، مثـل سرب حـشرات صـغيرة جـدًّا، وتمتـزج بدورتي الدموية كي تبلغ أدنى مكـانٍ فيّ. وحـين تكمـل هـذه الجسيمات دورتها، تتجمع في قعر لجة جائعـة تنفـتح في مركـز جسدي، وتأتي لتفرش الجوانب الوردية.

كانت لديَّ رغبة كبيرة في الاستيلاء على واحـد أو اثنـين من الهامبورجر الملفوف بالأكياس البيضاء التي كانت كومتها منتفخة بقدر مـا تـسمح الرؤيـة بجـانبي، غـير أننـي قـررت الانتظار إلى أن يتم إعداد الثلاثين، مع أنني لم أكن متيقنًا من أن يحدث فعل مضاد لهـدفنا. كانـت الحـرارة خانقـة في المطـبخ، وبدأت أتفصد عرقًا تحت كاجول التزلج.

كان المستخدمون، وهم يعدون الهامبورجر، يختلسون النظر بين الفينة والأخرى إلى فوهة مسدسي. أحيانًا، أحك أذني برأس إصبعي الصغير الأيسر. كنت كل مرة أشعر بالتوتر لا تني أذناي تأكلاني. عند كل مرة أحكهما من فوق الكاجول، يتأرجح المسدس، الذي يفقد توازنه بفعل هذه الحركة، بشكل خطير من أعلى إلى تحت، ما يرهب المستخدمين الثلاثة. لم تكن هناك خطورة لإطلاق النار مادمت لم أرفع زناد الأمان، كان المساكين الثلاثة يجهلون هذه التفاصيل، ثم إنه لم يكن من سبب لأحدثهم في الأمر.

وفيما كانوا منشغلين حول المشواة تحت مراقبتي، كانت زوجتي تشاهدهم من لحظة لأخرى من الصالة، وتحصي عدد الهامبورجرات الجاهزة، وتكدسها في كيس ورقي كبير ذي مقبض. تم ملء كيس من قبل، يحوي خمسة عشر بيج ماك.

- لماذا وجب عليكما القيام بهذا؟ سألتني الفتاة على حين غرة. بإمكانكما أن تهربوا بالخزنة، وتشتريا كل ما ترغبان في تناوله. ثم ما فائدة التهام ثلاثين بيج ماك؟

هزرت رأسي دون أن أجيبها.

- آسفة، لكن ليس هناك مخبزة مفتوحة، شرحت لهم زوجتي بدلاً عني. لو كانت هناك واحدة مفتوحة، لسطونا عليها كما كان متوقعًا.

لم أكن متأكدًا أن هذا النوع من الشروحات قد قدم إلى الفتاة دليلاً ما لفهم الوضعية، لكن على كل حال لم يطرح أي منهم أسئلة، إذ استمروا بصمت في شواء اللحم، وحشوه في الخبز، ووضعه في الكيس. عندما تم إعداد الثلاثين بيج ماك، وتكديسها في كيسين ورقيين كبيرين، طلبت زوجتي قدحين كبيرين من الكوكا، وأدت ثمنهما.

- نحن لا نسرق إلا الخبز، شرحت للفتاة.

حركت هذه الأخيرة رأسها بشكل معقد. بدا أنها أومأت برأسها وحركته كي تقول لا في الوقت نفسه. بدون شك أنها حاولت القيام بهاتين الحركتين في الآن معًا. فهمتها شيئًا ما.

بعد ذلك أخرجت زوجتي من جيبها كبة خيط رفيع لشد الرزم - الحاصل أنها كانت مجهزة بكل ما ينبغي - وقامت بربط المستخدمين إلى الدعامة الرئيسية، وكأنها تخيط أزرارًا. أما هم، فسلموا أمرهم بعد أن أدركوا أن كل ما قد يقولونه لن يجديهم شيئًا. بل وحتى حينما سألتهم زوجتي إن كان الخيط يؤلمهم، وإذا كان أحدهم يريد قضاء حاجته، لم ينبس أي منهم ببنت شفة. لففت ثانية المسدس في الغطاء، وحملت زوجتي الكيسين الورقيين الحاملين لعلامة ماكدونالد، كل كيس في يد، ثم خرجنا من فجوة من تحت الستار. كان الشابان في القاعة لا يزالان نائمين نومتهما العميقة، مثل

سمكتين في لجة، لحظتها تساءلت عما كان يتعين فعله لإيقاظهما.

بعد أن قطعنا مسافة لمدة ثلاثين دقيقة، توقفنا في موقف سيارات تابع لعمارة هادئة، وتناولنا وجبات الهامبورجر مع الكوكا حد الشبع. ألقيت بستة من البيج ماك في جوفي، فيما أفرطت زوجتي في الأكل بالتهامها حوالي أربعة. ظل معنا عشرون على المقعد الخلفي. تبخر الجوع الشديد، الذي طحننا والذي بدا أنه لن يزول، مع بزوغ الفجر. وصبغ الشعاع الأول للشمس بلون بنفسجي الجدران المتسخة للعمارة المقابلة، جاعلاً الحروف الإشهارية الضخمة **SONY BETA HIFI** المعلقة بأحد الأبراج تشع بشكل يعمي البصر. بدأ يتناهى إلى سمعنا سقسقة العصافير، تمتزج بصرير متواصل لعجلات الشاحنات في الطريق السيار. الراديو يذيع موسيقى شعبية. دخنا معًا سيجارة؛ عندما أنهيناها، أسندت زوجتي رأسها بهدوء على كتفي.

- هل حقًّا كان ذلك ضروريًّا؟ سألتها من جديد.

- لازم.

ثم أطلقت تنهيدة عميقة ونامت. كان جسدها ناعمًا وخفيفًا مثل جسم قط.

وأنا لوحدي، انحنيت من على حافة مركبي، وشاهدت من جديد قعر البحر. لم أر ثانية البركان. كان السطح الهادئ للبحر يعكس زرقة السماء، والمويجات المضطربة باسترخاء بفعل الرياح تحدث هديرًا عند اصطدامها بالحافة الخارجية للمركب، مثل كمي منامة من حرير.

تمددت في قعر المركب، وأغمضت عيني، بانتظار أن يحملني المد نحو وجهتي.



4

القزم الراقص

حلمت بقزم دعاني للرقص.

كنت أعرف أن ذلك حلم. لكن حتى في الحلم كنت متعبًا مثلما في اليقظة. رفضت اقتراحه بأدب بهذه الكلمات: «اعذرني، إنني منهك جدًّا». لم يظهر عليه الاستياء، وشرع يرقص لوحده.

وضع الحاكي المحمول على الأرض، وبدأ يرقص على نغمات الموسيقى. على الأرض تناثرت عدة اسطوانات جنب الجهاز. جمعت بعضها لقراءة العناوين. كانت في الواقع انتقائية جدًّا، وكأن الراقص قد اختار الاسطوانات بالصدفة، مغمض العينين. بالإضافة إلى ذلك، كانت الأغلفة مختلطة. كان القزم يرفع الاسطوانات قبل النهاية ويلقي بها في الركام دون إعادتها إلى أغلفتها، وفي النهاية يحشوها في أي غلاف. وهكذا، تجد اسطوانة روليج ستونز نفسها في غلاف اسطوانة

جلين ميلر، وفي غلاف اسطوانة دافنيز وكلويه لرافيل توجد اسطوانة موسيقى ميتش ميلر.

لم يكن القزم مكترثًا لهذه الفوضى على الإطلاق. يكفيه أن هناك موسيقى وأن باستطاعته الرقص على نغماتها. كان في تلك اللحظة آخذًا في الرقص على نغمات اسطوانة تشارلي باركر التي أخرجها من غلاف يحمل عنوان: الكلاسيكيات الرائعة للقيثارة. كان يرقص مثل زوبعة، مندمجًا مع النوتات الحادة والصاخبة لتشارلي باركر. فيما كنت أنظر إلى الأغلفة وأتناول العنب.

تعرَّق كثيرًا، وفي كل مرة يحرك فيها رأسه، يرش حواليه قطرات العرق. كان العرق يقطر من رؤوس أصابعه عند كل مرة يحرك فيها يديه. واصل الرقص دون توقف للحظة. لما انتهت الاسطوانة، وضعت القدح على الأرض، وغيرت الأسطوانة. بدأ يرقص من جديد.

- ترقص بشكل رائع، صحت. إنك الرقص بعينه.

- شكرًا! قال القزم باعتزاز.

- هل ترقص هكذا دائمًا؟ سألته.

- أجل.

حلمت بقزم دعاني للرقص.

كنت أعرف أن ذلك حلم. لكن حتى في الحلم كنت متعبًا مثلما في اليقظة. رفضت اقتراحه بأدب بهذه الكلمات: «اعذرني، إنني منهك جدًّا». لم يظهر عليه الاستياء، وشرع يرقص لوحده.

وضع الحاكي المحمول على الأرض، وبدأ يرقص على نغمات الموسيقى. على الأرض تناثرت عدة اسطوانات جنب الجهاز. جمعت بعضها لقراءة العناوين. كانت في الواقع انتقائية جدًّا، وكأن الراقص قد اختار الاسطوانات بالصدفة، مغمض العينين. بالإضافة إلى ذلك، كانت الأغلفة مختلطة. كان القزم يرفع الاسطوانات قبل النهاية ويلقي بها في الركام دون إعادتها إلى أغلفتها، وفي النهاية يحشوها في أي غلاف. وهكذا، تجد اسطوانة روليج ستونز نفسها في غلاف اسطوانة

جلين ميلر، وفي غلاف اسطوانة دافنيز وكلويه لرافيل توجد اسطوانة موسيقى ميتش ميلر.

لم يكن القزم مكترثًا لهذه الفوضى على الإطلاق. يكفيه أن هناك موسيقى وأن باستطاعته الرقص على نغماتها. كان في تلك اللحظة آخذًا في الرقص على نغمات اسطوانة تشارلي باركر التي أخرجها من غلاف يحمل عنوان: الكلاسيكيات الرائعة للقيثارة. كان يرقص مثل زوبعة، مندمجًا مع النوتات الحادة والصاخبة لتشارلي باركر. فيما كنت أنظر إلى الأغلفة وأتناول العنب.

تعرَّق كثيرًا، وفي كل مرة يحرك فيها رأسه، يرش حواليه قطرات العرق. كان العرق يقطر من رؤوس أصابعه عند كل مرة يحرك فيها يديه. واصل الرقص دون توقف للحظة. لما انتهت الاسطوانة، وضعت القدح على الأرض، وغيرت الأسطوانة. بدأ يرقص من جديد.

- ترقص بشكل رائع، صحت. إنك الرقص بعينه.

- شكرًا! قال القزم باعتزاز.

- هل ترقص هكذا دائمًا؟ سألته.

- أجل.

بعد ذلك، قام أيضًا بلفة حول نفسه على مقدمتي رجليه، تطاير شعره الحريري في الهواء. صفقت له. ما رأيت في حياتي شخصًا يرقص جيدًا بهذا الشكل. حياني بأدب، وتوقفت الموسيقى. أوقف رقصته، وتنشف بمنشفة. واصلت إبرة الحاكي دورانها مطقطقة. رفعتها وأطفأت لاقط الصوت. ثم أعدت الاسطوانة إلى الغلاف المخصص لها.

- إنها قصة طويلة، قال القزم، ملقيًا نظرة خاطفة إليَّ، أكيد ليس لديك الوقت للاستماع إليها؟

تناولت حبات من العنب، مترددًا فيما يتعين علي الإجابة به. كان لديَّ كل الوقت. غير أنني لم أكن بحاجة للاستماع لهذا القزم وهو يسرد عليَّ قصته. ثم إن ذلك لم يكن إلا حلمًا، والحلم لا يستغرق وقتًا طويلاً؛ قد ينجلي في كل لحظة.

- جئت من بلد من الشمال، شرع القزم يحكي دون أن ينتظر جوابًا مني، محدثًا فرقعة بأصابعه. في الشمال لا أحد يرقص، ولا كيف يرقص، ولا حتى يعلم بوجوده. لكنني كنت أرغب في الرقص، وأضرب الأرض بقدمي، وأحرك يدي، ورأسي، وأستدير حول نفسي هكذا.

ثم ضرب الأرض بقدميه، حرَّك يديه، ورأسه، وقام باستدارة حول نفسه. عندما يمعن المرء النظر جيدًا، يبدو له أن كل هذه الحركات تتفجر عفويًّا من جسده، مثل انفجار

كرة ضوء. لا حركة واحدة كانت معقدة في ذاتها، لكن عندما يتم إنجازها كلها في ذات الآن، تُكون حركة ذات روعة لا تتصور.

- هكذا كيف كنت أرغب في الرقص. نزحت إلى الجنوب. هناك صرت راقصًا. رقصت في الملاهي الليلية، وأصبحت مشهورًا بسرعة، رقصت في حضرة الامبراطور شخصيًّا. أتحدث، بطبيعة الحال، عما قبل الثورة؛ بعدها، وهذا تعرفه، توفي الامبراطور. آنذاك طردت من المدينة، وعشت في الغابة.

وقف القزم وسط المكان، وبدأ يرقص ثانية. وضعت اسطوانة قديمة لفرانك سيناترا، والقزم يرقص، مرددًا معه أغنية نايت آند داي. كنت أتخيله وهو يرقص أمام عرش الامبراطور. الثريات المتلألئة، وجميلات البلاط، والفاكهة النادرة ورماح الحرس الامبراطوري، والمخصيين البدينين، والامبراطور الشاب بردائه المرصع بالجواهر، والقزم عرقان مركز كليًّا في رقصه... وفيما كنت أتخيل المشهد، بدا لي أنني أسمع جلجلة من بعيد، آتية من حيث لا أدري، مدافع الثورة.

القزم يواصل رقصه، وأنا آكل عنقود العنب. مالت الشمس جهة الغرب، وغطت ظلالُ الغابةِ الأرضَ. فراشة سوداء هائلة بحجم عصفور عبرت المكان، واختفت في قلب الغابة. كان الجو قارصًا. بدا لي أن حلمي لن يلبث أن يتلاشى.

-- أعتقد أنه عليَّ أن أتركك، قلت له.

-توقف عن الرقص وهز رأسه في صمت.

- أشكرك لأنك أريتني رقصك. كان ذلك لطيفًا جدًّا، استطردت.

- لا بأس، رد قائلاً.

- اعتنِ بنفسك، ربما لن نلتقي مرة أخرى، أكدت له.

- بلى، قال وهو يهز رأسه.

- حقًّا؟ لماذا؟

- لأنك ستعود هنا. ستعود هنا للعيش في الغابة وترقص معي كل يوم إلى أن تصير، أنت أيضًا، راقصًا رائعًا.

- ولماذا سأعود هنا للرقص معك؟ سألته دونما اندهاش شديد.

- تلك هي مشيئة القدر. لا أحد بقادر على تغيير الأقدار. هذا، لماذا سنلتقي ثانية. أنا وأنت.

كان القزم يتفحصني جيدًا وهو يتكلم. أحال الماء في الظلمات الليلية الحدودَ زرقاء.

- إلى اللقاء، قال القزم.

أدار لي ظهره وعاد إلى الرقص لوحده.

عندما أفقت، كنت لوحدي. وحيدًا، مضطجعًا على بطني فوق السرير. مبللاً بالعرق. شاهدت من النافذة عصفورًا لا يشبه العصافير التي عادة ما أشاهد.

غسلت وجهي بعناية، حلقت ذقني، حمصت قطعة خبز، وأعددت القهوة. أعطيت القط طعامه، وغيرت محفته. ثم لبست ربطة العنق، وانتعلت حذائي. بعد ذلك، استقللت الحافلة للتوجه إلى المصنع حيث أصنع الفيلة.

ليست صناعة الفيلة بالسهلة بطبيعة الحال. ضخامتها تستلزم تجميعًا أكثر تعقيدًا. وهذا ليس له علاقة بصنع دبابيس الشعر، أو أقلام التلوين. شُيد المصنع على أرض شاسعة، وتم تقسيمه إلى عدة بنايات ذات حجم هائل. كل قسم يتميز بلون مختلف. هذا الشهر نُقلت إلى قسم «الآذان». البناية التي أعمل فيها مسقفة بها أعمدة صفراء. كان سروالي وخوذتي أصفرين، وعملي يقتصر على صنع أذني الفيل. في الشهر المنصرم، عملت في البناية الخضراء، مرتديًا سروالاً أخضر وأعتمر خوذة خضراء، وأصنع رؤوس الفيلة. كل شهر نغير الأقسام، مثل بوهيميين يغيرون مخيماتهم. تلك سياسة المصنع. هنا، لا يُقبل أي عامل يقضي حياته، مقتصرًا على صنع آذان الفيلة، أو أصابع قوائمها. ثمة أناس في مناصب عليا قد خططوا لهذه الانتقالات، ونحن، العمال، نتبع هذه الخطة.

صنع رؤوس الفيلة عمل يكافأ عليه، فهو على درجة عالية من التعقيد، بحيث يستلزم تركيزًا شديدًا إذ يصل التعب بالعامل عند نهاية اليوم إلى درجة لا يقدر معها حتى على فتح فمه للتحدث مع أي كان. بعد شهر من هذا النظام، فقدت ثلاثة كيلوجرامات، لكنني شعرت بأنني أنجزت شيئًا ما. أما صنع الآذان، فعمل بسيط. يكفي تشكيل هذه اللواحق العريضة المسطحة، تضاف إليها بعض التجاعيد. وتنتهي العملية. هذا، لماذا ندعو المرور من هذا القسم بـ: «أخذ استراحة- الآذان». بعد شهر في هذا القسم، انتقلت إلى قسم «الخرطوم». الذي هو أيضًا مهمة معقدة تتطلب برودة الأعصاب. يتعين على الخرطوم أن يكون مرنا، وطول قناة المنخرين سالك، وإلا سيغضب الفيل ويهيج. هذا لماذا نُخَزن طاقة هائلة عندما نقوم بصنع الخراطيم.

للتذكير، أشير إلى أننا لا نصنع الفيلة من لا شيء بطبيعة الحال. لكي أكون دقيقًا، نعيد تصنيع الفيلة المجففة في حرارة منخفضة، إذا ما أحسنا القول. يتم تقطيع الفيل المصطاد بالمنشار إلى أجزاء متمايزة: الأذنان، والخرطوم، والجذع، والقوائم، والمؤخرة، ما يسمح لنا بإعادة تشكيل خمسة فيلة، وهو ما يعني أن الفيل المحصل عليه لا يكون حقيقيًّا إلا في خمسه، فيما تكون الأربعة أخماس المتبقية مقلدة. غير أن ذلك لا يظهر للعيان، بل وحتى الفيلة تجهله مادمنا نعمل بمهارة.

قد تتساءلون لماذا يتعين إذا صنع هذه الفيلة أو بالأحرى إعادة تشكيلها من هذه الأجزاء. الحق أننا أقل صبرًا من الفيلة بكثير. إذا ما تركنا الطبيعة تفعل فعلها، فلن تضع الفيلة سوى صغير كل أربعة أو خمسة أعوام. إن ملاحظة بطئها في التناسل تجعلنا، نحن المولعين بها، أشد توترًا. هذا لماذا نفضل إعادة تشكيلها بأنفسنا.

ولتجنب كل استعمال مفرط للفيلة المعاد تشكيلها، نعيد بيعها لشركة تخزين الفيلة، حيث تخضع لاختبارات صارمة جدًّا للتحقق من اشتغالها. وحالة المصادقة عليها، توسم بعلامة الشركة على ظهر إحدى قوائمها، بعد ذلك يطلق سراحها في الدغل. نصنع عادة خمسة عشر فيلاً في الأسبوع. خلال الفصل الذي يسبق احتفالات نويل، دارت الآلات بأقصى سرعة، ونجحنا في صنع واحد وعشرين فيلاً في الأسبوع. إلا أنني أعتقد أن معدل الإنتاج المضبوط هو خمسة عشر.

كما أشرت أعلاه، يُشكل صنع الآذان المرحلة الأسهل في عملية إعادة تشكيل الفيل. هذه المهمة تتطلب جهدًا جسمانيًّا وتركيزًا أقل من قبل العمال. ليس هناك آلة معقدة لتشغيلها، وعدد الحركات التي يتعين إنجازها محدود. وبوسع العامل أن يشتغل بإيقاع واحد طيلة اليوم، أو يعمل كليًّا في الفترة الصباحية، ويقضي بقية اليوم مستريحًا.

لم تكن عادتنا، أنا وزميلي في القسم، التلكؤ. ننجز مهمتنا في فترة الصباح، ونقضي طوال الفترة المسائية في المناقشة، أو القراءة أو نغني. في ذلك المساء، بعد أن علقنا على الجدار دزينة من الآذان حديثة الطي، جلسنا على الأرض تحت الشمس.

حكيت لزميلي قصة القزم الراقص في الحلم. تذكرت بوضوح أدق تفاصيل المنظر الطبيعي والمشهد، وشرحت له وقائع حلمي بدقة متناهية. كانت حين تعوزني الكلمات، أهز رأسي وأحرك يدي، وأضرب الأرض برجلي كي أبين له رقص القزم. كان يستمع إليَّ وهو يشرب الشاي، ويبدي موافقته بين الحين والآخر بلفظة «ممم». كان هذا الزميل القليل الكلام يكبرني بخمس أو ست سنوات. مربوع القد، وبشعر كث. وكان من عادته أن يشبك ذراعيه كيما يفكر. بدا من خلال تعبير وجهه، أنه غارق في التفكير لكن في نهاية المطاف لم يكن الأمر كذلك، لكونه يخرج في جل الأوقات من تأملاته بتعليق بسيط: «أجل، كل هذا معقد».

في ذلك اليوم أيضًا، عندما انتهيت من سرد حلمي، غاب في تأمل شديد أخذ منه وقتًا طويلاً. انتهزت الفرصة ومسحت لوحة الجهاز الكهربائي بخرقة، لكن في لحظة ما خرج، كما هي عادته، عن صمته التأملي بـ: «أجل، معقدة هذه القصة، قزم يرقص، كل هذا معقد».

ولأنني لم أكن أنتظر منه أن ينورني بخصوص هذه المسألة، لم أشعر على الخصوص بخيبة أمل من ردة فعله. كنت فقط أرغب في أن أروي حلمي لشخص ما. أعدت لوحة الجهاز الكهربائي إلى مكانها، ثم شربت شايي نصف بارد.

على عادته عاد زميلي إلى التفكير بعمق.

– ماذا وقع لك؟ سألته.

– يبدو أنني سمعت قصة هذا الراقص من قبل. أجابني.

– ماذا؟ صحت على وقع دهشة طفيفة.

– غير أنني لا أتذكر أين، قال مستطردًا.

– ابذل بعض الجهد وحاول أن تتذكر.

– مم، دمدم قبل أن يغوص في أفكاره.

– بعد ثلاث ساعات، وقبل الإغلاق بساعة، تذكر في الأخير.

– أخيرًا! أخيرًا تذكرت، صاح.

– آه، جيد، قلت.

– في البناية رقم ستة، هناك شيخ، تعرف، ذلك الذي يزرع الزغب، بشعر أبيض ينسدل على كتفيه، وتقريبًا أدرد. يعمل سنوات في المصنع منذ الثورة. حسب ما يقول...

- نعم، شاهدته عدة مرات في البار، ذاك العجوز.

- حسنًا، لقد حكى لي منذ مدة طويلة قصة هذا القزم الراقص. اعتقدت أنه في تلك الفترة يخرف، ولم أعره كبير اهتمام. الآن وقد حكيت لي القصة نفسها، قلت في نفسي إنه لم يكن أحمق كما خمنت.

- ماذا حكى لك بالضبط؟

- آه، تلك قصة قديمة... قال زميلي، مشبكًا ذراعيه كي يفكر.

- بيد أنه لم يتذكر أكثر من هذا. في لحظة ما، استدرك قائلاً:

- نسيت. اذهب عنده، واطلب منه أن يحكي لك بنفسه. سيكون الأمر بسيطًا.

وهذا ما فعلت.

* * *

عندما دقت ساعة الإغلاق، توجهت إلى البناية ستة، كان العجوز العامل قد غادر، فتاتان تكنسان الأرض، دلتني أنحفهما قائلة:

- العجوز؟ لا بد وأنه في البار القديم.

توجهت إلى البار، وكما توقعت، وجدته جالسًا على مقعد إلى الكونطوار، يرشف من كأسه، ظهره مستقيم، وبالقرب منه علبة وجبته.

كان البار عتيقًا جدًّا، يعود تاريخ بنائه إلى ما قبل ولادتي، بل قبل الثورة حتى. العديد من الأجيال العاملة في مصنع الفيلة كرعت كؤوسًا هنا، ولعبت الورق، وغنت. على الجدَّار علقت جنبًا إلى جنب صورًا قديمة للمصنع. في واحدة منها يظهر أحد المديرين الأوائل وهو يتفحص مدفعية، وصورة مغنية كانت قد زارت المعمل، كانت هناك أيضًا صورة لأحد احتفالات المعمل في الصيف، وأشياء من هذا القبيل. أما الصور، التي يظهر فيها الامبراطور أو العائلة الامبراطورية، والتي اعتُبِرت «إمبريالية» فقد حرقها جيش الثورة. كانت هناك بطبيعة الحال صور الثورة. وصور الجيش الثوري الذي احتل المصنع، والحرس الثوري أثناء اعتقاله للمدير...

كان العجوز جالسًا تحت صورة موسومة بـ «ثلاثة عمال شباب يصقلون مدفعية» يحتسي الميتاكول. سلمت عليه وجلست إلى جنبه. أشار إلى الصورة بإصبعه وقال:

- هذا أنا، أيها الصغير.

ضيقت عيني لرؤية الصورة بدقة. على اليمين كان أصغرَ العمال الشباب، صبي في الثانية أو الثالثة عشر يصقل العاج.

به. كان شيئًا عجبًا. ثق بي. صَرَّ ما تبقى له من أسنان على حافة الكأس.

- هل شاهدته يرقص؟ سألته.

- هل شاهدته؟!(حدَّق فيَّ ثم وضع يديه على المائدة، وأصابعه متباعدة.) طبعًا رأيته. كنت أشاهده يوميًّا يرقص. في هذا المكان نفسه، كل يوم.

- هنا؟!

- في هذا المكان نفسه. أجل. كان القزم يرقص هنا يوميًّا قبل الثورة.

* * *

واصل العامل العجوز سرده، وحكى لي كيف أن القزم المفلس القادم من الشمال قد حل بهذا البار الذي يرتاده عمال مصنع الفيلة، وكيف استأجره صاحب المعمل للقيام بأحط الأعمال، إلى غاية اليوم الذي أدرك فيه براعته في الرقص؛ هكذا وظفه كيما يسلي الزبائن. بدأ العمال أولاً بالاحتجاج لأنهم ودوا مشاهدة فتاة ترقص، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً: ظلوا ممغنطين والكؤوس لا تبرح أيديهم من شدة الإعجاب برقصه. فالقزم لم يكن يرقص مثل أي شخص. كشف للمشاهدين عن أحاسيسهم وانفعالاتهم الباطنية، بله المجهولة لديهم. كان

يعرف كيف يسحب ذلك في الوقت المناسب مثل صّيَّاد يفـرغ سمكة من أحشائها.

عمل القزم راقصًا طيلة ستة أشهر لم تـشهد خلالهـا هـذه الحانة ندرة الزبائن: كان الكل يأتي بغية مشاهدته. والناس عند رؤيته كانت تغمرهم حينًا السعادة وحينًـا آخـر يغوصـون في شجن عميق. وكان القزم يعرف كيف يتلاعب بعواطفهم على سجيته، مرتهنًا بطريقة الطرق التي يختارها.

وصلت شهرة القزم إلى مـسامع رئـيس مجلـس النـبلاء، رجل ذو علاقة قوية بمصنع الفيلة، له دائرة نفـوذ قريبـة بهـذا الأخير - سيتم بعد ذلك اعتقاله من طرف الحرس الثـوري، ويلقى به حيًّا في مرجل بـه زفـت -، وهـذا الـشخص بـدوره أخبر الامبراطور الذي كان هاويًا كبـيرًا للموسـيقى، فـأعلن عن رغبته المطلقة في رؤية القزم وهو يرقص. أرسل إلى الحانـة على التو زورقًا مخصصًا لضيوفه، مزينًا بالشعار الامبراطوري. قاد الحرس الامبراطوري القـزم إلى القـصر في موكـب فخـم. وتم تعويض صاحب الحانة بسخاء عن فقدانه لراقصه. احتج الزبائن، لكن الاحتجاج ضـد إرادة الامبراطـور لم يجـد آذانًـا صاغية وذهب سـدى، فعـدلوا عـن الأمـر، معـزين أنفـسهم بشرب الميتاكول، والبيرة، مكتفـين بمـشاهدة الفتيـات وَهُـنَّ يرقصنَ.

أُنعم على القزم بغرفة في القصر، وقامت وصيفات باستحمامه، وإلباسه الحرير، وتلقينه آداب التحدث إلى الامبراطور. في المساء الموالي، أُدخل إلى قاعة الاستقبال حيث كانت الأوركسترا الامبراطورية تعزف البولكا ألفها الإمبراطور بنفسه. رقص القزم على نغماتها بشكل بطيء في الأول كي يتآلف جسده مع الموسيقى، ثم أخذ شيئًا فشيئًا يسرع الوتيرة وفي النهاية صار مثل زوبعة. كان الكل يراقبه، بأنفاس متقطعة، دون التفوه بأي صوت. سقطت بعض النبيلات مغشيًّا عليهنَّ. الامبراطور نفسه انزلقت من يده كأسه البلوريه المحتوية على نبيذ به تبر، لكن لا أحد أعار انتباهًا لصوت الكأس المتكسرة.

* * *

في تلك اللحظة من الحكي، وضع العجوز كأس النبيذ على المائدة، مسح فمه بظهر يده، ثم مرر أصابعه على اللمبة التي على شكل فيل. ناديت على البارمان، وطلبت بيرة والميتاكول. بدأ البار يمتلئ؛ وعلى الخشبة شرعت فتاة موسيقية تدوزن أوتار قيثارتها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ سألته.

- آه، تنهد العجوز وكأنه تذكر فجأة حضوري. حدثت الثورة واغتيل الامبراطور، ولاذ القزم بالفرار.

وضعت مرفقيَّ على المائدة، أخـذت كـوبي بكلتـا يـدي، وشربت دون أن أشيح ببصري عن العجوز.

- اندلعت الثورة بمجرد وصول القزم إلى البلاط؟

أجل، بعد حوالي سنة. قال العجوز.

قال ذلك ولفظ جُشأة هائلة.

- لم أفهم جيدًا. استطردت. قلت إنـه لا يجـب التحـدُّث أمام الناس عن قصة القزم. لماذا؟ هـل ثمـة علاقـة بينـه وبـين الثورة؟

- أنا نفسي لا أعرف شيئًا عن ذلك. الشيء الوحيد الذي أعرف هو أن الجيش الثوري قد حـرَّق وقتَّـل بحثًـا عـن أثـر للقزم. لقد مر زمن طويل على اندلاع الثورة ومع ذلك مـازال البحث عنه جاريًا. وبرغـم ذلـك، أجهـل العلاقـة بينـه وبـين الثورة. إنها مجرد إشاعة.

- أي إشاعة؟

لاحظت من تعبير وجهه تردده في الإجابة.

- الإشاعة تظل إشاعة. لا أحد يعرف أين تكمن الحقيقة في كل ذلك. يقال إن القزم قد استعمل قواه الشريرة للـتحكم في البلاط، ولهذا كان هو السبب في الثورة المندلعة، هذا طـرحُ بعضهم. وهذا كل ما أعلم بخصوص القزم. لا شيء أكثر.

لم أحلم ثانية بالقزم. كل يوم أذهب إلى المصنع لصنع آذان الفيلة. بعد تليين الآذان بالبخار، أمددها بالحديد، وأقطعها إلى خمسة أجزاء على شكل آذان، ثم أضيف المقومات الضرورية للحصول على خمسة آذان كاملة. وأقوم بتجفيفها، ورسم تجاعيد عليها. في فترة الاستراحة خلال الظهر، أتناول مع زميلي وجبة الغذاء، ونتحدَّث عن العاملة الجديدة بالقسم رقم ثمانية.

بمصنع الفيلة يوجد عدد لا بأس به من الفتيات تم تعيينهنَّ بملحقة الجهاز العصبي، أو الخياطة، أو التنظيف. نتحدَّث عنهنَّ عندما يكون لنا متسع من الوقت. الأمر نفسه بالنسبة لهن.

– جمال حقيقي، تلك الفتاة، قال زميلي. كل أعين الزملاء عليها. وليست عشيقة أحد.

– أإلى هذا الحد هي جميلة؟ سألته بنبرة مرتابة.

ذهبت عدة مرات من قبل لرؤية الفتيات اللائي مجد جمالهنَّ، لأجدهنَّ غير مختلفات عن الأخريات. كثيرًا ما كان هذا النوع من الإشاعة غير ذي أساس.

– الحق أقوله. أقسم بشرفي. إن لم تثق بي، اذهب وتحقق بنفسك. وإن لم تتأكد من حسنها الباذخ، عليك أن تذهب إلى

قسم العيـون وتغـير عينيـك بـأخريين! لـو لم أكـن متزوجًـا، لغازلتها إلى حد الجنون، إنها جمال قاتل.

انتهت استراحة الظهر، ومع ذلك، فقد ظللنا متفرغين في هذا القسم كالعادة، وبما أنه لم يكن لديَّ شيء مهم أقوم بـه في فترة ما بعد الظهر، قررت اختلاق مـبرر للـذهاب إلى القـسم ثمانية. وجب عليَّ أن أسلك نفقًـا طـويلاً ملتويًـا تحـت أرضي للوصول إلى القسم. كان عند المدخل حارس سمح لي بالمرور دونما سؤال. كان يعرفني من خلال ملامحي.

عند الخروج من النفـق، يوجـد نهـر يجـري: مـن أسـفل تقريبً يمكن مشاهدة بناية القـسم ثمانيـة. الـسقف والمدخنـة ورديان. هناك يتم صنع قوائم الفيلة. كنت أعرف جيـدًا هـذا القسم، عملت فيه لمـدة أربعـة أشـهر. ومـع ذلـك، لم أر قـط الحارس الشاب الذي كان يقف عند مدخل البناية.

- ماذا جئت تفعل هنا؟ سألني هذا الشخص المجهول.

في بزته الجديدة المتيبسة، لم يبد عليه أي تساهل.

- إننا بحاجة إلى الأعصاب، جئت لأستعير بعضًا منهـا. قلت وأنا أسعل سعالاً خفيفًا.

- غريب هذا، قال، ممعنًا النظر في بزتي. أتيـت مـن قـسم «الآذان»، أليس كذلك؟ أعصاب الآذان، وأعـصاب القـوائم غير قابلة للتبادل...

- إنها قصة طويلة... قلت. ذهبت أولاً إلى قسم «الخراطيم» لاستعارة الأعصاب، لكن لم يكن عندهم ما يكفي لإعارتنا، بالمقابل، وفي قسم «الجذع» كانوا بحاجة إلى أعصاب الوصل للقوائم، ووعدونا إن أحضرنا لهم لفة، سيعيروننا مقابل ذلك أعصابًا رفيعة. وهكذا، هاتفت هذا القسم، وقيل لي بأنه في استطاعتهم إعارتنا لفة، وما عليَّ إلا الحضور لاستلامها.

تصفح مجموعة من الأوراق.

- لست على علم بهذه الصفقة. وهذا النوع من التنقل وجب إعلامي به من قبل.

- غريب. ربما هناك خطأ، لقد وعدوني بإخبار قسم «القوائم».

دمدم الحارس لحظة، غير أنني هددته بتحميله كامل المسؤولية إذا ما جاء رؤسائي يشتكون من تأخير في مردوديتي. سمح لي بالمرور، مواصلاً دمدمته.

كان القسم ثمانية - أو بتعبير آخر، ورشة القوائم - بناية كبيرة ذات مستوى واحد، طويلة وضيقة، وفارغة، بأرضية رملية نصف محفورة في قاعدة بنائها. كان مستوى الأرضية عند مستوى النظر، بنوافذ زجاجية ضيقة تشكل المصدر الوحيد للنور. في السقف تم تثبيت سكك متحركة علق فيها

عشرات قوائم الفيلة. ما يمنح الانطباع برؤية قطيع من الفيلة هابطة من السماء.

يضم القسم ثلاثين من العمال. ولأن داخل البناية كان معتمًا، والكل يعتمر قبعات، أو يضع أقنعة أو نظارات، فقد صعب عليَّ تحديد مكان القادمة الجديدة. لاحظت وسط العمال واحدًا من رفاقي القدامى؛ وسألته عن مكانها.

- إنها الفتاة التي تركب الأظافر في المنضدة الخامسة عشرة، قال لي. لكن إذا كنت تنوي مغازلتها، فاصرف النظر حالاً. إنها أكثر صلابة مثل سلحفاة تحت دِرعها. لا تخرج لا يديها ولا قوائمها.

- شكرًا على هذه المعلومة.

كانت فتاة المنضدة الخامسة عشر رهيفة جدًّا، يحسبها المرء غلامًا في لوحة تعود إلى العصر الوسيط.

- لو سمحت. قلت.

نظرت إليَّ، وإلى بزتي، وحذائي، ثم ثانية إلى وجهي. أزالت القبعة ونظارات اللحام. كانت فاتنة بشكل لا يتصور، ذات شعر طويل مجعد، وحدقتين بعمق رحب.

- ما الأمر؟ سألت.

- إذا كان لديك وقت فارغ مساء غد، هل تأتين للرقص معي؟ قلت من غير تردد.

- لديَّ وقت فارغ غدًا، وأنوي الذهاب للرقص، لكن ليس معك. أجابت.

- لديك موعد من قبل مع شخص آخر؟

- لا. ليس لديَّ أي موعد. ردت قائلة.

اعتمرت قبعتها، ولبست نظاراتها، ثم أخذت من المنضدة ظفر الفيل. ثبتته على رأس القائمة، وحسبت الحجم. كان الظفر عريضًا جدًّا، قلمته بضربة سريعة بالمقص.

- تعالي معي، إن لم تواعدي أحدا، قلت، ملحًّا. الذهاب إلى الرقص مع شخص شيء ممتع، أليس كذلك؟ ثم إنني أعرف مطعمًا جيدًا.

- كفى. سأذهب للرقص بمفردي. إذا كنت ترغب في الرقص، ليس عليك إلا المجيء، فلن أمنعك.

- سآتي، قلت.

- كما تريد، قالت.

عادت إلى عملها، متجاهلة إيَّاي بالكل. الظفر الذي قلمته تثبت في مكانه بشكل ممتاز. كان القياس مضبوطًا.

- عمل بارع بالنسبة لمبتدئة مثلك، قلت، ملاحظًا.

لم تجب.

* * *

في ذاك المساء، عاد إليَّ حلم القزم الراقص ثانية. هذه المرة أيضًا، كنت واعيًا بأن ذلك لم يكن إلا منامة. كان أيضًا جالسًا على حطبة وسط فرجة الغابة يدخن سيجارة. لم يكن معه لاقط صوت ولا اسطوانات. ويبدو متعبًا، ومتقدمًا في السن أكثر من المرة الفائتة. لكن ليس إلى حد مظهرِ عجوزٍ رأى النور قبل الثورة؛ بدا وكأنه أكبر مني بسنتين أو ثلاث. لست متأكدًا. من الصعب التأكد من عمر قزم.

ولأنه لم يكن لديَّ شيء خاص أقوم به، طفت حوله لحظة، ونظرت إلى السماء. ثم جلست إلى جنبه. فوقنا كانت نجوم داكنة تمخر باتجاه الغرب. وزخة مطر تنذر بالهطول في أي لحظة. لعل بسبب ذلك قد يكون القزم خبأ اسطواناته ولاقط الصوت في مكان ما كي لا يتبللان بالمطر.

- عجبًا! هذا أنت! قلت.

- أهلاً! أجاب.

- ألا ترقص اليوم؟

عندما لا يرقص، يظهر عليه الوهن، ويدعو إلى الشفقة. لم يكن يبدو مطلقًا هو ذاك الشخص صاحب الأمر والنهي في البلاط فيما مضى.

- هل أنت مريض؟ سألته.

- الحقيقة، قال، إنني لست على ما يرام. البرد قارص في هذه الغابة. حين يعيش المرء وحيدًا مدة طويلة، يصيبه كل أنواع المرض.

- شيء مرعب. قلت.

- يجب أن تُضَخ في شراييني طاقة جديدة. طاقة تسمح لي بمواصلة دائمة للرقص دونما توقف، من غير أن أصاب بالزكام حتى تحت المطر، وأركض في الطرق الوعرة. هذا ما أنا بحاجة إليه.

- مم، قلت.

ظللنا لحظة جالسين جنبًا إلى جنب في صمت مطبق. عاليًا فوق رأسينا كانت الريح تُدَوي القمم. بين الفينة والأخرى، تظهر فراشة هائلة ثم تختفي بين الأغصان.

- على فكرة، استأنف الحديث، كنت تود أن تطلب مني خدمة، على ما أظن؟

- خدمة؟ قلت، مندهشًا. مثل ماذا؟

التقط غصنًا، بمقدمته رسم نجمة على التراب.

- تلك الفتاة، تريدها، أليس كذلك؟

حسناء القسم ثمانية! تعجبت من كونه على علم. وبـرغم ذلك، لم يكن ذلك سوى حلم كل شيء يحدث فيه.

- أجل. أريدها، لكن هذا ليس بذلك النوع من الأشـياء التي بإمكاني التماسها منك، أليس صحيحًا؟ لا أعتمد إلا على نفسي.

- إن اعتمدت على نفسك، لن تبلغ قصدك.

- حقًّا؟ قلت مغتاظًا.

- كن على يقين. لن تبلغ قصدك. حتـى ولـو أسـخطك الأمر، لن تصل إلى مبتغاك بالاعتماد على قواك الخاصة. هكـذا قدر وقضى.

ربما كان على حق، خمنت. أجل، كان محقًّا في قولـه. فلـم أكن سوى رجل عاديٍّ تافه. ما الذي بإمكاني التبجح بـه؟ لا شيء. لم أكن ثريًّا، ولا وسيمًا، ولا بليغًا حتـى. لم أكـن أمتلـك شيئًا خاصًّا.

- لـديَّ بـالأحرى ميـزة جيـدة. فأنـا عامـل، وزملائـي يقدرونني. قوي، لكن لست بالصنف الذي يـذهل الفتيـات.

هذا صحيح. من الصعب على أمثالي أسر قلب مثل هذه الحسناء.

- قد تنجح إذا ما ساعدتك شيئًا ما... همس القزم.

- كيف ذلك؟ سألته، مدفوعًا بالفضول.

- الرقص. هذه الفتاة تعشق الرقص. إذا رقصت أمامها جيدًا، ستكون لك. ما عليك إلا أن تنتظر تحت الشجرة كيما تُساقط بين يديك رُطبًا جَنيًّا.

- هل تعلمني الرقص؟

- بوسعي ذلك، لكن لن تحقق شيئًا خلال يوم أو يومين. حتى ولو تدربت كليًّا يوميًّا، يلزمك على الأقل ستة أشهر لتصير راقصًا قادرًا على سحر الجمهور.

- هززت رأسي بعزيمة مثبطة.

- لنصرف النظر إذن. إذا انتظرت ستة أشهر، سيلتف حولها شخص آخر.

- متى ستذهب للرقص؟

- غدًا، أجبت، مساء السبت ستكون في المرقص، وأنا أيضًا، وسأدعوها إلى الرقص.

رسم القزم بعض الخطوط العمودية على الأرض بمقدمة الغصن، ثم وصلها بخط أفقي، واضعًا بذلك رسمًا بيانيًّا.

كنت ألاحظه في صمت. بعد ذلك بقليل، رمى عقب سيجارته، وسحقها بكعب حذائه.

- هناك وسيلة. إذا كنت تريد حقًّا هذه الفتاة... تريدها أليس كذلك؟

- آه، أجل أريدها.

- وتريد أن تعرف هذه الوسيلة؟

- نعم، قل لي.

- ليس صعبًا. أنزلق داخلك. وأرقص من خلال جسدك. فأنت قوي، وفي صحة جيدة، بإمكانك الرقص.

- هذا صحيح، أنا أقوى من أي كان! لكن هل حقًّا ممكن؟ أن تنزلق إلى داخل جسدي، وتُرَقِّصني؟

- أجل، أستطيع القيام بذلك. هكذا ستكون الفتاة من نصيبك بالتأكيد. أضمن لك ذلك. ليس وحدها فقط، وإنما كلهنَّ.

مررت لساني على شفتي. بدا هذا أجمل من أن يصدق. كانت هناك أيضًا إمكانية رفض القزم مغادرة جسدي والبقاء إلى الأبد حالما ينزلق داخله. ليست لديَّ رغبة في أن يحصل مثل هذا الأمر، حتى ولو كنت سأملك كل نساء الدنيا.

– أنت قلق، قال القزم، وكأنما قرأ أفكاري. تعتقد أنني سأسرق جسدك.

– تروى عنك عدة أشياء.

– أشياء سيئة، أليس كذلك؟

– آآ... نعم.

ابتسم بمظهر محترس.

– لا تقلق. لا أستطيع سرقة جسد أي أحد بكل هذه البساطة. فهذا يستوجب عقدًا، ويجب أن يكون التراضي متبادلاً، وإلا فمستحيل. وأنت ترفض أن أمتلك جسدك إلى الأبد، أليس كذلك؟

– طبعًا لا! أجبت وأنا أرتعش.

– ولا أنا أيضًا، أضف إلى أنه ليس من الغرابة في شيء مساعدتك في غزو قلب هذه الفتاة دون أدنى مقابل. إذًا، (رفع إصبعه)، هناك شرط. شرط ليس شديد التعقيد. لكنه شرط مع ذلك.

– ما هو؟

– أنسل إلى جسدك. تصعد الخشبة وتدعو الفتاة إلى الرقص، تسحرها برقصك. وتملكها يمينك. إنما عليك ألا

تنبس بأي كلمة. هل تسمع، ولا كلمة إلى أن تصبح لك وحدك. هذا شرطي.

احتججت قائلاً:

- كيف يمكنني أن أفتنها من غير أن أنبس بكلمة؟

- مهلاً، مهلاً، هز القزم رأسه، لا تقلق. مع رقصي، بوسعك الاستحواذ على قلب أي امرأة دون التفوه بكلمة. لا تقلق. لا كلمة ابتداءً من اللحظة التي تصعد فيها الخشبة إلى غاية الاستحواذ عليها.

- وإذا ما تكلمت؟

- سيكون جسدك في ملكي أبد الآبدين، قال، وكأن الأمر من البديهيَّات.

- وإذا تم كل شيء مثلما كان متوقعًا؟

- تمتلك الفتاة، أما أنا فأغادر جسدك، وأعود إلى الغابة.

أطلقت تنهيدة عميقة، وشرعت أفكر. هل أقبل أم لا؟ كان القزم لحظتئذٍ قد أخذ غصنًا آخر رسم به علامات غريبة على التراب. ظهرت فراشة وحطت وسط الرسم. تملكني صراحة الخوفُ، إذ لم أكن متأكدًا من قدرتي على الصمت إلى نهاية الرقص. لكن إذا لم أحاول، فلن أنجح أبدًا، على كل حال، في أخذ هذه الفتاة بين يدي. تخيلتها ثانية وهي تقطع

ناب فيل على منضدتها. كنت بحاجة إليها بأي ثمن.

- حسنًا، قلت، لنجرب.

- تمت الصفقة! قال القزم.

* * *

كانت قاعة الرقص توجد على مقربة من المدخل الرئيسي لمصنع الفيلة. تدافع مساء السبت كل العمال والعاملات بغية الدخول، عمليًا، كانت كل الفتيات العازبات اللائي يشتغلن بالمصنع يأتين إلى المرقص كل سبت. نرقص، ونشرب النبيذ، ونتجاذب الحديث مع الأصدقاء. في لحظة ما يختفي الأزواج في الغابة لممارسة الغرام.

- هذا يعوزني. تنهد القزم داخل جسدي. هذا هو الرقص: الجمهور، والكحول، والأضواء، ورائحة العرق، وعطر الفتيات، آه، كل هذا يعوزني!

اخترقت الزحام بحثًا عن فاتنتي. في الطريق بعض الأصدقاء يربتون على كتفي، أو ينادون عليَّ من بعيد. أبتسم لهم، أو أصافحهم بإيماءة دون التلفظ بكلمة. شرعت الأوركسترا تعزف، وأنا لم أجد الفتاة بعد.

- ليس هناك ما يدعو إلى التعجيل، قال القزم. ما زال الليل طويلاً. والسهرة لا تزال في بدايتها.

كانت الخشبة الدائرية، المحاطة بـالكراسي، تـدور حـول نفسها ببطء كبير. نزلت ثريـا كبـيرة مـن الـسقف، فعكـست الأرضيةُ المصقولة بعناية نورَها، متلألئة مثل سطح التزحلـق. فوق الخشبة كانت هناك تكة على شـكل منـصة، مثـل منـصة حكم في ملعب، جلست فيها فرقتان موسيقيتان، تتناوبان على العزف كل نصف ساعة. مـا يـسمح بالاسـتمتاع بموسـيقى رائعة طوال الليل. للأوركسترا في الجهة اليمنى مجوعة نحاسية جذابة جدًّا، مغنوها يضعون على ستراتهم علامة حمراء رمزيـة على شكل فيل، فيما كانت الأوركسترا اليسرى تلفـت الانتبـاه من خلال تراصف عشرة مـن النـوافخ المـترددة، موسـيقيوها يوشون ستراتهم بعلامة خضراء مميزة على شكل فيل أخضر.

جلست على أحد الكراسي، وطلبـت بـيرة، ثـم فككـت ربطة عنقـي، وأشـعلت سـيجارة. بعـض راقـصات الملهـى، اللائي يراقصن الزبائن بمقابل مـالي، اقـتربن منـي بالتنـاوب يدعونني إلى الرقص. غير أنني رفضت. أرشف بيرتي، وذقني مسند على يدي، منتظرًا مجيئها. مرت ساعة على هذا الحال، من غير أن تحل. موسيقى الفالس، والفوكس- طـروت، احتـدام آلات الإيقاع، العزف المنفـرد للنفـير، كـل ذلـك يتتـابع دون جدوى. بدأت أتساءل إن كانت تسخر مني منذ البداية. ربـما لم تكن لها مطلقًا نية الحضور للرقص.

- مهلاً، همس القزم، لا تستسلم، أنا متأكد من مجئيها.

كانت ساعتي تشير إلى التاسعة عندما وقفت في الأخير عند مدخل المرقص، مرتدية فستانًا مزركشًا، مشدودًا إلى جسدها، وحذاء أسود بكعب عال. من فرط تألقها وإغرائها، اختفت باقي جنبات المرقص فيما يشبه ضبابًا أبيض. كل الشبان الذين لاحظوها، اقترحوا أن يكونوا فرسانًا في خدمتها. كانت تردهم الواحد تلو الآخر بإيماءة من يدها.

تتبعت كل حركاتها، وأنا أرشف بيرتي. جلست إلى المائدة المقابلة لي في الطرف الآخر من الخشبة، وطلبت كوكتيلاً ذا لون أحمر، ثم أشعلت سيجارة طويلة. بالكاد لمست كأسها. بعد أن دخنت سيجارتها الوحيدة، ودعكت عقبها، نهضت واتجهت صوب الخشبة بتؤدة، وعزم مثل سباح يصعد شرفة الغطس في مسبح. وشرعت ترقص بمفردها. عزفت الأوركسترا التانجو، ورقصت هي بشكل رائع جدًّا. كانت ساحرة عند رؤيتها. عندما تنحني، تلامس أمواج شعرها الأرض مثل هبة ريح، وتبدو أناملها المرهفة البيضاء وكأنها تهز أوتار المكان. كانت ترقص لوحدها، ولنفسها دونما انزعاج بشيء أو بأحد. اعتقدت وأنا أشاهدها أنني في حلمي مرة أخرى. التبس عليَّ الأمر. أين أنا في الواقع إذا كنت أستخدم حلمًا لتحقيق حلم آخر؟

- راقصة ممتازة، قال القزم. أن تأخذها مراقصة هذا أمر له وزن. هيا، ستكون من نصيبنا.

نهضت بدون وعي مني، واتجهت نحو الخشبة. شققت طريقًا باتجاهها، مزيحًا بعض الشبان من طريقي، ثم وقفت بمحاذاتها، وجمعت عقبي حذائي، مصدرًا صوتًا حادًّا، ومُعلمًا الحضور باستعدادي للرقص. وهي مواصلة الرقص، ألقت عليَّ نظرات خاطفة. ابتسمت لها، لم تعرني اهتمامًا، وواصلت رقصها بجانبي.

رقصت أولاً ببطء، ثم سرَّعت الوتيرة رويدًا رويدًا. وأخيرًا مثل عاصفة هوجاء. لم يعد جسدي في ملكي. يداي، ورجلاي، وعنقي تطير في الخشبة دون ارتباط بي. توقف الكل عن الرقص. كنت أسمع بوضوح حركة الكواكب، والمد والجزر، والريح. هكذا كان الأمر، الرقص. أضرب بعقب حذائي، ويداي تتحركان مثل زوبعة، ورأسي يهتز. أُحوم. وكل مرة أستدير فيها حول نفسي، تنفجر في دواخلي كرة من نور أبيض.

نظرتْ إليَّ خلسة، ثم جعلت تدور بالإيقاع نفسه الذي أدور به، وتضرب برجلها في ذات اللحظة التي أضرب فيها بعقب حذائي. كنت أشعر بالنور يمتد إليها هي أيضًا. أحسست بالسعادة تغمرني. كانت المرة الأولى التي يعتريني فيها هذا الإحساس.

- ما رأيك في ذلك؟ أكثر متعة من صنع الفيلة، أليس كذلك؟ همس القزم في داخلي.

لم أقل شيئًا. حلقي جف، بل حتى ولو أردت أن أتكلم ما كنت لأستطيع.

رقصنا على ذاك النحو ساعات وساعات. كنت خلالها أقودها وهي تتبع حركات. بدا لي وكأننا كنا نرقص دائمًا على هذا الشكل. في النهاية، توقفت. وبدا جليًّا أنها متعبة جدًّا، أمسكت بذراعي. أنا أيضًا - القزم بداخلي، تعين عليَّ أن أقول - توقفت. وقفنا وجهًا لوجه على الخشبة، وتبادلنا نظرة طويلة. انحنت، وأزالت حذاءها الأسود ذا الكعب المستدق، حملته، ونظرت إليَّ من جديد.



تركنا المرقص، ومشينا على طول النهر. ولأنني لم أكن أملك سيارة، لم يكن لنا من بد سوى المشي. وأصبح الطريق وعرًا، لفنا في الليل شذى الورود البيضاء. التفتُّ ورأيت الكتلة السوداء لبنايات المصنع السفلى، والنور الأصفر للمرقص ينشر غباره حواليه، فيما كانت إحدى الأوركستراتين تعزف مقطعًا مليئًا بالحيوية. كان النسيم عليلاً، وضوء القمر يبلل شعرها.

لم ينبس كلانا ببنت شفة. فبعد الرقص لم تكن هناك حاجة إلى الكلام. ظلت متعلقة بذراعي مثل أعمى منتظرًا مَن يقوده.

عند قمة الساحل، خرجنا إلى مرج فسيح تحوط به غابة صنوبر هادئة مثل بحيرة. كان العشب عاليًا لدرجة أخفى معها تقريبًا نصف جسدينا، يتمايل تحت النسيم الليلي. هنا وهناك وردة مشعة تبرز رأسها، مستثيرة الحشرات.

أحطت كتفها بذارعي، ومشينا معًا حتى وسط فرجة الغابة. طرحتها على الأرض، دونما كلمة.

- إنك حقًّا صموت، قالت مبتسمة، ثم ألقت بعيدًا حذاءها، وأحاطت عنقي بذارعيها.

قبلت شفتيها، ثم ابتعدت قليلاً كي ألقي عليها نظرة. لم أصدق أنني آخذها حقًّا بين ذراعي. أطبقت عينيها، وكأنها تنتظر أن أقبلها ثانية.

في تلك اللحظة بدأ وجهها يمسخ. وبرز شيء أبيض، زاحفًا من منخريها: دودة بيضاء. دودة بيضاء ضخمة. ثم جعلت كمية كبيرة من الدود تخرج من منخريها، وعمت المكانَ رائحة جثث نتنة. من فمها كان الدود يسقط، زاحفًا من حنجرتها. عبرت دودة عينها واختفت في شعرها. فجأة انزلقت بشرة أنفها، كاشفة عن لحم متعفن شرع يتحلل، ولم

تترك خلفها سوى ثقبين كبيرين وسط وجهها حيث لا يزال عدد هائل من الدود يزحف، ممتزجًا بأشلاء اللحم المتعفن.

كان القيح يسيل من عينيها، وتحت ضغط السائل الخثر، رفت عيناها مرتين أو ثلاث ثم تفجرتا من محجريهما وسقطتا في جهتين من وجهها. شاهدت في الثقب الذي انفتح في المحجرين الفارغين ربقة من الدود تعج وسط مخها الآخذ في التحلل. انقذف لسانها خارج فمها مثل بزاقة وانفصل عنها، وتفتت لثتها، وتعرت أسنانها البيضاء. ثم بسرعة انهار فمها واختفى. كان الدم ينضح من مسام شعرها الذي جعل يتساقط. ظهر هنا وهناك دود يثقب اللحم اللزج لوجهها. ومع ذلك لم تفتر قوة ذراعيها اللذين يحضناني. فلم أستطع لا التخلص من عناقها، ولا إبعاد وجهي عن وجهها، ولا حتى إغماض عيني. أغثت معدتي غثيانًا مرعبًا، وعجزت عن التقيؤ. كان لديَّ إحساس بأنني انقلبت إلى قفاز. وحده كان صدى ضحكات القزم يرجع في أذني.

استمر وجه المرأة في التحلل. فجأة تصدع صدغها إلى نصفين مع طقطقة، وكأن عضلة قد تخلت عن مكانها، وبدأت عجينة كثيفة من الدود، والقيح واللحم المتعفن تتدفق من كل جهة.

فتحت فمي على اتساعه، مستعدًا لإطلاق صرخة رعب. أردت أن أهرب من هذا الجحيم بأي ثمن. غير أنني في النهاية

لم أصِح. فطريًّا، شيء ما قال لي: كل هذا لا يحدث في الواقع. كنت أشعر بذلك. لقد كان القزم. مكيدة دبرها لي لإرغامي على بث صوت. صرخة واحدة ويصبح جسدي في ملكه إلى الأبد!

ومصممًا العزم على عدم الاستسلام، أغمضت عينيَّ. هذه المرة، نجحت في ذلك دونما مقاومة. بعينين مطبقتين، تناهى إلى مسمعي صوت الريح يهز المرج. وأحسست بأظافر الفتاة منغرزة في ظهري. مررت يدي على جسدها بثبات، وجذبتها إليّ، وطبعت قبلة على كتلة اللحم الفاسد في الجزء الذي وجد فيه قبل قليل ثغرها. في حيز لحظة قصيرة، شعرت بأشلاء اللحم اللزج يلتصق بوجهي، غزت منخري رائحة عطنة لا تحتمل. لكن حين فتحت عيني ثانية، كنت من جديد آخذًا في تقبيل عشيقتي الفاتنة. كانت ومضات القمر السنية تلاعب وجنتيها الخوخيتين. أدركت أنني انتصرت على القزم. فقد نجحت في عدم إصدار أي صوت.

- لقد ربحت، اعترف القزم بنبرة مقززة. الفتاة لك، وأنا سأذهب إلى حال سبيلي.

وترك جسدي.

- لكنني لم أقل كلمتي الأخيرة، استطرد قائلاً. بإمكانك أن تربح أيضًا وأيضًا، عدة مرات. ومع ذلك، اعلم أن الهزيمة

لا تكون إلا مرة واحدة. يومًا مـا سـتهزم، تلـك حقيقـة مثـل حقيقة وجودي أمامك. وحينذاك كل شيء ينتهي بالنسبة لك. سأنتظر هزيمتك، هل تسمع، سأنتظرها.

- لماذا؟ لماذا أنا؟ صرخـت في وجـه القـزم. لمـاذا لم تخـتر غيري؟

وحده الضحك كان جوابه. ظل صدى ضحكه يرجع في المكان لحظة ثم ساقته الريح.

* * *

كان القزم في النهاية محقًّـا. هـا أنـا الآن تطـاردني شرطـة البلاد في كل مكان. شخص ما شاهدني أرقص تلك الليلـة - ربما العامل العجوز - وأبلغ السلطات بأن القزم كان يـرقص داخل جسدي. تجندت الشرطة لمراقبتي بدقـة، مـستنطقة كـل مَن لي علاقة به، اعترف زميلي أنني حدثته ذات يوم عن القزم. فأُصدر أمر باعتقالي. وطوَّقت الشرطة المصنع. جـاءت الفتـاة من القسم ثمانية خلسة تخـبرني بـالأمر. هربـت مـن المـصنع، وهبطت إلى الحوض الـذي تخـزن فيـه الفيلـة بعـد تـصنيعها. وامتطيت أحدها للهرب باتجاه الغابـة، داهـسًا بعـض رجـال الشرطة الذين اعترضوا سبيلي.

-أمضيت حوالي شهر، متنقلاً من غابة إلى أخـرى، ومـن رابية إلى أخرى، أتغذى من ثمار العنبية ومن نبـات اليـسروع،

وأشرب من ماء الجداول. هكـذا اسـتطعت البقـاء عـلى قيـد الحياة. لكن عدد الشرطة كان كبيرًا. يومًا ما سيقبـضون عـليّ. وحــين يتحقـق لهــم ذلــك، قيــل لي، ســيقيدونني إلى عمــود التشهير، ثم يمزقونني إربًا إربًا باسم الثورة.

في كل ليلة يظهر لي القـزم في الحلـم ويريـد الـدخول إلى جسدي.

- على هذا النحو بإمكانك أن تنجو من الاعتقـال، ومـن عذاب التمزيق، قال.

وأسأله:

- ولكن يتعين عليَّ أن أرقص في الغابة إلى الأبـد، ألـيس كذلك؟

- بالضبط. عليك أن تختار واحدًا من الحلين.

عندئذٍ أصدر ضحكة خفية. أما أنا فلم أستطع اختيار أي حل.

يتناهى إلى مسمعي نباح. جوقة مـن النبـاح تخـتلط فيهـا أصوات عدة كلاب. من المؤكد أنها على مقربة مني.



5

الفيل يتبخر

لم أعلم باختفاء الفيل من المدينة دون أثر إلا من خلال قراءتي للجريدة. في ذلك اليوم، كعادتي رن المنبه على الساعة السادسة والنصف، أعددت القهوة في المطبخ، وحمصت قطعة خبز، وشغلت المذياع، ثم شرعت أتناول الخبز المحمص وعيناي لا تبرحان الجريدة المفتوحة على المائدة.

ولكوني شخصًا منظمًا، بدأت أقرأ الجريدة بشكل مرتب، بدءًا بالصفحة الأولى، بحيث لزمني وقت للوصول إلى المقال المخصص لاختفاء الفيل. كان هناك أولاً في الصفحة الأولى مقال عن قضايا الخلافات التجارية مع الولايات المتحدة، بعد ذلك أتت صفحة السياسة الداخلية، وصفحة السياسة الدولية، وصفحة الاقتصاد، ثم صفحة مراجعة الكتب، وبريد

القراء، والإعلانات الصغيرة للعقار، والصفحة الرياضية، وأخيرًا الأخبار المحلية.

تم الإعلان عن خبر اختفاء الفيل في أعلى الصفحة المخصصة للأخبار المحلية. «فيل يتبخر في مدينة...»، يقول عنوان بحجم ملفت للنظر بالنسبة للصفحة المحلية. «القلق يغزو ساكنة ... وكذا الاحتجاجات التي تتهم الإدارة»، جاء في العنوان الفرعي ذي الأحرف الأصغر من أحرف العنوان الكبير. في صورة، يظهر رجال الشرطة يتفحصون قفص الفيل الفارغ. بدت حديقة الفيل بدون فيل، كان المشهد غريبًا. وتبدت الأمكنة جامدة، وأكثر شساعة من اللازم، كمخلوق هائل بُقر بطنه وطرح كي يتيبس.

نفضت بقايا الخبز المحمص المتناثرة على الصفحة، وقرأت المقال بتمعن. بحسب الجريدة، تمت ملاحظة اختفاء الفيل في الثامن عشر من شهر مايو (أي عشية ذلك اليوم) في الساعة الثانية بعد الزوال، من قبل عامل بشركة التموين بالتغذية، والذي ،كالعادة، ينقل على متن شاحنته الوجبات لصفيقات الجلود (كان الفيل يقتات أساسًا من فضلات مطاعم مدارس المدينة). ظلت الحلقة الحديدية التي تعقله في مكانها، والقفل مغلق، وكأن الفيل قد انسل عبره. زد على أن الفيل لم يكن الوحيد الذي اختفى. فحتى حارس حديقة الحيوان الذي عهدت إليه مهمة الاعتناء به قد تبخر أيضًا.

آخر مرة تمت مشاهدتهما في المدينة (بمعنى آخر، في السابع عشر من مايو) حوالي الخامسة بعد الظهر، شاهدهما خمسة تلاميذ بالمدرسة الابتدائية جاءوا إلى حديقة الحيوان بغية رسم مخطط لصفيقات الجلود بقلم الرصاص. أكد مقال الجريدة أنهم آخر مَن شاهد الفيل، الذي بدا أنه تبخر نهائيًّا منذ ذلك الحين. كانت العادة أن يغلق الحارس باب مكان الفيل عندما تطلق الصفارة في الساعة السادسة، معلنة وقت الإغلاق.

وأجمع التلاميذ الخمس الشهود أنه - في تلك الساعة - لم تظهر على الفيل ولا على الحارس أية حالة غريبة. كان الفيل واقفًا وسط المربض هادئًا، كالعادة يحرك بين الفينة والأخرى خرطومه ذات اليمين وذات الشمال، مغضنًا جفنيه المجعدتين، حيث بدا من الصعب عليه إصدار أي حركة بفعل سنه الكبير، وخشي عليه أغلب الزوار الذين يرونه لأول مرة من أن ينهار ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

هذا السن هو ما سمح له بإيجاد ملاذ في هذه المدينة. إذ لما تعين إغلاق أبواب حديقة الحيوان الصغيرة والخاصة في المدينة نهائيًّا بسبب مشاكل مالية، تكلف متخصص في صفقات رسم الحيوانات بتوزيع هذه الأخيرة على مختلف حدائق الحيوانات بالبلاد، لكن نظرًا لكبر الفيل، لم يجد مَن يتكفل به. الظاهر أن كل الحدائق كانت تتوفر على فيلة بعدد كافٍ، ولم يوجد مَن

يملك من المال الزائد، مستعد لقبول حيوان قد ينفق في كل لحظة وحين إثر سكتة قلبية. هذا، لماذا ظل صفيق الجلد البائس هذا وحيدًا مهملاً لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، دون القيام بأي شيء - ليس لأنه تعين القيام بعدة أعمال رغم وجود رفاقه - في حديقة خالية من شاغليها.

هذه الحالة تسببت للكل في وجع الرأس، لمجلس المدينة مثلما للمسؤولين على حديقة الحيوان. من جهتها، كانت إدارة الحديقة قد فوتت البقعة الأرضية لمقاول كانت له نية تشييد مجموعة سكنية عليها، ومنحه مجلس المدينة من قبل رخصة البناء. وبقدر ما ظلت قضية الفيل معلقة، ظل المقاول يؤدي الفوائد مجانًا. الشيء الذي لم يكن بطبيعة الحال حجة لقتل الحيوان البائس. فلو تعلق الأمر بهبَّال أو بوطواط لتم التغاضي عن ذلك، لكن أن يقتل فيل فهذا لن يتم التغاضي عنه. وقد تقوم الدنيا ولا تقعد، إذا ما اكتشفت حقيقة الأمر. وهكذا تعين على الجهات المعنية أن تجتمع لتدارس المشكل، فتوصلت إلى اتفاق من شأنه اتخاذ الإجراءات اللازمة:

1. قبلت المدينة بأن تصبح مالكة الحيوان مجانًا.

2. أن يهب المقاول بدون تعويض قطعة أرضية يقيم فيها الفيل.

3. أن يتكفل المالك السابق لحديقة الحيوان بأجرة حارس الفيل.

ذاك كان مضمون الاتفاق الذي وقعته الجهات المعنية قبل عام على ذلك.

منذ البداية، استأثرت قضية الفيل باهتمامي بصفة خاصة، فاحتفظت بعناية بكل القصاصات الصحفية المتعلقة بها. بل إنني ذهبت أيضًا إلى مقر مجلس المدينة لحضور اجتماعات المجلس البلدي للبت في مصير الفيل. ما يعلل بكوني مؤهلاً لتزويدكم بمؤشرات دقيقة عن الموضوع. وتفاديًا لخطر إسقاط القصة في الحشو، أأذن لنفسي هنا بعرض كل العناصر التي قد تكون لها علاقة مباشرة باختفاء الفيل.

في الوقت الذي وقَّع عمدة مجلس المدينة هذه الاتفاقية، وقبل التكفل بالفيل، شن الحزب المعارض (كنت أجهل إلى حدود ذلك الوقت وجود حزب معارض داخل المجلس البلدي) حركة احتجاج ضد الإجراءات المزمع اتخاذها.

تمت مساءلة العمدة: لماذا تعين على البلدية أن تصبح مالكة هذا الحيوان؟ طُرحت وجهات نظر مختلفة، مثيرة مختلف الأسئلة (استسمح سلفًا عن إطالة هذه اللائحة، لكن يبدو لي من الأيسر وضعها على أنظاركم).

1. إن مشكل الفيل لا يخص حصريًا إلا مصالح خاصة، أي مستثمر ومالك حديقة الحيوان، وليس هناك من سبب لأن يحشر مجلس المدينة أنفه في القضية.

2 . مصاريف الاعتناء بالفيل باهظة جدًّا.

3 . هل تمت دارسة المشكل الأمني؟

4 . ما الفائدة التي قد تجنيها المدينة من امتلاكها لفيل؟

ثارت المعارضة، متسائلة: ألا يتعين على البلدية القيام أولاً بالأشغال الضرورية كإصلاح قنوات الصرف الصحي، واقتناء سيارة إطفاء جديدة، إلخ... قبل الاعتناء بالفيل؟ وذهبت إلى حد التلميح بوجود تواطؤ بين مجلس المدينة والمقاول.

هاكم الآن الحجج التي من خلالها أجاب مجلس المدينة على مختلف هذه الأسئلة:

1 . ببناء عمارات سكنية، قد تجلب الرسوم الضريبية إلى مجلس المدينة مداخيل مالية أكثر مقارنة مع ما قد يمثله مبلغ تافه مخصص للاعتناء بفيل. لذا كان من الطبيعي جدًّا أن تساهم قدر الإمكان في مؤازرة هذا المشروع.

2 . بالنظر إلى تقدم سن الحيوان، باتت له شهية الضعفاء جدًّا. أما فيما يخص المخاطر بكونه قد يسبب ضررًا ما للسكان، فقد تم اختزال ذلك إلى الصفر تقريبًا.

3 . بموت الحيوان، ستعود القطعة الأرضية، التي وهبها المقاول كإقامة للفيل، إلى البلدية بموجب القانون.

4 . سيصير الفيل رمزًا للمدينة.

بعد مناقشات مستفيضة، تقرر أن تتكفل البلدية بالفيل. في هذه المدينة السكنية القريبة من العاصمة، كان جل المواطنين يعيشون حياة ميسورة نسبيًّا، وكانت المالية العامة على ما يرام، حيث قبل أغلب السكان عن طيب خاطر تبني صفيق الجلد العجوز. وأبدى كل واحد تعاطفه مع الفيل أكثر بكثير من مشروع قنوات الصرف الصحي أو سيارة الإطفاء.

من جانبي، وافقت كليًّا على تبني الفيل من قبل المدينة. وتقززت كل التقزز من مشروع بناء مركب سكني، لكن أعجبتني فكرة امتلاك المدينة لفيل أيما إعجاب.

تم غرس أشجار لتشكيل مضاءة، وتم تحويل باحة الساحة القديمة للمدرسة الابتدائية كإقامة للفيل. وعاد الحارس القديم الذي تكلف بالحيوان، أيام كانت حديقة الحيوان قائمة، للسكن في ذات المكان. تقرر أيضًا تخصيص فضلات المطاعم المدرسية للفيل. بعد ذلك، نقل هذا الأخير على متن مقطورة من حديقة الحيوان، التي أغلقت أبوابها حديثًا، إلى إقامته الجديدة، لقضاء ما تبقى من حياته.

حضرت حفل افتتاح الحديقة الجديدة. ألقى العمدة خطابًا أمام الفيل(حيث أصر على كلمات «تطوير المدينة»، و«إغناء تراثنا الثقافي»)، وقرأ أحد ممثلي تلاميذ الابتدائي

قصيدة من تأليفه («أطال الله عمركم أيها السيد الفيل»، إلخ...)، كانت هناك أيضًا مسابقة في رسم الفيل (إثر ذلك صارت رسومات الفيل عنصرًا أساسيًّا لا محيد عنه في مقرر التربية الفنية في المدرسة)، وأهدت امرأتان شابتان، ترتديان فستانين متلألئين،(الحاصل أن المرأتين لم تكونا ذات جمال يذكر) قرطين من الموز إلى الفيل الذي تحمل بأناة وسكون كل المدة العبثية للحفل(أكيد أن كل ذلك كان عبثًا بالنسبة له)، ولاك موزه دونما اكتراث. عندما أتى على كل طعامه، صفق له الجميع.

كان الفيل يحمل في قائمته اليسرى الخلفية حلقة حديدية صلبة، بدت أنها ثقيلة، مشدود إليها قيد بطول عشرة أمتار، طرفه الآخر مربوط بإحكام في قتير إسمنت. لأول وهلة، ومن صلابة القيد والحلقة بدا أنه لن ينجح في كسرها حتى وإن جهد في ذلك لقرن من الزمن.

لم أستطع معرفة إن كان هذا القيد قد أزعج الفيل أم لا. وكما قدرت، فالفيل لم يولِ أي اهتمام لهذه القطعة الحديدية الضخمة الملفوفة حول قائمته. كانت نظرته غامضة، إذ كان يحدق في مكان ما في الفضاء. وحين تهب الريح، تهز معها أذنيه وبعضًا من شعيرات بيضاء متناثرة على جسده.

كان حارس الفيل شيخًا نحيلاً ذا قامة قصيرة، يصعب تحديد عمره: ربما ستون سنة، أو سبعون. هناك من الناس مَن

يتوقف منظرهم عن التغيير تبعًا للسنين إذا تجاوزوا سنًّا معينًا، والحارس من هذه الطينة. كان شعره قصيرًا مجعدًا، بعينين ضيقتين، تكسو بشرته، في الصيف كما في الشتاء، سمرةٌ قرميدية. وبوجه خال من كل تعبير، إلا العينان المقورتان اللتان تشكلان دائرة كاملة تقريبًا في كل جهة من رأسه، بحيث يدهش نشازهما لاسيما وأن رأسه صغير الحجم.

لم يكن سمجًا، كان يجيب بطيبة خاطر، وبطريقة واضحة ودقيقة، كل مَن يتوجه إليه بسؤال. كان باستطاعته، إن أراد، أن يظهر بمظهر لطيف إلى أبعد حد - وإن بدا دائمًا متضايقًا. كان بشكل عام عجوزًا وإلى حدٍّ ما صموتًا وحيدًا.

ويظهر أنه كان يحب الأطفال. بمجرد ما أن يأتي هؤلاء من المدرسة لرؤيته، يبذل قصارى جهده لاستقبالهم بمحبة. أما هم فيساورهم الارتياب من هذا الحارس العجوز.

الوحيد الذي كانت له ثقة عمياء به فهو الفيل. كان الحارس يسكن في كوخ صغير جاهز يقع في مكان الفيل، ويقضي كل وقته بجانب الحيوان، مكرسًا جهوده للاعتناء به. كانا يعرفان بعضهما منذ عشر سنوات. يكفي النظر إلى الكيفية التي يتصرفان بها لمعرفة مدى حميميتهما. حين يريد الحارس أن يحرك الفيل الذي يقف، بنظرته الهادئة دائمًا، في المكان نفسه، كان يربت على قائمته الأمامية، ويهمس له بشيء في أذنه، فينفذ الفيل الأمر في الحال، ويتحرك بجسده الضخم، متنقلاً

بالتحديد إلى الموضع الذي أشار إليه الحارس. عندما يقف هناك، يصوب نظره نحو نقطة في الفضاء ويظل محدقًا فيها دونما حركة.

في نهاية كل أسبوع، أذهب إلى بيت الفيل، وألاحظ بدقة ما يحدث، لكن دون التوصل إلى تحديد المبدأ الذي يتأسس عليه تواصل الاثنين. ربما كان الفيل يفهم ببساطة لغة البشر (على كل حال فقد بلغ من الكبر عتيًّا)، أو أن المعلومات تبث إليه عبر الطبطبة على قائمته. أو أن هذا الفيل ذو ملكات خاصة من طابع تراسل الحواس، ويقرأ أفكار الحارس.

ذات يوم سألت الحارس عن كيفية تمكنه من إصدار أوامر للفيل. ابتسم لي، على شكل تفسير، أجابني ببساطة قائلاً: «نعرف بعضنا البعض منذ مدة طويلة جدًّا!».

على كل حال، انصرم عام على هذا النحو دونما حدث يذكر. وها هو الفيل يتبختر على حين غرة.

وأنا أشرب فنجان القهوة الثاني، أعدت قراءة المقال بدقة، مقال غريب حقًّا، من نوع المقالات التي تثير شيرلوك هولمز وتجعله يقول وهو يربت على غليونه: «انظر، عزيزي واطسن، هذا مقال مهم للغاية».

ما جعل المقال غريبًا جدًّا، ذلك اللبس والحيرة الواضحين اللتين استحكمتا في ذهن الصحفي عندما كان

يقوم بتحريره. الواضح أن هذا اللبس وهذه الحيرة كان مردهما عبثية الحالة. وجليًّا أنه سعى إلى تطويق هذه العبثية بحنكة، حيث جد في كتابة مقال «جاد»، إلا أنه توصل إلى نتائج عكسية: هذا الجهد أدى بحيرته والتباسه إلى نقطة اللاعودة.

في بعض اللحظات، مثلاً، التمس الصحفي تعبير: «لاذ الفيل بالفرار»، ومع ذلك، فعند قراءة مجموع المقال، بدا واضحًا أن الفيل لم «يفرّ» إطلاقًا. بل من البديهي أنه «تبخر» تمامًا. ثم إنه قام بتلخيص تناقضاته بهذه الألفاظ: «تظل بعض النقاط سديمية، ومازالت بحاجة إلى شرح مفصل». غير أن الأمر هنا لا يتعلق بنوع قضية بالوسع تصريفها باستحضار «نقاط سديمية»، أو «تفاصيل غير موضحة».

أولاً، كانت هناك تلك الحلقة الحديدية السليمة والمغلقة بالمفتاح. الفرضية المعقولة جدًّا هي أن الحارس قد فتح الحلقة، وأزاحها عن عرقوب الحيوان، ثم أغلقها ثانية قبل أن يهرب مع الفيل(بالطبع هذه هي الرواية التي تمسك بها الصحفي بشدة)، لكن المشكل هو أن الحارس لم يكن يملك مفتاح هذه الحلقة. فليس هناك إلا مفتاحان؛ لتدابير أمنية، تم حفظ مفتاح في خزنة مفوضية الشرطة، فيما وضع الثاني في خزنة ثكنة رجال الإطفاء. لهذا كان يستحيل لا على الحارس أو أي كان سرقة أحدهما فبالأحرى إرجاعه إلى مكانه بعد فتح الحلقة. والحال أنه صباح اليوم الموالي اتضح أن المفتاحين مازالا في المكان

نفسه. ما يعني أن الفيل، مع أنه قوي، قد انفصل عن الحلقة بدون مفتاح، وهو ما كان مستحيلاً إلا إذا قطعت قائمته.

نقطة الاختلاف الثانية، تمثلت في الطريق الذي سلكه الفيل «للهرب». كان بيت الفيل ومكانه محاطين بحباك متين علوه حوالي ثلاثة أمتار. وقد تم التطرق إلى المشكل الأمني خلال مناقشات المجلس البلدي، حيث وضعت المدينة جهازًا أمنيًّا ناجعًا يمكن اعتباره مفرطًا شيئًا ما بالنسبة لفيل متقدم في السن. كان الحباك مشيدًا بالإسمنت المسلح (تحملت تكاليفه بطبيعة الحال الشركة المقاولة في العقار)، يشتمل على مدخل واحد، يغلق من الداخل. فكيف تمكن الفيل من الانسلال من هذا المعقل؟

المشكل الثالث، كان آثار خطوات الحيوان. فخلف بيت الفيل انتصبت رابية شديدة الانحدار لن يكون الفيل بمقدوره أبدًا الصعود فيها، وحتى إذا ما حدث بالصدفة أو بأي شيء آخر أن يكون قد نجح في تحرير نفسه من الحلقة الحديدية وقفز من الحاجز، فلن يسلك إلا السبيل المؤدية إلى بيته. والحال أنه لا يوجد بهذا الطريق ذي التربة الصالحة للحرث أدنى أثر لقوائم الفيل.

بمعنى آخر، لم يترك هذا المقال المليء ببلاغةٍ لا تحتمل والعائم في الالتباس للقارئ سوى نتيجة واحدة يمكن

استخلاصها من هذه القضية: أن الفيل لم «يهرب»، وإنما «تبخر» بدون قيد أو شرط.

بالتأكيد، وغني عن البيان أنه لا الجريدة، ولا العمدة، ولا حتى الشرطة كانوا على استعداد لتقبل، على الأقل علانية، أن الفيل قد تلاشى بلا قيد أو شرط دون أثر. واصلت الشرطة تقصيها، معتبرة أن «الفيل قد تم اختطافه أو تحريضه على الهرب وفق خطة محبوكة مع سبق إصرار»، ونشرت تقريرًا متفائلاً أكدت فيه أنه:

لما كانت ثمة صعوبات في إخفاء الفيل، فإن حل المشكلة ليست إلا مسألة وقت. لهذا سيتم تنظيم دورية في الغابة في أقرب وقت ممكن بمساعدة فرقة محاربة الشغب، والجمعية المحلية للقنص.

ونظم العمدة مؤتمرًا صحفيًّا (نشر تقريره ليس في الجريدة اليومية المحلية وحسب، وإنما أيضًا في الصحافة الوطنية، في زاوية «الحوادث»). فاستهل حديثه بالتأسف على نقص في الوسائل التي تتوفر عليها الشرطة لفك لغز هذه القضية، مؤكدًا من جهة أخرى أن «النظام الأمني لبيت الفيل بالمدينة ليس أقل نجاعة من الأجهزة المخصصة لهذا النوع الذي نصادفه في حدائق الحيوان الأخرى بالبلد، بل إنه أكثر قوة من

المتوسط». وفوق ذلك، فـ «الأمر هنا يتعلق بعمل لا اجتماعي خطير ذي نية مبيتة، ولن يتم التساهل مع المتهمين».

ودلل فريق المعارضة، مثل السنة الفارطة، بأن «المسؤولية السياسية في القضية ملقاة على العمدة الذي تواطأ مع صناعي بهدف حل مشكلة الفيل بسهولة أكبر على حساب مواطني هذه المدينة».

كما صرحت إحدى الأمهات (تسعة وثلاثون عامًا) للصحفيين قائلة: «لن أترك أطفالي يلعبون خارج البيت بأمان بعد الآن».

وأوضحت المقالات المنشورة على صفحات الجرائد بتفصيل حيثيات وملابسات احتفاظ البلدية بهذا الفيل، مع نشر مخطط جوي للحي الذي يقع فيه سكن الفيل، وملخص لقصة حياته، وكذا قصة حياة الحارس (نبورو واتنبي، ثلاثة وستون عامًا) المختفي في نفسها الفترة معه. كان أصل واتنبي من تاتياما بعمالة شيبًا. وقد عمل لمدة طويلة في قسم «الثدييات» في حديقة الحيوان بالمدينة، حيث «كسب ثقة المسؤولين الكاملة بفضل معرفته الغنية بالثدييات، وبشخصيته الصريحة والمتحمسة». كان الفيل قد تم إيفاده من جنوب أفريقيا قبل اثنين وعشرين عامًا، ولم يُعرف سنه بالتحديد، أما «مزاجه» فعرف عنه القليل.

تمت الإشارة في نهاية المقال إلى أن الشرطة أهابت بالمواطنين لإمدادها بأي معلومة من شأنها أن تساعد في البحث المتعلق بهذا الفيل. وأنا أشرب فنجاني الثاني من القهوة فكرت في هذا الاحتمال، لكن في الأخير قررت ألا أهاتف الشرطة. أولاً فضلت عدم حشر أنفي في الأمر. كنت متأكدًا أنهم لن يصدقوني إذا ما أمددتهم بالمعلومات التي في حوزتي. ولن يفيد في شيء التحدث إلى هؤلاء الناس الذين، على كل حال، قد لا يتصورون بجد إمكانية تلاشي الفيل دخانًا.

أخرجت ملف القصاصات الصحفية من خزانتي، قطعت المقال المتعلق بالفيل، وحشوته داخل الملف. ثم غسلت الأواني وذهبت إلى العمل.

عند السابعة مساء، وأنا أشاهد الأخبار على قناة **MHK** لمعرفة كيف تجري الدورية. القناصون، والعسكر، والشرطة، ورجال الإطفاء، مدججون ببنادق كبيرة معبأة بحقن مخدرة، يقلبون الروابي والغابات المحيطة بها رأسًا على عقب. كما شوهدت مروحيات تحوم فوق رؤوسهم. حين أقول روابي، فأعني بذلك روابي محدودة مادام الأمر يتعلق بروابي في حي سكني بإحدى ضواحي طوكيو. بهذا الجيش العرمرم وهذه المعدات الثقلية كان يكفي يوم للعثور على المبحوث عنه، سيما وأنه ليس إبرة في كومة حطب، إنما هو فيل ضخم من أفريقيا. كما أن منطقة البحث محدودة جدًّا. ومع ذلك، فقد حل المساء،

ولم يجدوا ضالتهم. ظهر رئيس مفوضية الشرطة، وصرح قائلاً: «مازال البحث جاريًا». وختم مقدم الأخبار نشرته قائلاً: «مَن ساعد هذا الفيل على الهرب؟ كيف؟ وبالأخص لماذا؟ يظل الغموض يلف القضية».

تواصل البحث لعدة أيام، بدون جدوى، وبدون العثور على أدنى دليل. كل يوم أقرأ الأخبار بعناية، وأقص بالمقص كل المقالات المتعلقة بالموضوع والتي تقع عليها عيناي، وأضعها في الملف. احتفظت أيضًا بقصة مصورة تعيد حكاية القصة بالكامل. امتلأ دفتري واضطررت إلى شراء دفتر آخر من الوراقة. مع ذلك، وبالرغم من الحجم الهائل الذي تمثله المقالات، لم يتضمن أي مقال الأحداث التي رغبت في معرفتها. كما أن الجرائد لم تتحدث إلا على «الفيل الهارب دائمًا»، و«الغموض الذي يلف المحققين»، و«التنظيم السري الذي يقف خاف الاختفاء؟» والعديد من العبارات العبثية والمضللة». بعد أسبوع على اختفاء الفيل، بدأت المقالات تقل، ثم ما لبثت أن توقفت. نشرت بعض الأسبوعيات مقالات مثيرة، وذهبت إحداها إلى حد استجواب عراف، إلا أن الإثارة لم تعمر طويلاً. إذ أجمع الكل على تصنيف قضية الفيل ضمن فئة «الألغاز المتعذر حلها». بحيث لن يكون لاختفاء كوكب الفيل وحارسه العجوز أي تأثير حاسم على المجتمع. ظلت الأرض تدور، ورجال السياسة يدلون

بتصريحات غير مجدية، والناس يتوجهون إلى مكاتبهم، فاغري الأفـواه، والتلاميـذ يهيئـون لامتحانـات الانتقـال إلى القـسم السادس. في غمرة الأخبار ذات الإثارة المزعومة والتي كانـت تنشر دونما توقف لتلقي بظلالهـا عـلى اليـومي، فـإن الاهـتمام باختفاء فيل لا يمكن أن يـدوم إلى الأبـد. هكـذا مـرت عـدة شهور دون شيء خاص يذكر، مثل استعراض جـيش متعـب يمر تحت نوافذي.

أحيانًا، عندما أجد متسعًا مـن الوقـت، أذهـب إلى بيـت الفيل العتيق، أقضي لحظات في مشاهدته. كان مـدخل الحبـاك الإسمنتي مغلقًـا بقيـد ذي قفـل كـي لا يتـسلل أي كـان إلى الداخل. لاحظت وأنا أشاهد الفجوات أن باب القفص كـان أيضًا مغلقًا بقفل كبير. وكأنما كانت الشرطة تروم التستر عـن إخفاقهـا في عـدم العثـور عـلى الفيـل، فقـد ضـاعفت مـن الإجراءات الأمنية عبثًا لما لم يعد الفيل موجودًا هنـاك. كانـت الضواحي مهجورة بالكل، ولم أر سوى سرب حمام يحط لحظة على سطح القفص. أما مكان الفيل فبدا أن لا أحد بات يعتني به، حيث استغلت الأعشاب الموسمية الخضراء الفرصة لتنمو هنا وهناك. وبدا القيد حول باب القفـص مثـل ثعبـان هائـل يحرس باب قصر متداعٍ مهجور في الغاب. كانت بضعة شهور على غياب الفيل كافيةً لمنح المكان مظهر الكآبة وحتـى اللعنـة التي تطفو على الحديقة الصغيرة مثل سحابة منذرة.

عندما التقيت بها، كان شهر ديسمبر يشرف على نهايته. هطل المطر من الصباح إلى المساء، رذاذ خفيف يتردد خلال ذلك الفصل. مثل هذا النوع من المطر يغسل تدريجيًّا كل الذكريات التي خلفها الصيف الحارق على الأرض. انسابت كل الذكريات، التي حملتها السواقي، عبر الأنهار وقنوات الصرف الصحي باتجاه المحيط المعتم العميق.

التقينا في حفل نظمته الشركة التي أعمل بها في أحد صالونات فندق فخم، بمناسبة إصدار تشكيلة جديدة من أجهز المطبخ. كنت أشتغل في مصلحة الإشهار بمصنع للمواد الكهربائية، وحينذاك، كنت مكلفًا بحملة الترويج لأجهزة منزلية متناسقة أصدرناها في الخريف، فصل الزيجات، متبوعة بخصم نهاية السنة. ارتكز دوري على التفاوض حول هذه الأجهزة مع المجلات النسائية. لم يكن العمل متعبًا جدًّا، لكن كان يتعين مع ذلك التأكد من عدم نفور القراء من هذا النوع من الأجهزة عن بعد. وكتعويض على هذه الخدمة، من جهتنا، كنا نشتري الصفحات الإشهارية في هذه المجلات. تبادل الخدمات.

كانت رئيسةَ تحرير مجلة موجهة لجمهور الشابات؛ حضرت الحفل لجمع معلومات بهدف تحرير مقالها. وإذ لم يكن لديَّ ما أفعله في تلك اللحظة، قمت أشرح لها إيجابيات

الخلاطات، والصفائح الكهربائية، وآلات القهوة الأخرى، والثلاجات التي صممها لنا صانع إيطالي مشهور.

- النقطة الأساسية، قلت لها، هي الوحدة. فأجمل الأشياء يُمْحَى نهائيًّا إن لم ينسجم مع محيطه. وحدة الألوان، ووحدة الأشكال، والوحدة الوظيفية، كل ذلك هو ما تحتاجه المطابخ الحديثة. بحسب الإحصائيات، المطبخ هو المكان الذي تقضي فيه المرأة جل أوقاتها. إنه مجال عملها، ومكتبها، وصالونها. ولهذا تبذل النساء قصارى جهدهنَّ لجعل مطابخهنَّ جذابة ومريحة، علمًا بأن هذا ليست له علاقة بحجم الغرفة. وحتى لو كان ضيقًا، فالمطبخ قد يكون دائمًا ممتازًا شرط أن يتبع قاعدة واحدة: أن يكون بسيطًا، ووظيفيًّا، ومتناسقًا. وهذه التشكيلة قد تم تصميمها وفق هذا المبدأ. انظري إلى هذا الصحن، مثلاً، إلخ...

كانت تومئ برأسها، وتسجل بعض النقاط على دفتر جيب، دون أن تهتم بوجه خاص لما كنت أفوه به؛ من جهتي لم أكن شخصيًّا مكترثًا لصحون مآلها الفرن. كان كل واحد منا يقوم بعمله، بكل بساطة.

- إنك ملم بشؤون المطبخ، قالت عندما أنهيت شروحاتي.

- إنه عملي، أجبت بابتسامة مهنية. بصرف النظر عن ذلك، فأنا حقًّا أحب الطبخ. أطبخ كل يوم.

- أتساءل إن كانت الوحدة حقًّا لازمة في المطبخ، قالت.

- في المطبخ الحديث، صححت. شركتنا تصر على هذه النقطة.

- آه، أعتذر. أتساءل إن كان المطبخ الحديث بحاجة حقًّا إلى الوحدة. ما رأيك الشخصي في هذه المسألة؟

- لا رأي شخصي لديَّ مادمت لم أتخلَّ بعد عن ربطة العنق هذه، أجبت مبتسمًا. الحق أنني اليوم سأشكل استثناء. فيما بيننا، أعتقد أن ثمة في المطبخ عددًا من الأشياء تأتي قبل الوحدة. الأمر هنا يتعلق بأشياء لا تشترى، وغير ذات نفع في هذا العالم البرجماتي الذي نعيش فيه.

- أتعتقد أن العالم مشكل بطريقة برجماتية؟

أخرجت علبة السجائر من جيبي، وأشعلت سيجارة بولاعتي.

- قلت هذا من أجل التحدَّث فقط، استطردت قائلاً. إنها وجهة نظر تساعد على فهم عدة أشياء، وتسهل العمل أيضًا. إنه لعب بالكلمات. بالوسع استعمال تعابير مختلفة: البرجماتية الجوهرية، برجماتيًّا جوهريًّا، إلخ. لكن عندما يفكر

المرء، ويتكلم على هذا النحو، فلن يكون هناك غموض، ولن تثار مشاكل معقدة.

- رأي مفيد.

- ليس بنوع خاص. ولكن هذا ما أعتقد. على فكرة، الشامبانيا ليست رديئة. هل تريدين كأسًا منها؟

- بكل سرور، شكرًا.

واصلنا ثرثرتنا مع شرب الشامبانيا المثلج، واكتشفنا عدة علاقات مشتركة. فقد نشأنا في وسط غير متوتر. يكفي إثارة بعض الأسماء خلال الحديث لنكتشف بسرعة عددًا من "العلاقات المشتركة". زيادة على ذلك، أنها وأختي قد درستا بالكلية نفسها. مع هذه الأسماء كنقطة انطلاق، تطور الحديث بسهولة.

كانت عازبة مثلي. عمرها ست وعشرون سنة. وأنا واحد وثلاثون. كانت تضع عدسات لاصقة، وأنا نظارتان. أعجبها لون ربطة عنقي، وأعجبني فستانها الجميل جدًّا. تحدثنا عن إيجار شقتينا الخاصتين، وتأسفنا على زهد أجرتينا مقارنة مع حجم العمل الذي نبذله. بمعنى اخر، باتت بيننا حميمية. كانت ظريفة، بسيماء غير مضجر. ظللت واقفًا لمدة عشرين دقيقة أثرثر معها دون أن أجد أي سبب يجعلها غير جذابة.

حين انتهى الحفل، دعوتها لـشرب كـأس ببـار الفنـدق، حيث بإمكاننا مواصلة حديثنا ونحن جالسان. من خلل الكوة الواسعة المزججة للبار، كان يـتراءى هطـول مطـر الخريـف، وخلف هذه الستارة الصامتة بدت الأضـواء المعتمـة للمدينـة ترسل إشارات مـضطربة. كـان البـار شـبه فـارغ، ران عليـه صمت ندي. طلبتْ كأس دكيري مثلج، وأنا أخذت ويسكي أون دو روكس.

تحدثنا، ونحن نشرب كأسينا، عن أشياء مختلفة مثل رجل وامرأة حدث أن التقيا في بار، وأعجب الواحد بالآخر. تحدثنا عن سنوات الدراسة، وعن أصناف الموسيقى المفـضلة لـدينا، وأنواع الرياضة التي نعشق، وعن ميولاتنا الصغيرة.

بعد ذلك، حدثتها عن الفيل. لا أعرف كيف حدثتها عن ذلك. مـن المـستحيل أن أتـذكر الخـيط الـذي قـادني إلى هـذا الموضوع. ربـما لأننـا كنـا نـتكلم عـن الحيوانـات، لا أعـرف إطلاقًا. ربما وبشكل غير واعٍ أردت أن أبدي رأيي حول قصة الفيل لشخص آخر - شخصٍ قادر على إدراك ذلك - أو ربـما لأنني أفرطت في الشرب.

على كل حال، بمجرد ما أن بدأت الحديث، أدركت أنني قد طرحت قضية في وقت غير مناسب. ما كان عـليَّ أن أقـوم البتة بذلك. كان الأمر مصطنعًا.

في الوقت الذي حاولت فيه العودة إلى الخلف وإثارة موضوع آخر، اتضح، لسوء الحظ مصادفة، أنها مهتمة أكثر مما يتصور بقضية اختفاء الفيل الذي سمعت عنه كباقي الناس. ما إن أخبرتها أنني شاهدت ذاك الفيل عدة مرات، حتى أمطرتني بوابل من الأسئلة:

- كيف كان؟ برأيك كيف هرب؟ ماذا كان يأكل؟ هل كان خطرًا؟

شرحت لها الوقائع بأبسط ما أمكن، متمسكًا بالصيغة التي أوردتها الصحف. غير أنها لمست في نبرتي بعض التردد والتكلف. لم أكن من الذين يتقنون فن الكذب.

- كانت صدمتك قوية لاختفاء هذا الفيل، أليس كذلك؟ قالت وهي تشرب كأسها الثاني من الدكيري، وكأن الأمر لم يحصل. لا أحد يتوقع اختفاء فيل فجأة بهذه الطريقة.

- أجل. ربما، أجبت وأنا آخذ قطعة من حلوى البرتزل المكدسة في قدح زجاجي، أقسمها وأقضم النصف.

اقترب النادل وغير المرمدة.

حدقت فيَّ مليًّا لحظة باهتمام بالغ. أشعلت سيجارة أخرى. كنت قد توقفت عن التدخين لثلاث سنوات، لكنني عدت إليه بعد اختفاء الفيل.

- كيف، ربما؟ تعني أنك تعتقد أن ذلك قد يحدث؟ سألتني.

- كلا، قلت مبتسمًا. من المستحيل توقع ذلك. إن اختفاء فيل سابقة مجانبة للصواب وعديمة الجدوى.

- ومع ذلك، فما قلته كان غريبًا. قلت لك إن: «لا أحد يتوقع اختفاء فيل»، وأجبت: «ربما». عادة، لا نجيب بهذه الطريقة عن هذا النوع من العبارات. كان الأجدر أن تجيب بـ: نعم، هذا مؤكد، أو بشيء من هذا القبيل.

حركت رأسي قليلاً باتجاهها، ورفعت يدي للمناداة على النادل، ثم طلبت كأسًا آخر من الويسكي. ران صمت ملؤه التوقعات إلى حين عودة النادل.

- لا أفهم جيدًا. واصلت حديثها بشكل هادئ. قبل قليل، كان لنا حوار عاد إلى حين إثارة موضوع الفيل. فجأة تغيرت طريقة الحديث. لا أفهم ما الذي تود قوله. ماذا وقع. هل تخفي شيئًا بخصوص هذا الفيل؟ أم أن أذناي غدرتا بي؟

- ليست أذناك.

- إذن، المشكلة معك؟

أدخلت أصابعي في الكأس لتحريك قطع الثلج التي أعشق صوتها عندما تتصادم داخل كأس الويسكي.

- لفظةُ مشكلة كلمةٌ كبـيرة، قلـت. الواقـع أن الأمـر لا يتعلق إلا بتفصيل صغير. فأنا لا أروم إخفاء ما أعرف، ولكن لا أعرف كيف أعبر. إنها حكاية طريفة.

- كيف ذلك؟

أخذت جرعة من الويسكي، واستـسلمت للأمـر. كـان عليَّ أن أحكي لها.

- ما يزعجني هو أنني من المحتمل آخر مَن شاهد الفيل. شاهدته يوم السابع عشر من شهر مايو حوالي السابعة مـساء، ولم يُعلم باختفائه إلا في اليوم المـوالي عنـد الظهـر. في غـضون ذلك، لم يره أحد بسبب إغلاق أبواب بيت الفيل على الـساعة السادسة مساءً.

- لا أفهم، قالت وهي تحدق فيّ. كيف تمكنت من رؤيتـه على الساعة السابعة إذا كانت الأبواب تغلق في السادسة؟

- خلف حديقة الفيـل، تنتـصب رابيـة وعـرة، أو قـولي جرف تقريبًا. إنها ملكية خاصة، وليس هناك ما يشبه الطريق. على كل حال، عند قمة الرابية هناك موضع يمكـن منـه رؤيـة داخل الحديقة. ولعلني الوحيد الذي يعرف هذا المكان.

«عثرت على هـذا الموضـع صـدفة. ذات يـوم أحـد بعـد الظهيرة، وأنا أتجول خلف الرابية، تهت. ولما كنت أتعقب نقط الإرشـاد في غيـاب أي طريـق، وجـدت نفـسي عنـد مـساحة

صغيرة مسطحة تكفي شخصًا ليتمـدد عليهـا. بـين الأدغـال يظهر بوضوح سقف بيت الفيل، تحته توجد ثغرة تهوية كبيرة، من خلالها تمكنت من رؤية كل ما بداخل القفص.

«بعد ذلك، صـارت مـن عـاداتي الـصعود إلى مرصـدي لمشاهدة الفيل في بيته. وحتى إذا ما سألتيني عن السبب الـذي كان يدعوني لتحمل مشقة الذهاب إلى هناك لرؤية الفيل، لـن أستطيع الإجابة. كنت أتملى برؤيتـه في لحظـات حميميـة بكـل صراحة. هذا هو السبب الحقيقي.

«بديهي أنني لا أتمكن من رؤيته عند نزول الظـلام. لكـن عندما ينشر الليل سدوله، يأتي الحارس ليعتني به تحت أضـواء المصابيح المثبتة في القفص، ويكون بإمكاني رؤية المـشهد بكـل التفاصيل.

«ما أذهلني على التو، تلك الحميمية المعقودة بين الحيـوان وحارسه وهما لوحدهما، حميمية أكبر مما يلاحظ عنـد رؤيـتهما من طرف عموم الزوار. يظهر ذلك توًّا من خـلال حركـاتهما، وكأنهما يخفيان بعنايـة كبـيرة أحاسيـسهما خـلال النهـار كـيما يكشفان عنها في المساء بعد أن ينفرد الواحـد بـالآخر، دون أن يعني ذلك أنهما يقومان بما هو مخـالف. فكـما خـارج القفـص، يبدو الفيل غافلاً حالة تواجده داخله، ويكون الحارس منشغلاً بغسله وتمشيطه. يجمع قطعًا ضخمة من الـروث المتنـاثر عـلى الأرض، ويزيل بقايا الطعام. باختصار، كـان الحـارس يقـوم

بعمله كعامل بحديقة الحيوان. ومع ذلك، كان هناك دفء جلي مبعثه بالتأكيد إحساس بثقة متبادلة. وفيما يكون الحارس يكنس الأرضية، يكون الفيل آخذًا في تحريك خرطومه، وبين لحظة وأخرى يربت به على ظهر صاحبه.

- هل أحببت دائمًا الفيلة؟ أو فقط هذا الفيل بشكل خاص؟ سألتني.

- أجل، أعتقد أنني أحبها. أجدها مثيرة. فقد أثارتني دائمًا بدون أن أتساءل عن السبب.

- إذن، كنت تصعد كل مساء إلى قمة الرابية لمشاهدة الفيل، وذهبت أيضًا في ذلك اليوم. لا أعرف أي يوم في شهر مايو...

- في السابع عشر. السابع عشر من مايو حوالي السابعة مساءً. النهارات طويلة في تلك الفترة. كانت لحظة الغسق، وضوء النهار لا يزال، ومصابيح قفص الفيل كانت قد أنيرت.

- ألم تلاحظ في ذاك المساء شيئًا استثنائيًّا على الفيل أو الحارس؟

- كلا. أو بالأحرى نعم. لا أستطيع أن أقول بدقة؛ لأنني لم أكن على مقربة منهما. ربما. باختصار، أشك في أن يعتد بشهادتي.

- لكن ما الذي كان استثنائيًّا؟

أخذت جرعة من الويسكي. كانت قطع الثلج قد ذابت. خلف الكوات المزججة كان المطر لايزال يهطل خفيفًا. وكأنه عنصر سكوني في هذا المشهد الطبيعي إلى الأبد.

- في الحقيقة لم يكن ثمة شيء مختلف، قلت. كان الحارس والفيل يقومان بما اعتادا عليه. الحارس منشغل بالتنظيف، وبتقديم الطعام إلى الفيل الذي يبدي علامات المودة. كالعادة دائمًا. إنما الذي أذهلني هي التناسبات.

- التناسبات؟

- توازن أحجامهما الخاصة. فقد بدا لي أن التناسب كان مختلفًا شيئًا ما بالنسبة لما هو معتاد. تقلص اختلاف حجمهما.

تأملتْ كأس الدكيري لحظة. كانت قطعة الثلج قد ذابت، مشكلة نوع تيارات صغيرة تحاول الامتزاج بالكوكتيل.

- تعني أن الفيل قد تقلص؟

- أو أن حجم الحارس قد ازداد، أو الاثنان في الآن معًا.

- هل أبلغت الشرطة؟

- طبعًا لا! أجبت. أولاً لأنهم لن يصدقوني. زيادة على ذلك، لو أخبرتهم بأنني كنت أراقب الفيل من على الرابية، سأكون أول المشتبه بهم.

- لكنك كنت متيقنًا من تباين حجميهما؟

- ربما. هذا كل ما يمكن قوله. ربما. ليس لديَّ دليل، وأكرر لك بأنني لم أكن أراقب إلا من بعيد من خلال ثغرة التهوية. باختصار، شاهدتهما وهما معًا على الحال نفسه عدة مرات، ويبدو لي أنني لا أجانب الصواب حول حجميهما.

«قلت في نفسي ربما لا يعدو ذلك هلوسة. أطبقت جفني، وفتحتهما عدة مرات بالتعاقب، وهززت رأسي، ونظرت مرات عبثًا. لم يتغير حجم الفيل. كان قد تقلص. بل ذهب بي الظن إلى أن المدينة قد اقتنت فيلاً آخر أصغر. لكنني لم أسمع بمثل هذا المشروع، لكوني لا أفوت أي خبر جديد يتعلق بالفيل. لم يكن هناك أي تفسير آخر: لقد تقلص الفيل المسن. وأنا أدقق النظر من جديد، أدركت أن حالته وحالة الفيل المسن هي نفسها كالسابق. ففيما كان الحارس يقوم بغسله، كان الفيل يضرب الأرض بقائمته اليسرى بفرح، ويداعب، كما العادة، بخرطومه الذي تقلص قليلاً ظهر الحارس العجوز.

«كان منظرًا غريبًا. وفيما كنت أحدق من خلال ثغرة التهوية، انتابني إحساس بريح صقيعية من حقبة خالية تهب على القفص. استسلم الحارس العجوز، والفيل معه، بفرح لذاك الأمر الجديد الذي كان يحاول أن يلفهما - أو لفهما جزئيًّا من قبل.

«استغرقت رؤيتي للمشهد حوالي أقل من نصف ساعة. كانت مصابيح بيت الفيل قد أطفئت قبل المعتاد بمدة طويلة، على الساعة السابعة والنصف، وعم الظلام كل أرجاء الحديقة. انتظرت لحظة لعل الأضواء تنار من جديد. لم يتحقق ذلك. كنت قد رأيت الفيل لآخر مرة.

- إذن، تعتقد أنه تقلص لدرجة تمكنه من التسلل من خلال قضبان أرضه المسورة، أو أنه اختزل إلى حد اختفائه تماما؟ سألتني.

- لا أدري. قلت. أحاول فقط أن أتذكر بدقة ما شاهدته. لم أخلص لأي نتيجة. يكفي أن ما رأته عيناي كان مدهشًا بكل صراحة. لا أستطيع تصور أي شيء كيفما كان أكثر من ذلك.

هذا كل ما حكيت لها عن اختفاء الفيل. ومثلما قلت في البدء، كان هذا الموضوع خاصًا جدًّا لإثارته أمام فتاة التقيتها توًّا، وبشكل أكثر تكلفًا. وبمجرد ما أن أنهيت حكايتي ران علينا صمت مطبق. لم تكن لنا معًا أدنى فكرة عما يمكن التحدث عنه بعد إثارة اختفاء الفيل، موضوع لا يحتمل نقاشًا إضافيا. مررت إصبعها على حافة كأسها، فيما أعدت قراءة الحروًف المنقوشة على الإطار التحت زجاجي خمسًا وعشرين مرة على الأقل، إذ ما كان عليَّ أن أتحدث عن الفيل. فالقصة لم تكن من النوع الذي يمكن البوح به بحرية أمام أيٍّ كان.

- فيما مضى، كان في بيتي قط اختفى فجأة، قالت بعد لحظة طويلة. طبعًا، هذا ليس له علاقة البتة بفيل.

- أجل، لا مقارنة. هناك، أصلاً، اختلاف هائل في الحجم. قلت.

بعد نصف ساعة، افترقنا أمام مدخل الفندق. تذكرت أنها نسيت مطريتها في البار. أخذتُ المصعد للبحث عنها. كانت مطرية بلون قرميدي وبزخارف كبيرة.

- شكرًا، قالت.

- ليلة سعيدة.

لم أرها ثانية بعد ذلك. تحدثنا مرة عبر الهاتف بخصوص تفاصيل تهم المقال الإشهاري. في تلك اللحظة، خطر ببالي أن أدعوها للعشاء، لكن في النهاية عدلت عن الأمر. وأنا أحادثها عبر الهاتف، بدا لي على حين غرة أن ذلك لم يكن حقًّا ذا أهمية.

عادة ما يحدث لي هذا منذ أن تبخر الفيل. تنتابني رغبة في القيام بشيء، وفجأة، أرى الأمر غير ذي فائدة: لا أرى اختلافًا بين العواقب التي قد يخلفها هذا الفعل، والعواقب التي تنتج بسبب عدم تحققه. يبدو بين الفينة والأخرى أن الظواهر التي تحوط بي قد فقدت توازنها الحقيقي والأصلي. لكن، ربما أكون فقط ضحية هلوسة. وربما أن قضية الفيل قد

قوّضت توازني الداخلي، وأن الظواهر الخارجية تبدو من الآن غريبة. ربما أكون فقط المسؤول عن هذه الظروف.

استندت على ما تبقى لديَّ من صور ذكريات برجماتية لعالم برغماتي بهدف مواصلة بيع الثلاجات، والأفران، ومحمصات الخبز، وآلات القهوة. وبقدر ما أحاول أن أكون برجماتيًّا، كانت بضاعتي تباع بشكل لا نظير له - حملتي الإشهارية كانت ناجحة، بحيث فاقت كل توقعاتنا الأشد تفاؤلاً - واتسعت دائرة معارفي. كانوا، بدون شك، يبحثون عن وحدة في هذا المطبخ الذي يدعي عالمًا. وحدة الأشكال، وحدة الألوان، والوحدة الوظيفية.

لم تعد الجرائد تنشر مقالات عن الفيل. وحتى في مدينتي، يبدو أن الناس قد نسوا أنه كان ثمة فيل تبنته البلدية. والعشب الذي نما في مكان الفيل ذبل، وألقى جو شتوي ظلاله على الضواحي.

كان الفيل وحارسه قد تبخرا تمامًا، ولن يراهما أحد ثانية.



6

قرد شيناجوا

يحدث أحيانًا أن تنسى اسمها الشخصي، خصوصًا عندما يباغتها شخص بالسؤال. مثلاً في محل حيث كانت قد اشترت فستانًا، وحيث تعين أن تعدل طول الكمين. «معذرة، في اسم مَن؟» سألتها العاملة. أو في عملها، عندما ينهي المتحدث عبر الهاتف حديثه بسؤال: «لو سمحت، ذكريني باسمك؟»

في هذه المواقف تخونها الذاكرة. لا تعرف تمامًا مَن هي. ولكي تتذكر اسمها، كان عليها أن تخرج من محفظتها رخصة السياقة، ما يبدو غريبًا أمام مَن تتحدث إليه، أو إذا ما حدث المشهد عبر الهاتف، فإن لحظة ترددها - والتي خلالها تخرج رخصة سياقتها - تخلف لدى متحدثها انطباعًا بالغرابة.

هذا المشكل لا يحدث أبدًا عندما تكون هي التي يتعين عليها أن تنكر هويتها. حين يكون لها متسع من الوقت، يكون بمقدروها شحذ ذاكرتها. لكن حين تفاجأ أو يسألها أحد على حين غرة وبلا تحذير، يكون الأمر وكأن مفتاح فصل قد انتزع، وتلف ذهنها الظلمةُ. تحاول جاهدة، من دون أن تستعيد اسمها. وبقدر ما تبذل كل قواها، ينتابها الشعور بأنها منغمرة في فراغ لا شكل له.

لم يكن هذا الاضطراب يهم إلا اسمها. أما مع أسماء مَن هم حولها فلم يحدث ذلك أبدًا. لم يكن هناك أيضًا مشكل مع عنوانها، ورقم هاتفها، وعيد ميلادها، ورقم جواز سفرها. كانت تستحضر تقريبًا عن ظهر قلب كل أرقام هواتف أصدقائها، أو أهم زبائنها. قدرتها على التذكر كانت دائمًا جيدة. إنما الذي لا تستطيع تذكره هو اسمها فقط. بدأ المشكل منذ حوالي سنة، هي المرة الأولى التي تعيش فيها هذه التجربة.

* * *

كانت تدعى ميزوكي أندو. اسمها العائلي قبل الزواج كان أوزاوا. لا أحد زعم أن أحد هذين الاسمين العائليين كان أصليًّ، أو أنهما يتضمنان عنصرًا دراميًّا. غير أن هذا لا يعني، مع ذلك، لماذا امحى اسمها من ذاكرتها. فقد صارت السيدة ميزوكي أندو قبل ثلاث سنوات، في فصل الربيع، عندما تزوجت تكاشي أندو، ومنذ ذلك الحين حملت اسم

عائلة زوجها. الاسم الذي لم تتعود عليه أول الأمر. كان لديها إحساس أنه لا شكله الخطي، ولا نبرته يلائمانها. به خلل شيئًا ما. بعد إعادة الاسم الجديد بضع مرات، خلصت إلى أن «ميزوكي أندو» على كل حال لم يكن بالاسم السيئ. أو لم يكن وكأنما وجدت نفسها منتحلة اسمًا مبتذلاً، مثل «ميزوكي ميزوكي» أو «ميزوكي ميكي» - في الواقع، كانت قد عاشت مغامرة قصيرة مع رجل يدعى ميكي. عمومًا، فقد كان «ميزوكي أندو»، مقارنة بذلك، مقبولاً. وبالتدريج تكيفت مع الاسم الجديد.

مع ذلك، وقبل سنة بالضبط، بدأ الاسم فجأة ينفلت منها. في البداية، كان يحدث تقريبًا مرة في الشهر، وما لبث أن بدأت حالات النسيان تتضاعف تدريجيًّا، إلى أن بات مرة في الأسبوع على الأقل. حالما يختفي «ميزوكي أندو»، تجد نفسها وحيدة في هذا العالم لا تساوي شيئًا أكثر من امرأة بلا اسم. غير أن الأمر يكون على أحسن ما يرام حين تحمل محفظتها. تخرج رخصة السياقة، تعرف اسمها، وتعرف مَن هي. أما حينما تفقد محفظتها، ألا تكون لها أدنى فكرة عمن هي؟ بطبيعة الحال، حين يحدث أن تنسى اسمها بصورة مؤقتة، لا تتحول إلى كائن منعدم. كانت دائمًا هي نفسها، تتذكر دائمًا عنوانها، ورقم هاتفها. لم يكن الأمر كما في الأفلام، تلك القصص عن الفقدان الكلي للذاكرة والتي نشاهدها في السينما. إلا أن

مشكل نسيان اسمها ضايقها بشدة، كي لا نقول أقلقها. كان لها إحساس بأن حياة بدون اسم تشبه حلـمًا لا يستطيع الحالم الاستيقاظ منه.

توجهت إلى متجر للحلي، وابتاعت سوارًا رقيقًا من الفضة نقشت عليه اسميها: ميزوكي أندو (أوزاوا). من غير عنوان أو رقم هاتف. اسمها فقط. هزأت من نفسها وقالت:

«وكأنني كلب أو قط!»

حالما تغادر بيتها، تحاذر ألا تنسى حمل سوارها. عند مساس الحاجة، تلقي عليه نظرة عجلى، بحيث لا يتطلب منها الأمر سوى فتح محفظتها لإخراجه، متجنبة نظرات الناس المرتابة.

لم تصارح زوجها بالمشكل. إذ لو حدثته، لأجابها بما يشبه: «حياتنا الزوجية جعلتك بدون شك غير سعيدة أو أنه يعوزها الانسجام».

كان لدى زوجها دائمًا هذا النوع من الملاحظات عن كل المواضيع. لم يكن ذا نية سيئة، بل كل شيء عنده قابل للتنظير. أما هي، في المقابل، فلم يكن ذلك أحد امتيازاتها. وإضافة إلى تميزه بالبلاغة، كان من الصعب عليها مقاطعته عندما يسترسل في موضوع ما، فتنحاز إلى الاحتماء بالصمت. على كل حال، خمنت، ما قاله زوجها - أو ما قد قاله - كان مخالفًا لما تشعر به.

لم تتسبب لها حياتها الزوجية في أي إحباط أو قلق. إزاء زوجها - بعيدًا عن ميله المفرط للنظريات - لم تكن تشتكي من شيء. ولم يتشكل لها أي انطباع سلبي إزاء عائلة زوجها. كان حموها يدير مصحة في صاكاتا، بعمالة ياماغاتا. لم تكن العائلة، عمومًا، مزعجة، رغم أن طرقها في التفكير تقليدية بلا منازع. أما زوجها الذي كان أصغر أبناء العائلة فقد ترك لشأنه. كان أصل ميزوكي من ناجويا، التي قضت فيها طفولتها. في البداية، ومع الصرامة المفرطة لفصول الشتاء بصاكاطا، لم تتحمل برد المنطقة القارس؛ مع ذلك، وبفضل إقامتهما القصيرة هناك، مرة أو مرتين في السنة، وجدت المكان ممتعًا. بعد سنتين عل زواجهما، أخذا قرضًا، واشتريا شقة بعمارة جديدة بشيناجوا. كان زوجها حينذاك في الثلاثين، يشتغل في مختبر شركة الأدوية. وتبلغ هي من العمر ستا وعشرين عاما، وتعمل عند وكيل لشركة هوندا بدائرة أوتا، تجيب عن أسئلة الزبائن عبر الهاتف، تستقبل الزوار في زاوية بالقاعة، تقدم لهم الشاي أو القهوة، تقوم بالاستنساخ إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، ترتب الأرشيف، وتحين الجدولات المعلوماتية.

بعد حصولها على دبلوم جامعي - دورة دراسية قصيرة لسنتين - حازت على هذا العمل عبر توسط من عم طكاشي،

إطار لدى هوندا. لم يكن العمل بالتأكيد مثيرًا، غير أن المهام التي أوكلت لها جعلته على كل حال مفيدًا.

لم يندرج ضمن هذه اختصاصاتها مهمة بيع السيارات، ورغم ذلك، وفي كل مرة يتغيب فيها الباعة، تتكلف بالبيع، وتنجح في المهمة، وفي الإجابة عن كل أسئلة الزبائن. اكتسبت هذه المهارة لدى ملاحظاتها للباعة، كما امتلكت حدًّا أدنى من المعرفة التقنية. مثلاً، عرفت كيف تشرح بحماس إلى أي حد ينضبط نوع سيارة الأوديسا بدقة، بعيدًا عما قد يتوقع من نوع مونوصباص. كانت قادرة على استظهار مجموع استهلاك كل نوع على حدة. كانت بطبيعتها ذات حديث بسيط، وببسمتها الساحرة تنزع كل أثر التخوف عند المشترين المقبلين. وتعرف أيضًا كيف تفكك شخصية الزبون، وتغير التكتيك بمرونة وفق الحاجة. توفقت مرارًا في اللحظة التي كان سيتم فيها البيع. لكن في آخر المطاف، للأسف، كان يتعين عليها أن تنقل الملف إلى فريق الباعة. إذ لم تكن سلطة الموافقة على التخفيضات، أو اقتراح اختيارات بحسب هواها، ولا حتى أن تفاوض على ثمن الاسترداد. بعد كل حساب، وحتى ولو أنجزت الجزء الأكبر من العمل، فقد كان البائع المسؤول هو مَن يقوم بالتوقيع، ويقبض عمولته. أما مكافأتها الوحيدة فتمثلت في وجبة يدعوها إليها البائع المحظوظ.

من حين لآخر تقول لنفسها إنها لو منحت مهمة البيع، لبيع عدد كبير من السيارات، ولحقق المتجر نتائج سارة جدًّا. وإذا عكفت بجد، قد يكون باستطاعتها بيع ضعف ما يمكن أن يبيعه بائع شاب تخرج لتوه من الجامعة. لكن لا أحد قال لها: "إنك موهوبة في البيع. وإنه لأمر مؤسف أن يتركوكِ تجيبين على الهاتف، وتتكلفي بالأرشيف. هل ترغبين في أن تصبحي بائعة؟" هكذا، كيف كانت الأمور تسير في المقاولة. الباعة هم الباعة، والإداريون هم الإداريون. حالما يتم تشكيل غل المهنة، لا يعود من السهل كسره. من جهة أخرى، لم تكن لها إرادة توسيع حقل مسؤولياتها، وبناء حياة مهنية بشكل إرادي. وبدل ذلك، فضلت إنجاز المهمة المنوطة بها، من الساعة التاسعة إلى الخامسة مساءً، والاستمتاع بإجازتها المؤدى عنها دون تضييع يوم واحد، والاستفادة من حياتها بهدوء. ذلك كان طبعها.

ظلت في عملها محتفظة باسمها العائلي. ووجدت غضاضة في شرح تغييره إلى اسم زوجها العائلي. على بطاقة الزيارة كما على بطاقة هويتها المرمزة التي تحملها على بذلتها، أو على بطاقة التنقيط، كتب: «يزوكي أوزاوا». يناديها الجميع بـ«الآنسة أوزاوا»، أو «ميزوكي» فقط. وتجيب عبر الهاتف: «وندا، الوكالة XX ، صباح الخير، أوزاوا في خدمتكم». ورغم عدم رفضها لاسم أندو، فقد ظلت تستعمل اسمها

العائلي لكونها ببساطة تتضايق لشرح لماذا وكيف. كان زوجها الذي يهاتفها أحيانًا، يعرف أنها تدعى بهذا الاسم في عملها، إلا أن ذلك لم يطرح لديه أي مشكل. إذ بدا أنه يعتبر المسألة ذات طبيعة عملية لا غير. وما دام أنه مرتاح لهذا التعليل المنطقي، فليس هناك مشكل.

* * *

بدأت ميزوكي تشعر بالقلق. فأن ينفلت اسمها من ذهنها، هل كان ذلك أحد أعراض مرض خطر؟ مثلاً، قد يكون بداية مرض الزهايمر. وفضلاً عن ذلك، فالعالم مليء بأمراض غير متصورة، وبنهاية محتومة. لم تعلم إلا مؤخرًا بوجود أمراض رهيبة كالعُضال أو داء الهاتينجتون. ولا ريب أن هناك أيضًا أمراضًا أخرى، وعددًا لا يحصى من الأوجاع الغريبة التي لم تسمع عنها من قبل. حيث تكون علاماتها الأولى، عمومًا، خفيفة جدًّا. بالتأكيد، فحدث نسيان اسمها، كعرض مبكر، كان مبعثه شيئًا غير اعتيادي. لما ظهر هذا النوع من التفكير لديها، ساورها قلق ونها لدرجة جعلها لا تقوى على تحمله. هل يكون جسدها قد آوى في جهة ما منه مركزَ داء مجهول، قد يكون آخذًا في الانتشار بصمت؟

توجهت إلى مستشفى كبير، وشرحت لهم أعراضها. لم يعر الطبيب الشاب المكلف بالخدمة (بدا في الواقع مثل مريض

أكثر من طبيب، بسبب شحوبه ومظهره المرهَق) انتباهًا جيدًا لتوضيحاتها.

«طيب، بصرف النظر عن اسمك، هل تنسين شيئًا آخر؟ سألها.

- لا، قالت. حاليًا، أنسى اسمي فقط.

- آه، أعتقد أن ذلك يخص طب الأمراض العقلية، رد الطبيب بنبرة خلوة من أدنى اهتمام، أو إشفاق. إذا ما حدث أن نسيتِ شيئًا آخر، عودي إلينا. عند ذاك، سنقوم بإجراء فحوصات».

بدا أنه يلمح لها بأن من واجب الأطباء في هذا المستشفى العكوف على عدد من المصابين بأمراض مؤلمة وخطرة، وأن النسيان العرضي لاسمها، في الواقع، ليس من الخطورة في شيء. كانت لهم انشغالات أخرى.

* * *

ذات يوم وهي تقرأ نشرة بلدية شيناجوا التي وجدتها ضمن بريدها، وقع بصرها على مقال يورد أن دار البلدية ستقوم بفتح مركز لاستشارات الاضطرابات النفسية. كان بالكاد مقالاً صغيرًا. لم تكن لتعيره أدنى انتباه في أوقاتها العادية. كان المركز سيشتغل مرة في الأسبوع. وسيتكلف مستشار محترف بالإجابة عن أسئلة المرضى كل واحد على

حدة، وبتعريفة جد منخفضة. وسيكون لساكنة شيناجوا، الذين يبلغون من العمر أكثر من ثمانية عشر عامًا، الحق في الاستفادة من هذه الخدمة. ولن تكون ثمة مدعاة للقلق؛ لأن سرية الاستشارات مضمونة. ارتابت ميزوكي في فعالية هذه الخدمة المقدمة من طرف البلدية. بيد أنها قررت أن تجرب حظها. على كل حال، قالت في نفسها، لن يضرها ذلك في شيء.

عند وكيل هوندا حيث تعمل، كانت نهايات الأسبوع مشحونة بالعمل، وبرغم ذلك كان باستطاعتها الحصول ببساطة على يوم راحة في الأسبوع، وبإمكانها أن ترتب أمرها ليناسب جدولها الزمني توقيت مركز الاستشارات. الشيء الذي قد يكون حدثًا طوباويًا بالنسبة لأجيرة عادية. وبما أن الاستشارات بالمواعيد، فقد هاتفت الرقم المشار إليه. تبلغ التعريفة ألفي ينًّا لاستشارة تدوم ثلاثين دقيقة. لم يكن مبلغًا باهظًا. أخذت موعدًا للأربعاء القادم على الساعة الثانية بعد الزوال.

* * *

لدى وصولها إلى مركز استشارات الاضطرابات النفسية الكائن بالطابق الثاني بدار البلدية، لاحظت ميزوكي أنها المريضة الوحيدة ذاك اليوم.

«انطلق هذا البرنامج فجأة، أخبرتها المكلفة بالاستقبال. العديد من الناس على غير علم بالأمر. حين يصلهم الخبر، سيأتون، أنا على يقين. لم نفتح إلا توًّا، أنت محظوظة!».

كانت المستشارة، تيتسوكو صكاكي، امرأة مستديرة، مقبولة، تجاوزت الأربعين، بشعر قصير ذي لون داكن براق، وبوجه عريض، باسم بشوش. ترتدي تنورة صيفية فاتحة، وقميصًا حريريًّا براقًا، وقلادة لؤلؤ مزيف، وحذاءً بكعب مسطح. بدت مثل ربة بيت أكثر من مستشارة - جارة ودودة، كريمة.

«كما ترين، قالت على الفور في تقديم فكه لنفسها، زوجي يعمل هنا بدار البلدية مسؤولاً بمصلحة الأشغال العمومية. بفضل ذلك، حصلنا على مساعدة من البلدية، وفتحنا هذا المركز هكذا، فأنت أول مَن يطلب الاستشارة. مرحبًا بك. ليس هناك اليوم من موعد. وأقترح أن نأخذ كل الوقت ونتحدث بقلب مفتوح بهدوء».

كانت طريقة تعبيرها بطيئة جدًّا، دونما إثارة.

«أشكر لك حسن الاستقبال»، ردت ميزوكي وهي تقول في نفسها: أتساءل إن كان بوسع هذه المرأة أن تساعدني حقًّا.

«لا شكرًا على واجب، لا عليك. إنني أحمل شهادة ولدي تجربة كبيرة. اتكلي عليَّ دون خشية! استطردت المرأة بلطف وكأنما سمعت صوت ميزوكي الباطني.

أخذت تيتسوكو صكاكي مكانها خلف مكتب معدني. وجلست ميزوكي على أريكة صغيرة من طراز عتيق وكأنها خرجت للتو من مستودع للأثاث. النوابض واهنة جدًّا، ورائحة الغبار لسعت منخريها.

«في الحقيقة، تمنيت لو كانت لدينا أريكة وثيرة تليق بمركز الاستشارات، لكن هذا كل ما استطعنا الحصول عليه لحد الآن. فنحن نشتغل مع مصلحة الخدمات البلدية، كما تعرفين، وهناك إجراءات مضايقة، وأشد صرامة لأي شيء كيفما كان. أؤكد لك أن الأمر شاق. في الفرصة القادمة، سنقدم لك ما هو أفضل. هل يكفي ما نقدمه لك اليوم؟»

غاصت ميزوكي في الأريكة الواهية، وشرعت تشرح بمنهجية كيف بدأت تنسى اسمها. خلال ذلك الوقت، كانت تيتسوكو صكاكي تستمع إليها من غير أن تنبس ببنت شفة، مكتفية بالموافقة بترديد «ممم...ممم...». لم تطرح أي سؤال، ولم تظهر بصورة دقيقة أي دهشة. كانت بالكاد تومئ برأسها. استمعت إلى قصة ميزوكي باهتمام بالغ إلى الآخر. أحيانًا كانت تبدي اختلاجًا وكأنها تفكر في شيء ما، من دون أن تتغير تعابير وجهها، ماعدا ابتسامة خفيفة مرسومة على شفتيها، مثل قمر الربيع في الشفق.

«نقش اسمك على السوار فكرة ممتازة، صاحت لما انتهت ميزوكي من سرد حكايتها. برأيي، كنت على حق في التصرف

على هذا النحو. ومع ذلك، يلزم إيجاد وسيلة عملية للتخفيف شيئًا ما من السلبيات. أمام اضطراب ما، التصرف الواقعي أفضل من إحساس بالإثم ينهش الذات، أو الغرق فيه، أو السقوط في الجنون. إنك ذكية بشكل خاص. وما يؤكد ذلك، سوارك الجذاب هذا. لقد ناسبكِ بشكل جيد.

- برأيك، سألتها ميزوكي، هل يكون لفعل نسيان المرء لاسمه علامة مبكرة لمرض أشد خطورة؟ هل تعرفين حالات مماثلة؟

- الواقع، أجابت المستشارة، أنني لا أعتقد بوجود مرض يحمل هذه الأعراض المحددة. في المقابل، أخشى أن تتفاقم اضطراباتك خلال سنة. وليس من المستحيل أن تكون كمسبب يفضي إلى أعراض أخرى، أو أن تمتد ثقوب ذاكرتك إلى جهات أخرى. لهذا، أقترح، حاليًا، البحث لتحديد المصدر. وبما أنك تشتغلين في الخارج، أتصور أن نسيان اسمك قد يكون مصدر هموم لك.

طرحت تيتسوكو صكاكي عددًا من الأسئلة الأساسية حول حياتها. منذ متى وأنتِ متزوجة؟ ما طبيعة عملك؟ كيف حال صحتك؟ بعد ذلك، سألت عن طفولة ميزوكي، عن عائلتها، عن دراستها، وعن الأشياء التي تحبها وتلك التي تكرهها؛ والمجالات التي تتفوق فيها، وتلك التي كانت

ضعيفة فيها. كانت ميزوكي تجيب عن كل سؤال بصدق، وبسرعة، وبكل دقة ممكنة.

كانت قد نشأت في حضن عائلة تعيش حياة عادية. كان أبوها يشتغل في شركة كبيرة للتأمين. لم تدع أنها كانت من أسرة غنية، لكنها لا تتذكر أنهم ذاقوا شظف العيش. تكونت أسرتها من أب وأم وأخت وهي. وكان أبوها رجلاً ذا طبع جاد، في حين كانت أمها رهيفة الإحساس، وشيئًا ما فظة. أما أختها فقد كانت من النوع الذي يحتل المكانة الأولى في الدراسة، ولو أنها (بحسب ميزوكي) كانت تبدو سطحية وجديرة بالازدراء. ومع ذلك، لم يحدث أن عاشت ميزوكي أي مشكل في أسرتها التي كانت تربطها بها أواصر جيدة. وما ثبت أن كان ثمة شقاق جسيم.

كطفلة، لم تكن من النوع الملفت للنظر. لم تعرف البتة المرض، الشيء الذي لا يعني، مع ذلك، أنها كانت تتمتع بجسم رياضي. كما أن مظهرها لم يسبب لها أي تعقيدات. على العكس من ذلك، لم يمدح أحد جمالها. كانت تعتبر نفسها بصدق ذكية، لكنها لم تتفوق في أي مجال. نتائجها الدراسية كانت مضبوطة، وترتيبها دائمًا يقترب من الرتبة الأولى أكثر من قربه من الرتبة السفلى. في المدرسة، كانت لها صداقات كثيرة، إلا أن أغلبهم رحل بعد الزواج، وحاليًا نادرًا ما يلتقون. أما فيما يتعلق بحياتها الزوجية الآن، فليس ثمة ما

يدعو إلى الشكوى. في البدء، وكباقي الأزواج الجدد، عاش الزوجان بعض الخلافات، لكن مع مرور الأيام، صارت حياتهما هنية. لم يكن زوجها، بطبيعة الحال، من الكمال (مثلاً، زيادة على كونه ميالاً بإفراط إلى الملاحظات، كان يفتقر إلى الذوق فيما يخص الملبس). وبرغم ذلك، كان يتمتع بكل المزايا (لطيف، له حس بالمسؤولية، نظيف، ويأكل كل ما يقدم له، من غير شكوى أو تذمر). في عمله، لم يكن على خلاف مع الآخرين، سواء مع زملائه أو رؤسائه. كان يبدو كل شيء على ما يرام. بالطبع، بين الحين والآخر يحدث أن تقع بعض الأحداث المغضبة. أليس من الحتمي أن يحدث ذلك حين يشتغل المرء يوميًّا مع نفس الأشخاص وفي نفس البيئة؟

«يا إلهي، أي حياة هذه غير مرغوب فيها»، قالت ميزوكي في نفسها وهي تجيب عن أسئلة المستشارة. كانت مشدوهة من النتيجة التي خلصت إليها. لم يمسها أقل شيء مأساويًّا في حياتها التي بالمقارنة مع شريط سينمائي، قد تكون شبيهة بأحد تلك الشرائط الوثائقية حول البيئة، تم إنتاجه بأقل تكلفة، ويقود مباشرة إلى النوم. منظر طبيعي بنغمات غير واضحة، ولا شيء آخر. ليس هناك تنوع في مشاهد تفتقد إلى التأطير. لا توتر درامي، ولا سقوط، ولا حتى حلقة تأسر نظر المتفرج. لم تكن هناك علامة منبئة كيفما كان نوعها، ولا شيء موحيًا. فقط، وبين الحين والآخر، تحول طفيف لزاوية الكاميرا. وكأن الآلة تنازلت عن تذكر وظيفتها.

كان عمل المستشارة بالطبع هو الاستماع إلى مرضاها، إلا أن ميزوكي تأسفت لتيتسوكو صكاكي التي تعين عليها الإصغاء لقصة ذات مصير ممل. كيف كان باستطاعتها أن تمنع نفسها من التثاؤب؟ لو كنت مكانها، قالت ميزوكي في نفسها، وتعين عليَّ الاستماع كل يوم لقصص لا تنتهي، مثل قصتي، لقضيت ضجرًا!

ومع ذلك، فقد أصغت تيتسوكو صكاكي بجد إلى ميزوكي، مسجلة أحيانًا بعض المفردات بقلم حبر جاف. كانت تطرح هنا أو هناك سؤالاً مقتضبًا، وغالبًا ما تظل صامتة وكأنما كانت مركزة كليًّا لحظة الاستماع.

كان صوتها عند الحديث حارًّا يحزر باهتمام حقيقي، دون أن تظهر عليه علامة الضجر. عند استماعها لهذا الصوت ذي النبرات الممطة بشكل خاص، بدأت ميزوكي تشعر بهدوء غريب. كان لها إحساس، حتى الآن، بأن لا أحد قد انتبه إليها بهذا القدر من الحماس من قبل. حين انتهت المقابلة التي دامت حوالي أكثر من ساعة، شعرت ميزوكي أن ثقلاً قد انزاح عنها.

«إذن، مدام أندو، سألتها تيتسوكو صكاكي بابتسامة عريضة، هل بإمكانك أن تعودي الأربعاء المقبل في الساعة نفسها؟

- نعم، أظن. أجابت ميزوكي، إذا لم يكن هناك إزعاج؟

- بالطبع لا. ما دام الأمر يهمك. في هذا النوع من المقابلات، كما تعلمين، يجب عقد أكثر من حصة لتحقيق بعض التقدم. إن ذلك غير تلك البرامج الإذاعية الشعبية حيث يُقَدم للمريض جواب عمومي، ثم «انتهت الحلقة اليوم! إلى اللقاء!» هنا الأمر مختلف، ربما يلزم الوقت، ولكن، على كل حال، نحن الاثنان من شيناجوا، ويمكن أن نسمح لأنفسنا بالتقدم بتؤدة».

«أتساءل إن كنتِ تتذكرين حدثًا قد تكون له علاقة بالأسماء؟ سألتها تيتسوكو صكاكي في بداية الحصة الثانية. اسمك أو اسم شخص آخر، أو اسم حيوان، أو اسم مكان تكونين قد زرته، أو حتى لقب، ولم لا؟ أي شيء كيفما كان له علاقة باسم ما. إذا ما استحضر ذهنك شيئًا ما مرتبطًا باسم ما، أتمنى أن تحدثيني عنه.

- شيء له علاقة باسم ما؟

- أجل، اسم: أو الإشارة إلى اسم ما، أو توقيع، اسم يستدعي أي شيء ولو تافه مادامت له صلة بالاسم. حاولي أن تتذكري».

فكرت ميزيوكي لوقت طويل.

«لا أرى أي شيء خاص له علاقة باسم ما، قالت أخيرًا. على أية حال، ذهني لا يستحضر شيئًا الآن. آه، أجل. أتذكر شيئًا فيما يتعلق ببطاقة الهوية المرمزة.

- الهوية المرمزة. ممتاز.

- لكنها ليست بطاقتي، استدركت ميزوكي. كانت هوية شخص آخر.

- ليس مهمًّا. احكي لي. ألحت تيتسوكو صكاكي.

- لقد حكيت لك عنها الأسبوع الفارط، شرعت ميزوكي تحكي. درستُ في مؤسسات التعليم الخصوصي. من الإعدادي إلى الثانوي. ولكوني أقطن بناجويا، ومدرستي بيوكوهاما، كنت تلميذة داخلية، ولا أعود إلى البيت إلا في نهاية الأسبوع. أستقل قطار شينكانسن مساء الجمعة في ساعة متأخرة، وأقوم بالأمر نفسه مساء الأحد في الإياب. من يوكوهاما إلى ناجويا مسافة ساعتين فقط، الشيء الذي لم يشكل عبئًا عليَّ».

هزت تيتسوكو صكاكي رأسها. «وبرغم ذلك فقد كانت هناك مدارس خصوصية بناجويا؟ أليس كذلك؟ لماذا تعين عليك الابتعاد عن بيتكم؟

- كانت المدرسة التي درَست بها أمي. لقد رغبت في أن تتابع إحدى بنتيها دراستها هناك. وقد راق لي أن أعيش بعيدة عن والدي. كانت تدير المدرسة راهبات، لكنها كانت إلى حدٍّ ما ليبرالية. كانت لديَّ عدة صديقات. كلهن مثلي، جئن من أماكن مختلفة، وأمهاتهن درسن بالمؤسسة نفسها. مكثت هناك

ست سنوات، راضية في أغلب الأوقات. باستثناء التغذية التي كانت سيئة بصراحة».

ابتسمت تيتسوكو صكاكي، «قلت لي إن لك أختًا تكبرك، أليس كذلك؟

- أجل. تكبرني بسنتين.

- ولكن ما سبب عدم ذهابها إلى تلك المؤسسة بيوكوهاما؟

- لقد درست بمدرسة في المدينة. وعاشت، بطبيعة الحال، في البيت. لم تكن من النوع الذي يعشق المغامرة. زيادة على أنها منذ صغرها كانت ذات طبع رهيف. لهذا طلبت مني أمي أن أدرس هناك. كنت دائمًا متمتعة بصحة جيدة، ومستقلة أكثر من أختي. عندما أنهيت المرحلة الابتدائية، وسألني والدي إن كنت موافقة على الذهاب إلى الإعدادية بيوكوهاما، قبلت. ثم إن فكرة السفر على متن قطار شينكانسن كل نهاية أسبوع راقت لي كثيرً.

- أستسمح إن قاطعتك، قالت تيتسوكو صكاكي بابتسامة. من فضلك، أكملي.

- في الداخلية، تتقاسم جل التلميذات غرفة واحدة، لكن ابتداء من السنة الثالثة ثانوي، يكون للتلميذة الحق في الانفراد بغرفة لوحدها. في تلك الفترة بالضبط، لما وقع هذا الحدث،

كنت أشغل غرفة لوحدي. ولما كنت أكبر التلميذات سنًّا، فقد تم اختياري ممثلة لهنَّ. عند مدخل عنبر النوم، لوحة علقت عليها الهويات المرمزة للتلميذات الداخليات. كتب الاسم الشخصي والاسم العائلي بحروف سوداء على وجه البطاقة، وبحروف حمراء على الظهر. حين نغادر العنبر، يتعين علينا قلبها على الظهر، ووضعها على الوجه عندما نعود. الأسود يعني أننا نتواجد في العنبر، والأحمر يعني أننا بالخارج. وإذا ما تعين على الواحدة منا قضاء الليلة خارج العنبر، أو قررت أن تتغيب لمدة، تُزال بطاقتها من اللوحة. كما توجب على التلميذات الداخليات التكلف بالاستقبال بالتناوب. يكفي التلميذة التي تكون في الخدمة، عندما يرن الهاتف، أن تلقي نظرة على اللوحة، لتعرف ما إذا كانت التلميذة الداخلية التي يسأل عنها موجودة تلك اللحظة أم لا. كان نظامًا عمليًّا جدًّا».

هزت تيتسوكو رأسها موافقة وكأنما لتشجعها على مواصلة الحديث.

«حدث ذلك في شهر أكتوبر. قبل وجبة العشاء، وجدتني في غرفتي، أقوم بواجباتي المدرسية. جاءت عندي يوكو ماتسوناكا، تلميذة في السنة الثانية. يناديها الجميع يوكو فقط. كانت بكل تأكيد أجمل فتاة في الداخلية، ببشرة ناصعة البياض، وشعر طويل، لطيفة جدًّا، دمية حقيقية. كان والداها

ثريين، يديران مأوى تقليديًّا عتيقًا بِكَنَـزاوا. ولأننـا لم نكـن في القسم نفسه، لم أكن أعرفها بشكل دقيـق، لكننـي سـمعت أن نتائجها المدرسية ممتازة. الحقيقة أن الفتاة كانت ممتـازة في كـل شيء. والعديد من التلميذات الأقل سنًّا كنَّ متولهات بها. بيد أن يوكو لم تكن من تلـك الطينـة المتعجرفـة المدعيـة، ولا مـن النوع الذي يبدي عواطفه. هادئة، ساكنة، ظريفة. أحيانًا يشق عليَّ أن أعرف ما الذي يمكن أن تفكر فيه. كنـت أتـساءل إن كان لها أصدقاء حقيقيون، فقد تزلف لها الكثير عبثًا».

* * *

بينـما ميزوكـي جالـسة في المكتـب بغرفتهـا، تـستمع إلى الراديو، تناهى إلى مسمعها طرق خفيـف عـلى البـاب طُـكْ، طُكِ. فتحت. رأت يوكو ماتسوناكا مرتدية كنزة صوفية مـن نوع بولو وسروالاً جينزًا.

«أريد أن أتحدث معك قليلاً، إذا لم يكن هناك إزعاج.

- بـالطبع، أجابـت ميزوكـي مندهـشة. لا شيء خاصًّـا لديّ. إذن، ليس هناك مشكل».

إلى حدود ذلك اليوم، لم يحدث البتة أن تحادثت ميزوكـي مع يوكو حـديثًا ثنائيًّـا. ولم تتـصور أبـدًا أن تـأتي إلى غرفتهـا تستشيرها في مـسألة خاصـة. دعتهـا ميزوكـي إلى الجلـوس، وأعدت الشاي بماء كان في ترمسها وأكياس شاي.

«ميزوكي، هل جربت الغيرة من قبل؟ سألتها يوكو بصورة مباشرة جدًّا.

ورغم أن السؤال كان مفاجئًا، فقد تأملته ميزوكي بشكل دقيق.

- لا أظن، أجابت.

- ولو مرة واحدة؟

هزت ميزوكي رأسها نفيًا.

- تسأليني هكذا بصورة مفاجئة، إذن، فلا شيء يحضرني فورًا. الغيرة. ماذا تعني بذلك؟

- مثلاً، تخيلي أنك تحبين رجلاً يعشق فتاة أخرى. أو ثمة شيء ترغبين فيه بقوة مفرطة، لكن شخصًا آخر قبلك استولى عليه. أو تصوري، تقولي في نفسك: «أوه، كم وددت أن أتمكن من إنجاز هذا! في حين أنجزه شخص آخر بدون جهد. شيء من هذا القبيل.

- لا أعتقد أنني عشت هذه الأحاسيس من قبل، قالت ميزوكي. وأنت، يا يوكو؟

- أوه، أجل. كثيرًا.

انعقد لسان ميزوكي ولم تعرف بما تجيب. كيف يمكن لفتاة مثلها أن يعوزها شيء آخر في هذه الحياة؟ فتاة رائعة،

ثرية، ممتازة في الثانوية، يقدرها الجميع. يحبها والداها. بلغ ميزوكي من قبل أنها، في نهاية كل أسبوع، كانت على موعد مع طالب وسيم جدًّا. وإذن، خطر ببال ميزوكي، أي شيء آخر تتمناه؟

- أعطني مثالا، سألتها في النهاية.

- أفضل ألا أدخل في التفاصيل، أجابت يوكو، منتقية مفرداتها بعناية. على أي حال، لن يفيد في شيء إن حكيت لك كل التفاصيل. قبل مدة أردت أن أسألك عن هذا الموضوع. هل عشت تجربة الغيرة؟ نعم أم لا؟

- هل أردت أن تسأليني عن هذا منذ مدة طويلة؟

- نعم».

لم تكن لميزوكي أدنى فكرة عما تريده يوكو منها. بيد أنها قررت أن تجيبها بما أمكن من صدق.

«الحقيقة أنني لم أعش مثل هذا النوع من التجارب، قالت. لا أعرف السبب. قد يبدو غريبًا شيئًا ما إن أنا فكرت في الأمر. وهذا لا يعني أن لي كامل الثقة في نفسي، أو أني أحصل على كل ما أرغب فيه، لا. بالعكس، ثمة أشياء عديدة أعتبر نفسي محرومة منها، لكن لا أعتقد أنني أحسست بالغيرة تجاه شخص ما. لأي سبب، لا أعرف».

ابتسمت يوكو بوهن.

«لا أعتقد أن للغيرة علاقة قوية بالظروف الموضـوعية أو الواقعية. مثلاً، إذا كنت غنية، فلـن تـشعري بـالغيرة. لا. قـد يكون الأمر بالأحرى كورم متلبد قد يـبرز في جـسدك، يكـبر بشكل نزوي دون وعي منك، أو بـدون علـم بعلتـه، وينتـشر بسرعة. وحتى إذا ما علمت بوجوده، فلن تستطيعي فعـل أي شيء لقطع الطريق أمامه. لا أحد بمقـدوره الادعـاء، بطبيعـة الحال، إن السعداء لا يصابون بورم أو أن التعساء يصابون بـه بكل بساطة، أليس كذلك؟ إذن، الأمر شبيه بذلك».

كانت ميزوكي تصغي بصمت. ونـادرًا جـدًّا مـا كانـت يوكو تتلفظ بتعابير طويلة.

«في الواقع يصعب تفسير الغيرة لشخص لم يختـبر مطلقًـا هذا الإحساس. الشيء الوحيد الذي أعرف هو أنه لـيس مـن السهل العيش بمثل هذا الإحساس، وكـأنما تجرجـرين معـك جحيمك الداخلي. يحق لك، يا ميزوكي، أن تشعري بالسعادة، لكونك لم تعيشي هذه التجربة».

توقفت يوكو عن الكـلام، ورانـت عـلى محياهـا ابتـسامة رقيقة بينما هي تحدق في ميزوكي.

كم هي جميلـة! خطـر ببـال ميزوكـي مـرة أخـرى. إنهـا رشيقة، وذات صدر فاتن. ما الذي بوسع الواحدة أن تشعر به

إذا ما كانت تتمتع بمثل هذا الجمال، هذه التي تجذب كل الأنظار أينما حلت؟ لا أكاد أتصور . هل ثمة ببساطة شيء ما يجعلنا سعداء؟ أم قد يكون بالأحرى ثقلاً؟

مع ذلك، وبرغم تساؤلاتها، لم تشعر ميزوكي إزاء يوكو بأدنى غيرة.

«سأعود الآن إلى البيت، قالت يوكو، مركزة عينيها على يديها الموضوعتين على ركبتيها. أحد أفراد عائلتي توفي، ويتوجب عليَّ حضور مراسيم الدفن. لقد أخبرت من قبل الأستاذ المسؤول؛ وسمح لي بالذهاب. سأعود صباح الاثنين. أردت أن أطلب منك إن كنت توافقين على الاحتفاظ ببطاقة هويتي المرمزة إلى حين عودتي».

أخرجت يوكو من جيبها البطاقة، ومدتها إلى ميزوكي التي ظلت منذهلة.

«بالطبع، ليس هناك إزعاج، قالت، ولكن ما الداعي لأن تطلبي مني الاحتفاظ بها؟ لماذا لا تتركيها ببساطة في جارور مكتبك؟»

وكما فعلت من قبل، حدقت يوكو في ميزوكي، لدرجة أن هذه الأخيرة أحست بالضيق.

«أود فقط لو تفضلت بالاحتفاظ بها معك هذه المرة، قالت يوكو في النهاية بنبرة جازمة.

- موافِقة. أجابت ميزوكي.

- لا أود أن يسرقها قرد في غيابي، استطردت يوكو قائلة.

- لا أعتقد أن هناك قردة في هذا البيت»، ردت ميزوكي مازحة. عندئذٍ نهضت يوكو، التي لم يكن من عادتها المزاح، وغادرت، تاركة خلفها بطاقتها، وفنجان شايها الذي لم تمسه، وفراغًا غريبًا.

* * *

«لم تعد يوكو إلى الداخلية في الاثنين الموالي، حكت ميزوكي لتيتسوكو صكاكي. انتاب الأستاذ المسؤول القلق، وهاتف أسرتها. لم تذهب إلى منزلهم، ولم يتوفَّ أحد في العائلة، ومن ثمة لم تكن أية مراسم للدفن. لقد كذبت، ثم اختفت. عند نهاية الأسبوع التالي تم العثور على جثتها. علمتُ بكل القصة لدى عودتي إلى ناجويا مساء الأحد. لقد انتحرت بحز رسغيها في مكان ما بالغابة. وجدت ميتة، مكسوة بالدم. لا أحد استوعب لماذا تصرفت بهذا الشكل. لم تترك أي رسالة، ولم يكن هناك أي دافع مقبول. الفتاة التي تشاركها الغرفة صرحت أن يوكو كانت على طبيعتها كالعادة. ولم يبد عليها أدنى اضطراب. لم تبح لأحد بأي شيء، ووضعت لحياتها حدًّا.

- ولكن الآنسة ماتسوناكا حاولت أن تبث إليك شيئًا ما، لـك أنـت، يـا ميزوكـي، ألـيس كـذلك؟ سـألتها تيتـسوكو صكاكي. فقـد أتـت إلى غرفتـك آخـر مـرة، وهنـاك تركـت بطاقتها. وحدثتك عن الغيرة.

- أجل، بالضبط. تحدثت معي عن هذا الإحساس. بعـد ذلك، حاولت أن أفكر في الموضـوع، وخلـصت إلى أنـه قبـل موتها، كانت بـلا شـك تريـد أن تـسر لـشخص مـا بمـشكل غيرتها. لم أعر المسألة كبير اهتمام في الحال.

- هل أخبرت أحدًا أن الآنسة ماتسوناكا قـد جـاءت إلى غرفتك بالضبط قبيل اختفائها؟

- لا، لم أحدث أي شخص.

- لماذا؟

أطرقت ميزوكي واجمة، وركزت لحظة.

- لو بحت لأحد، ألن يفضي ذلك إلى بلبلة كبيرة؟ أعتقد أن لا أحد كان سيفهم شيئًا.

- هل تعني بهـذا أن سـبب انتحارهـا مـرده عـبء هـذا الإحساس المحتد التي كانت تنوء تحته؟

- أجل، ربما. لكن لو تفوهت بكلمة لأحد، لانقلب على ظهري كل شيء. كيف لفتاة مثل يوكو أن تأخذها الغيرة مـن

شخص آخر؟ فضلت الصمت لكون الارتباك كان عامًّا في تلك اللحظة، والجميع في أوج الهيجان. هل تتصورين الجو الذي ساد في جناح داخلية الفتيات؟ لو كنت أضفت كلمة، لكان الأمر كقدح عود ثقاب في غرفة مخنوقة بالغاز!

- وماذا حدث للبطاقة؟

- مازلت محتفظة بها. إنها في صندوقي، داخل الدولاب، مع بطاقتي.

- لماذا احتفظت بها؟

- في تلك الفترة ساد الذعر في المدرسة، وفوتت عليَّ الفرصة لإعادتها. ثم بقدر ما كان الوقت يمر، بات من الصعب عليَّ إرجاعها بدون إثارة حدث. وفي الوقت نفسه لم أستطع رميها ببساطة. قلت في نفسي إن يوكو ربما أرادت مني أن أحتفظ بها دائمًا، وأن ذلك هو سبب مجيئها إلى غرفتي، قبيل وضع حدٍّ لحياتها، لتركها عندي. لكن لماذا اختارتني، أنا...؟ أجهل مطلقًا.

- هذا غريب في نهاية المطاف. لم تكونا صديقتين حميمتين نهائيًّا، الآنسة يوكو وأنت؟

- الواقع، أننا حين نعيش جماعة في هذه الداخليات الصغيرة، فلابد أن نلتقي. نحيي بعضنا البعض، ونتبادل بضع كلمات. لكن بما أن الفاصل بيننا هو سنة، يوكو وأنا، فلم

يحدث أن كانت بيننا أحاديث شخصية. أجاءت لرؤيتي، لأنني ربما كنت ممثلة للتلميذات؟ أوضحت ميزوكي. إذا ما وضعنا هذا جانبًا، لا أتصور دافعًا آخر.

- ربما لأن الآنسة ماتسوناكا كانت توليك اهتمامًا خاصًا، لسبب غير معروف؟ هل كانت منجذبة إليك؟ أو وجدت فيك شيئًا ي...؟

- لم ألحظ شيئًا قط».

ظلت تيتسوكو صكاكي صامتة، تتأمل ميزوكي لحظة، وكأنها تروم التأكد من شيء ما. ثم تابعت قائلة:

- إذن، هل حقًّا لم تختبري الغيرة؟ ولا مرة في حياتك؟»

فكرت ميزوكي مليًّا. ثم أجابت:

- أبدًا، فيما أعتقد.

- معنى ذلك، باختصار أنكِ ستكونين عاجزة عن فهم طبيعة هذا الإحساس؟

- أظن أنني قادرة على إدراكه بصورة مجردة. على كل حال، أتصور العناصر التي بوسعها أن تشكل الغيرة، لكنني أجهل ما نشعر به حقًّا عندما تنتابنا. كما لا أعرف إلى أي حدٍّ قد تكون شديدة، وحجم المدة التي تستغرقها، أو كم من الوقت تجعلنا نتألم.

– أجل، بطبيعة الحال، قالت تيتسوكو صكاكي مقرة. الغيرة، باختصار شديد، تعرف كل أنواع الدرجات. قسي على ذلك، من جهة أخرى، مجموع الانفعالات البشرية. حين يتعلق الأمر بأشياء صغيرة غير ذات أهمية، فإننا نتسلى: «حرَد، حرَد، حنق!» أو أيضًا «أوه، أوه، الغيور!» أغلب الناس، بدرجات متفاوتة، عاش التجربة. مثلاً، ترقى أحد زملائكم قبلك. في فصلكم، تلميذ مفضل عند الأستاذ. أو أيضًا، فاز أحد جيرانكم في اليانصيب. ذاك ما يثير ببساطة الحسد. ويبدو حيفًا، أليس كذلك؟ ولهذا نشعر بالسخط. يمكن أن أقول لك إن في الطبيعة البشرية شيئًا طبيعيًّا بالتمام. أحقًّا لم يحدث لك هذا من قبل؟ ألم تشعري بالحسد تجاه شخص ما؟».

فكرت ميزوكي ثم قالت:

«لا أظن. مطلقًا. بطبيعة الحال، هناك العديد من الناس أكثر حظًّا مني. بيد أنني لم أشعر إطلاقًا بالحسد إزاءهم. بالنسبة لي، كل واحد يعيش حياته الخاصة، وانتهى الأمر.

– وكما أن كل واحد يختلف عن الآخر، فمن الصعب مقارنة حيواتهم. هل هذا ما ترومين قوله؟

– نعم، إلى حدٍّ ما.

– ممم. مفيد. أجابت تيتسوكو صكاكي، ويداها مشبوكتان على المكتب، وصوتها مهدئ، ترشح منه ظلال

اللهو. على أية حال الأمر هنا يتعلق بالغيرة بمعناها الخفيـف، بالحسد، لا أكثر، حتى أكرر تعبيرك. أما في حالاتها القصوى، فـالأمور لا تكـون سـهلة. في هـذه الحـالات، تكـون مثـل الطفيليـات التـي تـستقر في قلبـك. هنـا – مـثلما وصـفته صديقتك- تصير الغيرة شبيهة بورم سرطاني يـنهش روحـك بعمق. وقد تذهب إلى هلاك الشخص المصاب بها. ليس ثمـة وسيلة لاحتوائها بحيث تصبح بكل بساطة فظيعةً.

*　　*　　*

حين عادت ميزوكي إلى بيتها، أخرجـت مـن الـدولاب صندوقًا من الورق المقوَّى، لف بشريط لاصق شفاف. كانـت قد وضعت داخله بطاقتها وبطاقة يوكو في مظروف. وكدست أيضًا فيه كل أنواع التذكارات الصغيرة التي يعود تاريخهـا إلى أيام دراستها بـالتعليم الابتـدائي، رسـائل قديمـة، مـذكراتها الحميمة، وألبومات الصور، ونتائجها المدرسية. أحيانًا تقـول في نفسها إنه يتوجـب عليهـا أن ترتبهـا، إلا أنهـا كانـت دائـمًا مشغولة، واكتفت بحمل الـصندوق كلـما انتقلـت إلى سـكن جديد.

عبثًا بحثت. لم يكن المظـروف المحتـوي عـلى البطـاقتين موجودًا في الصندوق. بعثرت ميزوكي المحتوى، وتفحـصت كل شيء بعناية. لا، لم يكن هناك المظروف. أحسست بالارتباك. ولما انتقلت إلى هذه الشقة، فتشت بسرعة محتـوى الـصندوق،

وتذكرت أن المظروف المحتوي على البطاقتين، يوجد هناك. قالت في نفسها باندهاش: «هكذا إذن،، لقد احتفظت بها دائمًا!» لقد أغلقت المظروف كيلا يرى أحد ما بداخله، ومنذ ذلك الحين، لم تفتح أبدًا الصندوق إلى غاية اليوم. ومن ثم، كان يتعين على المظروف أن يوجد هناك. ليس ثمة ظل من الشك. أين اختفى يا إلهي؟

منذ أن شرعت ميزوكي تتردد على مركز الاستشارات البلدي كل أسبوع، وتتحدث مع تيتسوكو صكاكي، لم يعد نسيان اسمها يقلقها كثيرًا. ظل اضطرابها تقريبًا متكررًا كما من قبل، لكن لم يبد أن الأعراض كانت تتفاقم، ولا شيء آخر ينفلت من ذاكرتها. بفضل سوارها، انتفى ارتباكها. بل كان يحدث لها أن تعتقد أن نسيان اسمها الشخصي يشكل جزءًا من حياتها، وأن ثمة، باختصار، شيئًا طبيعيًّا كليًّا.

لم تحدث ميزوكي زوجها عن حصصها مع السيدة صكاكي. ليس لأنها لم ترغب بأي ثمن إخفاء ذلك عنه، وإنما تخيلت النقاشات المملة التي قد تستتبع ذلك، والتي لم تكن مستعدة لها. بطبيعة الحال، قد يطالب بتوضيحات مفصلة. وفوق ذلك، فيما سيضيره إن هي نسيت اسمها أو ترددت على المركز البلدي لإجراء حصة كل أسبوع؟ ثم إن التعريفة كانت مخفضة. وفضلاً عن ذلك، لم تثر مسألة البطاقتين مع تيتسوكو صكاكي - بطاقتها وبطاقة يوكو ماتسوناكا، اللتين بحثت

عنهما ولم تجدهما. لقد اعتبرت أن هذا الحدث غير ذي دلالة مهمَّة.

مر شهران هكذا.

كل أربعاء تتردد ميزوكي على دار بلدية شيناجوا، بالطابق الثاني، لإجراء حصتها الأسبوعية. تزايد عدد المرضى بكثرة، وتعين أن تتقلص مدة المحادثات. نصف ساعة بدل ساعة. غير أن هذه المدة القصيرة لم تكن حقًّا ذات أهمية، كان الحديث يجري بحرية بين ميزوكي وتيتسوكو صكاكي، ما دامت كل واحدة منهما قد عرفت كيف تدبر هذه المدة الزمنية. ودت ميزوكي أحيانًا لو طالت الحصة. وبما أن التعريفة كانت منخفضة جدًّا، فلم تبدِ أيما امتعاض.

«هكذا، إذن، نحن الآن في الحصة التاسعة، قالت تيتسوكو صكاكي، بعد خمس دقائق قبل نهاية الحوار. أعتقد أنك ما زلت تنسين أحيانًا اسمك، لكن بدون اشتداد الحالة. أليس كذلك؟

- بالضبط، أجابت ميزوكي. أظن أن حالتي قد استقرت.

- ممتاز، ممتاز»، قالت تيتسوكو صكاكي. ودست قلمها الجاف ذي المشبك الأسود في جيب سترتها، ثم شبكت أصابعها بثبات فوق المكتب. وتركت بعض اللحظات تنساب.

«ربما... الحاصل أنه ليس مستحيلاً أنكِ عندما ترجعين الأسبوع القادم، قد نحصل على تقدم كبير فيما يخص المشكل الذي تحدثنا عنه لحد الآن.

- تعني حدث نسيان اسمي؟

- نعم. إذا ما مرت الأمور بشكل جيد، فليس من المستبعد أن أحدد أصل المشكل، وأريك إياه.

- سبب نسيان اسمي؟

- بالضبط».

عجزت ميزوكي عن إدراك ما ترمي إليه تيتسوكو صكاكي.

«تتحدَّثين عن أصل ملموس. هل يعني ذلك أنه يرى بالعين المجردة؟

- بطبيعة الحال يُرى بالعين المجردة، بالطبع! أجابت تيتسوكو صكاكي بارتياح. أجل، أجل. وسأقدمه لك في صحن وأقول لك: «هاك! انظري جيدًا!» إنما للأسف لن أدخل في التفاصيل، وليس قبل الأسبوع القادم. لأنني اليوم لست على يقين أن الأمور ستجري بدون مشكل. سأقتصر على التمني. إذا سارت الأمور بشكل جيد، سأوضح لك بدقة كل شيء».

أومأت ميزوكي برأسها إيجابًا.

«على كل حال، واصلت تيتسوكو صكاكي قائلة، ما أروم قوله إن ثمة تقدمًا وتراجعًا، لكن في نهاية المطاف نحن في الطريق باتجاه الحل. تعرفين بلا شك ما يقال عن الحياة: ثلاث خطوات إلى الأمام، وخطوتان إلى الوراء»، أليس كذلك؟ إذن، لا داعي للقلق. ضعي ثقتكِ في السيدة صكاكي. وسنتقابل الأسبوع المقبل. ولا تنسي تسجيل موعدك بمكتب الاستقبال!»

وأرفقت تيتسوكو صكاكي كلامها برفة بطرف عينها.

* * *

عندما دلفت ميزوكي إلى مركز الاستشارات في الأسبوع الموالي على الساعة الواحدة بعد الظهيرة، كانت تيتسوكو صكاكي جالسة في مكتبها وقد ارتسمت على محياها ابتسامة عريضة.

«لقد اكتشفت سبب نسيان اسمك، قالت باعتزاز. وأعتقد أني أعرف الحل لعلاجه.

- ولن أنسى ثانية اسمي، إذن، قالت ميزوكي، هل هذا ما تودين قوله؟

- هو ذاك بالضبط. لن تنسي اسمك بالمرة. السبب تم تحديده. والمشكل تمت معالجته.

- ولكن ما هو السبب؟ سألتها ميزوكي، مرتابة شيئًا ما.

أخرجت تيتسوكو صكاكي من حقيبتها المبرنقة بالأسود شيئًا، ووضعته على المكتب.

«أظن أن هذا يخصك».

نهضت ميزوكي، واقتربت. على المكتب وضعت البطاقتان. كتب على واحدة منهما ميزوكي أوزاوا، وعلى الأخرى يوكو ماتسوناكا. شحب لون ميزوكي. عادت إلى الأريكة، وجلست من جديد. ظلت في تلك اللحظات منبهرة لا تعرف ما تقول؛ ضغطت بكلا كفيها على فمها، وكأنما تحبس الكلام من الانفلات.

«مفاجأتك لا تدعو إلى الدهشة، قالت تيتسوكو صكاكي. لا تنزعجي، فقد شرحت لك كل شيء. هدئي من روعك، لا شيء يدعو إلى الخوف.

- ولكنْ كيف...؟

- كيف حصلتُ على البطاقتين؟

- نعم. لا أستطيع أن...

- أن تفهمي؟»

أومأت ميزوكي برأسها.

«استعدتهما من أجلك، قالت تيتسوكو صكاكي. فقد

تمت سرقتهما. ولهذا صرت تنسين اسمك. ولماذا لزم إيجادهما كي تستطيعي تذكر اسمك.

- ولكن مَن...؟

- مَن الذي تمكن من التسلل إلى بيتك وقام بسرقتهما؟ ولأي غرض؟ أكملت تيتسوكو صكاكي السؤال. الأفضل أن تسألي السارق مباشرة، بدل أن أقدم لك توضيحات مطولة.

- هل هو هنا؟ سألتها ميزوكي.

- أجل، أجل، بالتأكيد. فقد قبضنا عليه واسترجعنا البطاقتين. طبعًا، لست أنا التي قبضت عليه. زوجي وأحد العاملين معه هما مَن تكلفا بالمهمة. تتذكرين أنني قلت لك إن زوجي مسؤول في مصلحة الأشغال العمومية ببلدية شيناجوا؟».

أومأت ميزوكي برأسها إيجابًا، تائهة العقل.

- حسنًا. هيا، هل ترغبين في ملاقاته؟ لنذهب بحثًا عن السارق. وهكذا، بإمكانك مواجهته وجهًا لوجه!»

تبعت ميزوكي تيتسوكو صكاكي. غادرتا مركز الاستشارات، محاذيتين الممر، ودلفتا إلى المصعد. ثم خرجتا إلى الطابق التحتفلي، وتقدمتا في دهليز طويل مقفر أفضى بهما إلى باب طرقته تيتسوكو صكاكي.

«ادخل!» صاح صوت رجالي.

فتحت تيتسوكو الباب. كان في الغرفة رجلان. كان أحدهما طويلاً ونحيفًا في عقده الخامس، فيما كان الآخر في حوالي الخامسة والعشرين قوي البنية. كان الاثنان مرتديين بذلتي العمل. عُلقت على صدر سترة أكبرهما هويته المرمزة بدبوس، كتب عليها «صكاكي». وعلى هوية الآخر اسم «صاكورادا». كان يحمل في يده هراوة سوداء.

«السيدة ميزوكي أندو، على ما أعتقد؟ سألها صكاكي. أقدِّم لك نفسي. يوشيو صكاكي، زوج تيتسوكو. أدير مصلحة الأشغال العمومية ببلدية شيناجوا. وهذا الشاب صاكورادا الذي يساعدني.

- تشرفت، أجابت ميزوكي.

- هل أظهر بعض اللطف؟ سألت تيتسوكو صكاكي زوجها.

- نعم، ربما استسلم لقدره، أجاب قائلاً. فقد راقبه صاكورادا طيلة الفترة الصباحية، والظاهر أنه لم يتسبب في أي مشاكل.

- بالضبط. ظل هادئًا، قال صاكورادا، مؤكدًا، وكأنما يتأسف. فلو أظهر العنف، لعرفت كيف أؤدبه، لكن ذلك لم يكن لازمًا.

- صاكورادا كان عميد فرقة الكارتيه بجامعة ميجي حين كان طالبًا، تدخل يوشيو صكاكي قائلاً. إنه واحد من شبابنا الواعد بمستقبل زاهر.

- وإذن، سألت ميزوكي، مَن الذي دخل إلى بيتي وسرق البطاقتين؟

- حسنًا. قالت تيتسوكو صكاكي، سنقدم لك الجاني».

كان هناك باب ثانٍ في أقصى الغرفة. فتحه صاكورادا، وأنارها. تفحص المكان بنظرة عجلى، والتفت نحو الزوجين وميزوكي.

«كل شيء على ما يرام، صاح قائلاً. هيا، ادخلوا».

دخل يوشيو صكاكي، متبوعًا بزوجته، ثم ميزوكي. كان المكان شبيهًا بمخزن صغير، وليس غرفة، مجردًا من الأثاث، ما عدا كرسي جلس عليه قرد.

كان قوام القرد أصغر من قامة إنسان راشد، وأكبر من قامة تلميذ. وكان شعره كثًّا وشيئًا ما أطول من شعر القردة اليابانية العادية، تتخلله هنا وهناك بعض الشعيرات الرمادية. لم يكن صغير السن، وإن استحال تقدير عمره. كانت أطرافه مربوطة بدقة إلى الكرسي الخشبي بحبل رفيع. عندما دخلت ميزوكي، ألقى عليها نظرة سريعة، ثم أطرق برأسه وثبت عينيه على الأرض.

«قرد؟» صرخت ميزوكي.

- طبعًا، أكدت تيتسوكو صكاكي. إنه القرد الـذي سرق من بيتك البطاقتين».

* * *

«لا أود أن يسرقها قرد في غيابي»، كانت يوكو ماتسوناكا قد قالت.

* * *

في نهاية المطاف، قالت ميزوكي في نفـسها، لم يكـن الأمـر يتعلق بمزحة. لقد كانـت يوكـو عـلى علـم بـذلك. أحـست بقشعريرة في ظهرها.

- ولكن أنت نفسك، كيف...؟

- كيف علمتُ بكل هذا؟ أكملت تيتـسوكو صـكاكي. لقد قلت لك ذلك خلال لقائنا الأول، ألـيس كـذلك؟ إننـي محترفة. ممارسة في الميدان. متخصصة ذات عدة تجارب. لهذا لا يجب الحكم على النـاس مـن خـلال مظهـرهم، كـما لا يجـب الاعتقاد بأن مَن يـشتغل بمركـز بلـدي، وبتعريفـة منخفـضة جدًّا، يكون بالضرورة أقل كفاءة من طبيـب نفـساني يقـيم في عمارة باذخة.

- لا، بطبيعة الحال. إنني فقط من الدهشة، بحيث إن...

- لا عليك. كنت أمزح، قاطعتها تيتسوكو صكاكي ضاحكة. في الواقع، أعرف ذلك جيدًا، مثل الممارسين، فأنا غريبة الأطوار. ولهذا لا آخذ بكل ما هو مؤسسي أو أكاديمي. ما أفضله، هو اتباع طريقتي الخاصة، في مكان مثل هذا. ستعترفين بأن منهجيتي على الأصح خاصة.

- أجل، ولكنها فعالة للغاية، أضاف يوشيو صكاكي جديًّا.

- هكذا، إذن، سألت ميزوكي، هذا القرد قام بسرقة البطاقتين؟

- نعم. انسل إلى شقتك، وفتش في دولابك، وسرق البطاقتين. حدث هذا منذ سنة، تقريبًا. وهذا يطابق بالضبط اللحظة التي بدأتِ تنسين اسمك، أليس كذلك؟

- أجل، بالضبط. كان ذلك في هذه الفترة بالتحديد.

- عفوًا».

فتح القرد فهمه لأول مرة. كان صوته خفيضًا شديد التوقد، يكشف عن نفحة موسيقية.

في حالة تشبه الجنون، صرخت ميزوكي: «قرد يتكلم!».

- نعم، أتكلم، رد الحيوان بهدوء. ألتمس العذر لشيء واحد أو شيئين. عندما دخلت إلى شقتك بنية اختلاس

البطاقتين، أكلت موزتين وجدتهما على المائدة. لم يكن قصدي أخذ شيء كيفما كان ماعدا البطاقتين، لكن الجوع بلغ مني مبلغه ولو أنني أعي أن ذلك غير صائب. وفي الأخير، ابتلعت الموزتين الموجودتين على المائدة. لقد كانتا من الشهية بحيث لم أستطع مقاومة رغبتي.

- يا للجرأة! لاحظ صاكورادا قائلاً، وهو يضرب بهراوته السوداء على باطن يده عدة مرات. يعلم الله ما الأشياء الأخرى التي اختلسها. هلا سمحت لي بأن أجعله يعترف بأفعاله؟

- مهلاً. أوقفه يوشيو صكاكي. انظر، لقد أقر بطيبة خاطر بسرقة الموزتين. ولا أتصور بأنه من العنف بمكان. لذلك، لا يجدر القيام بكل ما من شأنه أن يكون حاسمًا مادمنا على غير علم بكل الوقائع. إذا علموا داخل بنايات البلدية أننا عنفنا هذا الحيوان، فلن تحمد عاقبتنا.

- لماذا سرقت هاتين البطاقتين؟ سألت ميزوكي القرد.

- إنني قرد يسرق الأسماء، لا غير. أجاب الحيوان. مرض أعاني منه. بمجرد ما أن أرى اسمًا، أعجز عن المقاومة، وأستولي عليه. لكن بطبيعة الحال، ليس أي اسم. ثمة اسم أنجذب إليه. اسم شخص ما بشكل خاص. وأقوم باختلاسه. أدخل إلى بيوت الناس، وأسرق. أعرف أن ذلك سيئ، لكنني لا أستطيع ضبط نفسي.

- أأنت الذي حاول الانسلال إلى داخليتنا لسرقة بطاقة يوكو؟

- أجل، أنا. فقد كنت متيمًا بالآنسة ماتسوناكا. لم أشعر طيلة حياتي قط بانجذاب نحو شخص ما. غير أن استمالتها استحالت عليَّ. وبما أنني كنت قردًا، فلم يكن الأمر معقولاً. لهذا اتخذت قرار الاستيلاء، على الأقل، على البطاقة التي تحمل اسمها بعد استنفاد جميع الوسائل. فإذا نجحت في امتلاك اسم هذه المرأة، سأكون مسرورًا. إذ ماذا بوسع قرد أن يأمل أكثر من ذلك؟ لكن الآنسة ماتسوناكا انتحرت قبل أن أنفذ خطتي.

- هل كانت لك علاقة بانتحارها؟

- لا، أجاب القرد، محركًا رأسه بشدة. ليس هناك علاقة إطلاقًا. لا توجد أية علاقة بين موت هذه الفتاة الإرادي وبيني. فقد غمرت روحَ الآنسة يوكو ظلماتٌ ليس لها قرار، ولا أحد في العالم كان بإمكانه إنقاذها.

- لكن كيف عرفت بعد كل هذا الوقت أنني كنت أحتفظ ببطاقة يوكو في بيتي؟

- أخذ مني هذا الأمر وقتًا طويلاً لتمكيني من إدراكه. عقب موت الآنسة ماتسوناكا، حاولت الاستيلاء على بطاقتها. حاولت الحصول عليها قبل أن تمتد إليها يد أخرى،

لكنها كانت قد اختفت. لا أحد علم بمكانها. هجت كالمجنون، وعيل صبري من كثرة البحث. لم أنجح في معرفة مكانها. لم أتصور لحظة واحدة في تلك الفترة أن الآنسة ماتسوناكا قد سلمتها لك. لم تكوني واحدة من صديقاتها الحميمات، فيما أعتقد؟

- لا. قالت ميزوكي.

- بعد ذلك، أشرقت فجأة في ذهني فكرة، وقلت في نفسي: «ألا يمكن أن تكون الآنسة ماتسوناكا قد تركت عندها البطاقة؟ ولم لا؟ ليس مستحيلاً. حدست هذا العام الماضي في فصل الربيع. هنا أيضًا، تعين عليَّ استغراق وقت طويل لتعقب أثرك، لأتثبت من كونك متزوجة، وتدعين حاليًا بميزوكي أندو، وتقطنين بعمارة بشيناجوا. لم يكن من السهل على قرد أن يقوم بهذا الضرب من الأبحاث. ومع ذلك، فقد تمكنت من التسلل إلى شقتك لاختلاس البطاقة.

- ولكن ما الدافع لسرقة بطاقتي أيضًا؟ وليس بطاقة يوكو فقط؟ كان الأمر رهيبًا بالنسبة لي! ونتيجة ذلك، لم أعد أتذكر اسمي بالمرة!

- آسف جدًّا وبكل تواضع. آسف! المعذرة، قال القرد، وأطرق برأسه إجلالاً. بمجرد ما أن أرى الاسم الذي يعجبني، أخطفه. إن الاعتراف شيء مزعج، لكن بطاقتك

أربكت قلبي البائس. هذه هي علتي كما أوضحت لك ذلك من قبل. عندما تداهمني هذه الدوافع، أعجز عن المقاومة. أعرف أن ذلك سيئًا، لكنني أجد نفسي مجبرًا على السرقة، ويكون الأمر فوق كل طاقاتي. أعتذر عن كل الإزعاج الذي سببته لك.

- كان هذا القرد مختبئًا في قنوات الصرف الصحي بشيناجوا، قالت تيتسوكو صكاكي. ولهذا طلبت من زوجي أن يستدعي أحد عماله لإلقاء القبض عليه. وبما أنه يقوم بإدارة مصلحة الأشغال العمومية، فإن هذه القنوات واحدة من مسؤولياته. ويمكن القول إنه أدى المهمة بنجاح!

- أوه، الذي أنجز الشطر الأعظم من العمل للقبض على هذا الحيوان هو زميلي الشاب، صاكورادا، أضاف يوشيو صكاكي.

- المؤكد أن مصلحتنا لا تستطيع تحمل خبيث من هذا النوع يختبئ داخل قنوات صرفنا الصحي! قال صاكورادا بفخر. يبدو أن هذا الماكر قد أقام مخبأه تحت منطقة تاكاناوا. ومن هذه النقطة انطلق في رحلاته في كل أرجاء المدينة.

- بالنسبة لنا، نحن القردة، لا وجود لمكان نعيش فيه باطمئنان، قال القرد. ثمة قلة من الأشجار، ونادرة هي الأماكن الظليلة خلال النهار. وإذا ما خرجنا من الأنفاق،

ينقض علينا الناس ويمسكون بنا. أو يرمينا الأطفال بأشياء مثل كريات الباشينكو، أو يستعملون **(soft air guns)** بندقيات بي بي للفتك بنا. أما الكلاب الضخمة، تلك التي يلبسونها البندانات، فتطاردنا. وإذا رغبنا في الخلود إلى الراحة قليلاً في شجرة، يأتي على حين غرة طاقم تابع لمحطة تلفزيونية، ويصوب منواراته علينا. من المستحيل أن ننعم بالسكينة في أي مكان. هذا لماذا أجبرنا على الإقامة في الأنفاق. أعتذر. اختتم القرد.

- كيف علمتم بأن هذا القرد موجود تحت الأرض؟ سألت ميزوكي تيسوكو صكاكي.

- بعد حوالي شهرين من بدء المحادثات. اتضحت بالتدريج عدة عناصر، تقريبًا كما حين يأخذ الضباب في الانقشاع. وشيئًا فشيئًا تصورت وجود شيء ما يسرق الأسماء. أحسست بأن هذا الشيء - كيفما كانت طبيعته- لابد وأن يكون مختبئًا تحت الأرض، وغير بعيد من هنا. وانطلاقًا من اللحظة التي فكرتِ فيها في أنفاق المدينة، ضاق، بطبيعة الحال، مجال البحث. فقد يتعلق الأمر بقطار الأنفاق، أو بقنوات الصرف الصحي. أخبرت كذلك زوجي باعتقادي بوجود مخلوق- وليس بشرًا- يعيش في قنوات الصرف. وطلبت منه أن يتكلف بالأمر. وبالتأكيد فقد عثرا عليه».

«ولكـن كيـف فكـرت في شيء مـن هـذا القبيـل وأنـت تستمعين إليَّ؟ سألتها في الأخير.

- ربما لا يجدر بي أن أتكلم بدل زوجتي، تـدخَّل يوشـيو قائلاً بنظرة جادة. إنها تمتلك بحق مواهب خاصة جـدًّا. لقـد عاينت خلال اثنين وعـشرين سـنة مـن زواجنـا العديـد مـن الأحداث الأشد غرابـة. ولهـذا الـسبب جهـدت أيـما إجهـاد لمساعدتها في فتح هذا المركز للاستشارات داخل البلدية. كنت مقتنعًا أن بإمكان تيتسوكو استخدام قواها بدرايـة، في المكـان المناسب، وأن سكان شـيناجوا سيـستفيدون. والآن، هـا هـي النتيجة! لقد فُك لغز قضية سرقة الأسماء المحيرة. أنـا سـعيد، وعليَّ الاعتراف بذلك، وبكل ابتهاج.

- وماذا ستفعلون بهذا القرد الذي قبضتم عليه؟ سـألت ميزوكي.

- لا يمكن أن نتركه حيًّا، قال صاكورادا من غير لـف أو دوران. فلن يتخلص من عاداته السيئة. سيقول لك العكـس، بطبيعة الحال، لكنه سـيعود بالتأكيـد إلى أفعالـه. الأحـسن أن يقتل. وأفضل ما يمكن القيـام بـه حقنـه بجرعـة مركـزة مـن محلول مطهر، وهكذا ينتهي الأمر إلى الأبد.

- مهلاً، مهلاً. قال يوشيو صكاكي. إذا ما انكشف قتلنـا لحيوان ما، لن أخبرك بما سيقع! حتى ولو كانـت لنـا أسـباب

قاطعة، فسنواجه شكاوى ومشاكل لن نسلم منها. ألا تتـذكر جيدًا؟ ذاك الاحتجاج العام الذي تفجـر عنـدما قبـضنا عـلى تلـك الغربـان؟ بـصراحة، لا أرغـب في تكـرار مثـل هـذه الجعجعة!

- رحماكم. لا تقتلوني! تـضرع القـرد المربـوط، مطأطئًـا رأسه بالقدر الذي يسمح به رباطـه. تـصرفت بـشكل سـيئ، أجـل. ومـا كـان عـليَّ القيـام بهـذه المجازفـات، إنننـي أدرك حجمها. لقد تسببت في مشاكل للناس. ومـع ذلـك، وبـدون الخوض في إلقاء مرافعات، أليس ثمة أشياء إيجابية قـد تكـون نتجت عن أفعالي؟

- آه! وما هي المحصلات الإيجابية التي نتجت عن سرقة الأسماء؟ أوضح لنا! رد يوشيو صكاكي بنبرة صارمة.

- مرة أخـرى، أطلـب المعـذرة. سرقـت أسـماء هـؤلاء السيدات والسادة البشر. لكن، في الوقت نفسه، سمح لي ذلك بحذف مظاهر سلبية علقـت بأسـمائهم. هـذا لا يعنـي بـأنني أتبجح، ولكن الحق أقـول. فلـو كانـت خطتـي لـسرقة اسـم الآنسة يوكو نجحت منذ البداية، فإن ذلك لا يعني أنها كانت ستنجو من قدرها المحتوم.

- ولكن لماذا؟ سألته ميزوكي.

- لو كـان النجـاح حليفـي في نـشل اسـمها، لكنـت في الوقت نفسه حملت بعض الأسرار المظلمة في داخلهـا. أعتقـد

أنني كنت قادرًا على جر ظلماتها إلى العالم السفلي بمعية اسمها. أوضح القرد.

- يُحسِن الاستدلال! تدخل صاكورادا. غير أنه لا يخدعني. هذا الحيوان يعرف جيدًا أن حياته على كف عفريت. لهذا يستعمل كل دهائه، ويسعى عبثًا لإيجاد أعذار!

- لا أظن، قالت تيتسوكو صكاكي، مشبكة يديها بعد لحظة تفكير. قد يكون ثمة شيء من الواقعية فيما يقول».

التفتت إلى الحيوان.

«تعني أنك عندما تسرق الأسماء، تحمل معك الحسن والسيئ؟

- أجل، تمامًا. أجاب القرد. يصعب عليَّ الانتقاء. فنحن القردة، نقبل كل شيء بعناصره السيئة والحسنة. نأخذ قسمتنا كلها. أتوسل إليكم لا تقتلوني! أجل، فلست سوى قرد ذي عادات سيئة، ومع ذلك، ألا أقدم خدمات للناس؟

- إذن، قل لي، ما السيئ الذي كان يتضمنه اسمي؟ سألته ميزوكي.

- أرى من الأفضل ألا أفشيه في حضرتك.

- هيا، تكلم! ردت ميزوكي. سأسامحك إذا كشفت لي ذلك بدقة. وسأطلب من هؤلاء هنا أن يغفروا لك أيضًا.

- صحيح؟

- إذا قال الحقيقة، هل تسامحوه؟ قالت ميزوكي، متوجهة إلى يوشيو صكاكي. يبدو لي أن هذا القرد ذو طبيعة غير سيئة. وقد عانى الأمرين من قبل. لنسمع ما سيقول، بعد ذلك، خذوه إلى جبل طاكاو أو إلى موضع آخر وأطلقوا سراحه. أعتقد أنه لن يزعجكم ثانية. ماذا قلتم؟

- من جهتي، ليس عندي اعتراض، أجاب يوشيو صكاكي، إذا كنت أنت موافقة».

التفت نحو القرد وبادره بالكلام:

- قل لي. إذا ما نفذنا ما تقترحه السيدة، هل تقسم بألا تعود للتسكع في الدوائر الثلاثة والعشرين بطوكيو؟

- أجل، سيدي صكاكي. أعدك بألا أعود إلى مدينتكم. ولن أتسبب لكم في مشاكل مستقبلاً، ولن أجازف بحياتي في قنوات صرفكم الصحي. فقد تقدمت الآن في السن، وربما يكون صفحكم فرصة جديدة لي لحياة سعيدة».

أظهر القرد وداعة وهو يعطي وعوده.

«كإجراء احتياطي، قال صاكورادا، لم لا نسِمه في ظهره للتعرف عليه؟ أظن أن لنا في مكان ما قضيبًا كهربائيًّا لطبع العلامة الرسمية لشيناجوا.

- أوه، أتوسل إليكم، لا! تضرع القرد بعينين دامعتين. لو وجدت بعلامة غريبة على ظهري، لاحتاط مني الجميع، ولطردتني القردة. سأعترف لكم بكل ما أعرف، لكن، رحماكم، لا تَسِموني!

- حسنًا. لندع قضية الوسم جانبًا، تشفَّع يوشيكو. ثم إننا لو استعملنا الختم الرسمي لشيناجوا، سنتحمل مسؤولية ما قد يقع بعد ذلك.

- أجل، أيها الرئيس. معك حق. أقر صاكورادا أسفًا.

- إذن، ماذا لو قلت لي الآن ما الذي كان سيئًا في اسمي؟ قالت ميزوكي محدقة في عيني القرد الحمراوين الصغيرتين.

- إذا قلت، فقد يحيق بك العذاب.

- لا بأس. هيا، قل».

تأمل القرد لحظات يعلوه الارتباك. وفي جبينه انحفرت التجاعيد.

«الأفضل ألا تستمعي إلى هذه القصة.

- قلت لك لا بأس. أريد حقًّا أن أعرف.

- حسنًا. قال القرد. سأتكلم. أمك لا تحبك، ولم تحبك قط، ولو لحظة واحدة منذ أن كنت صغيرة. لماذا؟ لا أعرف. هذا هو الواقع. الأمر نفسه بالنسبة لأختك الكبرى التي لم

تكن تُكِن لك أي مودة. أمك أرسلتك إلى المدرسة بيوكوهاما، بغية التخلص منكِ. فقد أرادت هي وأختك أن تكوني بعيدة عنهما بقدر ما أمكن. أما أبوكِ، فما كان امرأ سوء، لكنه للأسف ذو شخصية ضعيفة. وعجز عن حمايتك. لهذا لم تتلقي من أي واحد منهم ما يكفي من الحب حتى عندما كنتِ طفلة. أعتقد أن ثمة غموضًا في شكوكك. غير أنكِ لم تأملي في رؤية الأشياء عن قصد. ولم تلتفتي إلى الحقيقة التي دفنتها في زاوية مظلمة بداخلك، مطبقة عليها بغطاء، ومحاولة عدم التفكير في هذه الأشياء المضنية. وقد بذلت ما وسعك لإخفاء هذا البغض الشديد. اجتهدت لحجب هذا الإحساس السلبي، بحيث صار هذا الموقف الدفاعي جزءًا من شخصيتك، أليس كذلك؟ بسبب هذا كله، لم تستطيعي قط أن تحبي أي شخص بعمق، وبطريقة لا مشروطة».

انعقد لسان ميزوكي.

«يبدو أن حياتك الزوجية الراهنة سعيدة، من غير مشاكل. ربما هي كذلك. إلا أنك في الواقع لا تحبين زوجك. هل جانبت الصواب؟ بل حتى ولو كان لديك طفل، وظلت الأمور على حالها، فالحقيقة هي الحقيقة، فيما أتصور».

لم تنبس ميزوكي ببنت شفة. قرفصت وأغمضت عينيها. أحست بجسمها يتداعى إلى أجزاء. وبدت بشرتها، ودواخلها، وعظامها تتفكك أشلاء. فقط صوت أنفاسها كان يتناهى إلى سمعها.

«ياجرأة هذا القرد لقول هذه الأشياء! صاح صاكورادا، وهو يرج برأسه. أيها الرئيس، ما عدت بقادر على تحمل الأمر. أمسكوني وإلا سأنهال عليه ضربًا!

- انتظر، صاحت ميزوكي. إنها الحقيقة. ما تقوله أيها القرد صحيح. كنت أعرف ذلك منذ مدة طويلة. إلا أنني حتى الآن رغبت عن رؤيتها. أغمضت عيني، وأغلقت أذني. والقرد لم يقل إلا الحقيقة. لهذا ألتمس منكم أن تصفحوا عنه، ولا تلوموه. خذوه إلى الجبل، وأطلقوا سراحه، إذا شئتم.

- وهل أنت راضية عن ذلك؟ سألت تيتسوكو صكاكي وهي تضع يدها بلطف على كتف ميزوكي.

- أجل، راضية ما دمت قد استعدت اسمي. وهذا ما يهم. ابتداء من الآن عليَّ أن أتعايش مع الحقيقة. هي اسمي، وهي حياتي».

التفتت تيتسوكو صكاكي إلى زوجها.

- قل لي. هل نقوم نهاية الأسبوع المقبل بنزهة إلى جبل طاكاو، ونأخذ معنا القرد؟ ما رأيك؟

- موافق. أجاب يوشيو صكاكي. وهي فرصة لاختبار سيارتنا الجديدة.

- أشكركم، أنا مدين لكم بحق، قال القرد.

- ألا تمرض في السيارة؟ سألته تيتسوكو صكاكي.

- لا، لا. ستمر الأشياء على ما يرام. لن أتقيأ على مقاعدكم الجديدة، وسأمسك عن قضاء حاجاتي الطبيعية. سأكون هادئًا ورصينًا، ولن أتسبب لكم في أي مشكلة»، أجاب القرد.

* * *

عندما همت ميزوكي بالمغادرة، مدت إلى القرد بطاقة يوكو ماتسوناكا.

«هذه البطاقة تعود لك أكثر مني، قالت. فقد كنت تكن الحب الشديد ليوكو.

- أجل، كنت أحبها كثيرًا.

- احتفظ بهذا الاسم بعناية كبيرة، ولا تسرق اسم أي شخص كان مستقبلاً!

- سمعًا وطاعة. سأحافظ عليها أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم. وسأتوقف نهائيًّا عن السرقة! وعدها القرد بنبرة حازمة.

- ولكن لماذا عهدت إليّ يوكو بها قبيل موتها؟ ولماذا اختارتني أنا بالضبط؟

- لا أعرف، أجاب القرد. على كل حال كي يسمح ذلك لي ولك باللقاء وجهًا لوجه. ربما انعطافة القدر.

- قد تكون على حق، قالت ميزوكي.

- هل آلمك بشدة ما قلته لك، يا ميزوكي؟

- أجل، بشدة. آلمني بفظاعة.

- أعتذر. لم أرغب حقًّا في إفشاء كل ذلك.

- لا بأس. الواقع أنني في العمق كنت أعرف، وكان عليَّ أن أواجه هذه الحقيقة يومًا ما.

- يريحني سماع ذلك. قال القرد.

- وداعًا! قالت ميزوكي. لا أعتقد أننا سنلتقي ثانية.

- حظًّا سعيدًا، يا ميزوكي. قال القرد. أشكرك على إنقاذ حياة بائس مثلي.

- لا مصلحة لك في العودة إلى شيناجوا. صاح صاكورادا، وهو يضرب على باطن يده بالهراوة. اليوم، منحك الرئيس فرصة، إنما إذا قبضت عليك مرة أخرى، فلن تظفر بالنجاة».

لم يُطلَق هذا الكلام على عواهنه. كان القرد يعرف ذلك جيدًا.

«إذن، ماذا قررت بشأن الأسبوع المقبل؟ سألت تيتسوكو صكاكي بمجرد ما أن عادتا إلى مركز الاستشارات. هل ثمة أشياء أخرى تودين قولها لي؟».

هزت ميزوكي رأسها.

«لا. بفضلك، سيدتي، مشكلتي قد انحلت. شكرًا جزيلاً، فأنا مدينة لك.

- ألا تشعرين بالحاجة إلى مناقشة ما قاله القرد؟

- لا. أرى أنه يتعين عليَّ أن أكون قادرة للنظر في ذلك لوحدي. إنها مسألة يجب أن أتأملها بنفسي.

- أجل. قالت تيتسوكو صكاكي. أعتقد أنكِ قادرة على ذلك. إذا واجهت هذه الحقيقة، فستشفين.

- ولكن إذا أخفقت، سألتها ميزوكي، هل أعود لرؤيتك من جديد؟

- طبعًا!» صاحت تيتسوكو صكاكي، وقد أضاءت وجهها المستدير ابتسامة عريضة.

«وسنقبض، نحن الاثنتين، على شيء آخر!».

تصافت المرأتان وافترقتا.

❊ ❊ ❊

لدى عودتها إلى البيت، أخذت ميزوكي البطاقة الحاملة لاسم ميزوكي أوزاوا، والتي أعادها إليها القرد، والسوار المنقوش عليه ميزوكي أندو (أوزاوا)، دستهما في مظروف من

ورق صر، ووضعته في صندوق الورق المقوى، ثم خبأته داخل دولابها. لقد استعادت في نهاية المطاف اسـمها. بهـذا الاسـم، اسمها، ستعيش آمنة مطمئنة. قـد تـسير الأمـور بخـير، أو لا تسير. المهم أنها تمتلك اسمها. اسمها هي، وليس اسم شخص آخر.

7

سنة سباجيتي

كانت 1971 سنة سباجيتي.

في 1971، قضيت كل وقتي في تحضير سباجيتي لغذائي، فلم أعش إلا للطبخ. البخار الذي يتصاعد من القدر المصنوع من الألمنيوم، كان موضوع فخري، والصوت الهادئ لصلصة الطماطم التي تُطهى في الطنجرة، كان أملي الوحيد.

ذهبت إلى محل مختص في المواعين المنزلية، وابتعت قدرًا ضخمًا من الألمنيوم – قد يصلح لاستحمام كلب من فصيلة الكلاب الألمانية – وجهاز ضبط الحرارة؛ ثم فتشت في المتاجر العامة الكبرى التي يتردد عليها الغربيون، وتزودت بمؤنة من كل أنواع البهارات ذات الأسماء الأجنبية؛ وجدت في

مكتبة غربيـة كتابًـا مختـصًا الـسباجيتي، واشـتريت الطماطـم بكثرة. ما كنت أرغب فيه بأي ثمن هو امتلاكي لكل الأشكال المحتملـة للـسباجيتي؛ وتحـضير كـل أصـناف الصلـصات الممكنة.

الجزيئات الدقيقة للثوم، والبصل وزيت الزيتون تُحـوم في الهواء، مشكلة جسمًا مستحبًا غـائمًا يخـترق أصـغر الزوايـا في شقتي الصغيرة، ويتسرب إلى الأرضية الخشبية وإلى الـسقف، والجدران، وكـذا إلى ملابـسي، وكتبـي، وأغلفـة اسـطواناتي، ومضرب التنس، ورزم رسائلي القديمة. كانـت بلاشـك هـي الرائحة التي تخصب القنوات الرومانية العتيقة.

هاكم الوقائع التي حدثت خلال سنة 1971 بعد الميلاد، سنة سباجيتي.

قاعـدتي الأساسـية هـي أن أطـبخ لوحـدي سـباجيتي، وآكلها بمفردي. كنت أدرك أن بالإمكان أكلها مـع شـخص آخر، لكن، في تلك الحقبة، كانت السباجيتي بالنسبة لي وجبـة تؤكل على انفراد. أعترف أنني أجهل الأسباب التي أفضت بي إلى هذه الخلاصة.

كنت أشرب دائمًا الشاي برفقة السباجيتي. أحضر أيـضًا سلطة تكون في جل الأحيان بـسيطة بـالخس والخيـار، وأدبـر أمري كل تكون بـوفرة. أضـع كـل شيء عـلى المائـدة بـشكل

منظم، وهكذا أقضي لحظات ممتعة في ازدراد السباجيتي، وأنا ألقي نظرة على الجريدة. تعاقبت أيام – السباجيتي على هذا النحو، من الأحد إلى السبت. عندما ينتهي الأسبوع، ويحل الأحد من جديد، يتكرر تعاقب جديد لأيام السباجيتي.

كل مرة أجلس فيها بمفردي أمام الطبق، أتصور أحدًا يطرق بابي- خصوصًا في فترات بعد الظهيرة الممطرة، أتخيل سماع صدى طق، طق، طق على الباب. أرى الذي جاء يزورني كل مرة في صورة مختلفة. سواء تعلق الأمر بغريب تمامًا، أو، على العكس، أحد معارفي. مرة فتاة بساقين رشيقين كنت أعاشرها عندما كنت في الثانوية؛ ومرة أخرى، كنت أنا بنفسي- الأنا التي كنتها قبل عدة سنوات. بل مرة يكون وليم هولدن تصطحبه دجنيفر دجونز.

وليم هولدن؟

ومع ذلك لا أحد من هؤلاء الأشخاص دلف إلى شقتي. كانوا كشذرات ذكريات، يكتفون بالمرور على الجانب الآخر من بابي دون أن يطرقوه، ثم يختفون.

كان المطر يهطل في الخارج.

*　　　*　　　*

الربيع، الصيف، الخريف... كنت دائمًا أطبخ سباجيتي.

وكأن الأمر كان يتعلق بانتقام.

وشبيهًا بفتاة مُهمَلة، منذورة منذ الآن للوحدة-، تلقي إلى النار برسائل قديمة من حبيبها، كنت أطبخ سباجيتي بلا توقف، وحيدًا في صمت.

الظلال المتعثرة منذ وقت طويل كنت قد كدستها في القِدر، وأعجنها على شكل كلب من فصيلة الكلاب الألمانية، وألقي بها في زوابع الماء المرتجف الذي أضيف إليه قبضة من الملح. ثم أتسمر هناك دونما حركة ودون الابتعاد عن قدر الألمنيوم، وفي يدي عيدان المطبخ الطويلة، في انتظار الصفير النائح لجهاز ضبط الحرارة.

مع ذلك، ولكون السباجيتي تنتمي إلى النوع المخادع، لم يكن واردا أن أصرف الانتباه عنها لحظة واحدة. وإلا انتهزت الفرصة وتلاشت في ظلال اليوم المشرف على النهاية. وبالطريقة نفسها التي تتوانى فيها الأجمات المدارية كيما تلتهم في صمت وللأبد الفراشات المتعددة الألوان، والليل، حابسًا أنفاسه، يترصد مجيء السباجيتي ليداهمها ويبيدها.

Spaghitti alla parmigiana

Spaghitti alla napoletana

Spaghetti alla prematura

Spaghetti al cartoccio

Spaghetti agolio e olio

Spaghetti alla carbonara

Spaghetti dell pina

كانت أيضًا ثمة أصناف السباجيتي المرثي لها، والمقصية، والمجهولة، تنتظر في جهاز التبريد حيث أُودِعت دونما احتراس شديد.

كانت السباجيتي قد نشأت في البخار الفوار؛ وستنقل عما قريب في مياه النهر، نهر سنة 1971، ثم ستختفي.

وأنا سأدعو لها في صلواتي.

لكل سباجيتي – سنة 1971.

* * *

عندما رن الهاتف على الساعة الثالثة وعشرين دقيقة بعد الظهيرة، كنت متمددًا على الطاطامي، أتأمل السقف. دائرة من الضوء- أشعة شمس الشتاء- رُسمت بالضبط في المكان الذي كنت متمددًا فيه. لم أعرف منذ متى وأنا راقد، مثل ذبابة نافقة، تحت ضوء ديسمبر 1971، عاطل، فارغ.

في البدء لم أعرف أن الرنة كانت صادرة عن الهاتف. أو بالأحرى شذرة ذكرى كانت قد تأخرت عن العودة، وتسللت دونما تردد بين طبقات الهواء. في الأخير، ورغم كل

شيء، شرعت هذه الذكرى تتخذ شكلاً، وبعد عدة دعوات، صارت الرنة مائة بالمائة رنة الهاتف. رنة مائة بالمائة ترن في الهواء حقيقية مائة بالمائة.

مددت يدي، وأنا لا أزال متمددًا الطاطامي، وأخذت السماعة.

في الطرف الآخر من الخط كانت هناك فتاة، غير مميزة بحيث كان يمكن أن تختفي نهائيًّا على الساعة الرابعة النصف مساءً. كانت صديقة قديمة لأحد رفاقي. جمع بينهما، بين هذا الفتى وبين هذه الفتاة التي أحدثت لي أثرًا رقيقًا، شيئًا ما، ثم، بعد ذلك، فرق بينهما شيء ما.

كنت (على مضض) قد لعبت دورًا في تقاربها الأول.

«استسمح، قالت، هل يمكن أن تخبرني بالمكان الذي يوجد فيه الآن؟»

كنت أتأمل السماعة، وأتتبع بعيني طول الخط. أجل، كان هذا الخط، بلا شك، مشدودًا إلى الهاتف. غمغمت جوابًا مراوغًا. كان في صوت هذه الفتاة شيء شبيه بصدى مشؤوم. وبقدر ما استطعت، لم أكن أرغب في التورط في هذه المشاكل.

«لا أحد يريد إخباري بمكانه، واصلت الفتاة بصوت بارد. كل واحد يتظاهر بأنه لا يعلم. لديَّ شيء مهم أود أن

أطلبه منه. أرجوك أن تخبرني بمكان تواجده! وأؤكد لك بأن ذلك لن بسبب لك أي مشكل. أين هو؟

- لا أعرف. إنها الحقيقة. لم أره منذ مدة طويلة»، أجبتها. بدت الكلمات التي تفوهت بها غير صادرت عن صوتي. ومع ذلك، فما قلته كان مضبوطًا. فلم ألتقِ بصديقي منذ زمن طويل. إلا أنني كنت أعرف مكان سكناه، ورقم هاتفه. حين أكذب، يتخذ صوتي تغيرات غريبة في مقامه.

ظلت الفتاة صامتة.

بدا لي الهاتف قد تحوَّل إلى كتلة جليدية.

ثم بدا كل ما حولي قد تحوَّل بدوره إلى كتلة من جليد، وكأنما كنت أوجد في محكي من جنس تخييل- العلم ل ج. ج. بلار.

«أؤكد لك بأنني لا أعرف شيئًا، كررت قائلاً. ليس لي علم. اختفى منذ مدة. ولم يخبرني».

على الجهة الأخرى من الخط، أطلقت الفتاة ضحكة.

«هيا، دعك من المزاح. إنه غير ماكر. وأنا في وضع يمكنني من معرفة مكانه. إنه من تلك الطينة البائسة التي تحتج على أي شيء كيفما كان».

ما قالته الفتاة كان حقيقة. فقد كان هذا الفتى مدعاة للرثاء. ومع ذلك، لم أرم البوح لها بمكانه. لأنني لو قلت، فقد

يكون في الطرف الآخر، ويؤنبني بشدة. لن أتورط ثانية في مشاكل الآخرين. في لحظة ما، كنت قد حفرت حفرة في الحديقة الخلفية، وطمرت فيها كل ما كان بوسعي طمره. ولا أحد بإمكانه الخروج منها.

«آسف، قلت.

- أنت، صرخت فجأة، لا تحبني؟

لم أعرف بما أجيب. ليس لأنني لا أحبها، وإنما ببساطة لم تخلف في ذهني أي انطباع خاص. فَمَنْ لا يترك لدينا أي انطباع، لا يتكوَّن لنا انطباع عنه.

«آسف، كررت قائلاً. أنا الآن أطهو السباجيتي.

- آه...؟

- قلت لك إنني أطبخ السباجيتي»، كنت أكذب. أجهل لماذا اخترعت هذه الحكاية. لكن الكذب كان من قبل جزءًا مني، لدرجة لم أشعر معها في الواقع أنني أكذب في تلك اللحظة.

خيل إليَّ أنني أملأ القدر بماءٍ خيالي، وأشعل عود ثقاب خيالي.

«حسنًا... وبعد؟» قالت.

ألقيت بقبضة من ملحِ خيالي في الماء المغلي. ورميت بهدوء حفنة من السباجيتي الخيالية، وحددت جهاز ضبط الحرارة الخيالي على درجة عشرين دقيقة.

«لا أستطيع ترك وجبتي الآن. وإلا ستحترق السباجيتي».

ظلت الفتاة صامتة.

«آسف حقًّا. ولكن أعتقد بأن طبخ السباجيتي عملية معقدة جدًّا».

كان الصمت يلقي بكلكله في الجهة الأخرى من الخط. وفي يدي تثلجت السماعة من جديد.

«هل بالإمكان الاتصال بي لاحقًا؟ أضفت مسرعًا.

- ألأنك منشغل الآن بتحضير السباجيتي؟ سألت.

- هو كذلك.

- هل تحضر السباجيتي لشخص ما، أو لنفسك فقط؟

- لنفسي فقط». قلت.

حبست أنفاسها فترة طويلة، ثم تنفست ببطء.

- اسمع، ليس لك علم بشيء. إنني في الواقع مهمومة. ولا أعرف ما أفعل.

- آسف لعدم قدرتي على مساعدتك.

- إنه مشكل مادي.

- آه.

- أود لو تعيد إليَّ المبلغ المالي الذي أقرضته إياه. ما كان عليَّ القيام بذلك، ولكنني فعلت».

- ظللت صامتًا لحظة، وفكري منشغل بالسباجيتي.

«أعتذر، قنت في النهاية، ولكن عليَّ أن أهتم بالسباجيتي...».

أطلقت ضحكة واهنة.

«مع السلامة. بلغ تحياتي إلى السباجيتي. آمل أن تكون لذيذة.

- مع السلامة». أجبت.

بعد أن وضعت السماعة في مكانها، رأيت أن دائرة الضوء تحولت إلى الطاطامي. وانتقلت بدوري إلى مركز الضوء، ثم عدت لمشاهدة السقف من جديد.

* * *

التفكير في السباجيتي التي تطبخ للأبد، ولا تنتهي، شيء حزين.

أشعر حاليًا ببعض الأسف. كان عليَّ أن أقـول للفتـاة إن حبيبها السابق لم يكن سـوى شـخص بـائس وذي ادعـاءات فنية، لكنه أجوف؛ مـتكلم بـارع، ولا أحـد يثـق فيـه. كانـت بالفعل متضايقة من قصة الـسلف. وكـيفما كانـت الظـروف، أعتبر بأنه يتعين دائمًا تسديد الدين.

أتساءل أحيانًا عن مصيرها، خصوصًا عندما أكون آخذًا في تناول السباجيتي. بعد أن أغلقتِ الخـط، هـل اختفـت إلى الأبد، وانغمرت في ظلال المساء على الساعة الرابعة والنصف؟ وهل أتحمل جزءًا من المسؤولية؟ أود لو فهمت هذا: فلم أكن أرغب في نسج علاقة مع أي كـان. كـان هـذا هـو الـسبب في قضاء كل وقتي في تحضير السباجيتي. وحيـدًا. في هـذا القـدر الضخم الذي قد يكـون بإمكـان احتـواء كلـب مـن فـصيلة الكلاب الألمانية.

Durum semolina

بعـض الـدقيق المـذهب المتحـدر مـن قمـح مـزروع في السهول الإيطالية.

هل كانت ستأخذ الإيطاليين الدهشة إذا ما علموا أن مـا كانوا يصدرونه سنة 1971، كانت في الحقيقة هي الوحدة؟

8

النافذة

هذا اليوم الأول من مارس،

عزيزتي...

آمل أن تكوني بخير.

الحرارة تلين من يوم لآخر. وأشعة الشمس باتت أخيرًا ربيعية.

شكرًا جزيلاً على رسالتك التي أدخلت على قلبي السرور عند استلامها ذاك اليوم. أعجبني كثيرًا المقطع المرتبط بالعلاقة بين شريحة اللحم وجوز الطيب. هنا نشعر بنكهة الحياة. ولقد تشكل لديَّ انطباع بأنني أرى مطبخًا بعطور دافئة، وأسمع صوت السكين يفرم البصل. مقطع مثل هذا يكفي لجعل الرسالة تطفح بالحياة. فقد أحدثت في قراءتها رغبة لا تقاوم

لأكل شريحة لحم، وذهبت في المساء نفسه إلى مطعم مجاور وطلبت تحضيرها. الواقع أن هذا المطعم يقترح ثمانية أشكال مختلفة من الهامبرجر. على الطريقة التكساسية، والكاليفورنية، والهاويية، واليابانية، إلخ... «الطريقة التكساسية» تعني شريحة لحم كبيرة بشكل خاص لا أكثر. لنراهن أن أهل التكساس سيفاجئون عند سماع هذا. «الطريقة الهاويية» تعني التزيين بشريحة الأناناس. و«الطريقة الكاليفورنية» ليس لديَّ فكرة عنها بالكل. أما فيما يخص الهامبرجر «على الطريقة اليابانية»، فكان مغطى بالفجل الأسود المفتت. كان المكان مزينًا بلباقة، والنادلات كلهنَّ لطيفات يرتدين المينيجيب.

وبرغم ذلك، لم أدلف إلى هذه المؤسسة لدراسة الزخرفة الداخلية، ولا لرؤية سيقان النادلات. بالعكس، جئت فقط لتناول شريحة لحم، ليس «على هذه الطريقة»، ولا «على تلك».

هذا ما بادرت بقوله للنادلة. «أريد فقط هامبرجرًا عاديًّا.
- آسفة، سيدي، فنحن لا نقدم إلا الهامبرجر على هذه الطريقة، أو على تلك».

لم أجد بطبيعة الحال أي سبب لمعاتبتها. لم تكن هي التي كانت تقوم بتسجيل الطلبات، ولم يكن من باب الإرضاء ارتداؤها لبذلة تكشف عن أعلى فخديها كلما نظفت إحدى الموائد. ومع ذلك، طلبت هامبرجر على الطريقة الهاويية،

بابتسامة عريضة. نصحتني بأدب، قائلة، ما عليك إلا أن تنزع قطعة الأناناس.

الواقع أننا نعيش في عالم غريب. فكل ما أريده هو شريحة لحم عادية، لكن أحيانًا تصبح رغبة بسيطة شيئًا مستحيل التحقق إلا على شكل شريحة لحم على الطريقة الهاويية بدون أناناس.

على فكرة، كانت شريحتك عادية، أليس كذلك؟ لقد منحتني رسالتك رغبة في تناول هامبرجر كل ما هو عادي جدًّا.

مقارنة بذلك، يبدو لي أن المقطع المتعلق بالآلات الأتوماتيكية لتوزيع تذاكر القطار سطحية شيئًا ما. فرؤيتك للأشياء مهمة، إنما المشهد يفتقد للحيوية بالنسبة للقارئ. لا تحاولي القيام بتحليل شديد الدقة، فالكتابة، في نهاية المطاف، هي الاكتفاء بما يوجد.

أمنحك على هذه الرسالة الجديدة نقطة إجمالية ب 70. فأسلوبك يتحسن شيئًا فشيئًا. أوصيك بالمثابرة وبالصبر. وأسعد مسبقًا باستلام بريدك المقبل. أتمنى ألا يتأخر الربيع.

حاشية: شكرًا جزيلاً على علبة الحلويات. لقد كانت لذيذة. لكن بما أن قاعدة شركتنا تمنع الإرسالات الشخصية خارج الرسائل، سأكون في غاية الامتنان لو تفاديت من الآن فصاعدًا مثل هذا النوع من الالتفاتات المحبوبة.

على كل حال شكرًا.

*

ظللت في هذا العمل مدة سنة. كنت في ذلك الإبان في الثانية والعشرين من عمري.

وبحكم تعاقدي مع شركة صغيرة باسم بان سوسايتي تقع بليداباشي، كنت أتقاضى أجر ألفي ين للرسالة الواحدة، وكنت أستلم ثلاثين رسالة في الشهر. الرسالة التي قرأتموها للتو هي مثال جيد على الطريقة التي كنت أجيب بها.

«أنتم أيضًا بإمكانكم كتابة رسائل ساحرة»، تلك هي عملة شركتنا. معدل الانخراط الشهري هو أن يرسل المنخرطون الجدد أربع رسائل في الشهر إلى بان سوسايتي، ونتكلف، نحن المصححين المحنكين، أو **pen master**، بإرجاع التصحيحات المناسبة للتأملات والنصائح المتنوعة، مثل تصحيحات الرسالة الواردة أعلاه. كنت طالبًا في قسم الأدب، وبعد أن قرأت إعلانًا صغيرًا للتوظيف على لوحة بالكلية، تقدمت لإجراء مقابلة التوظيف. ولأسباب مختلفة، قررت أخذ إجازة سنة من دراستي الجامعية. كان والداي قد أعلماني بأنهما سيقومان ابتداء من السنة الموالية، نتيجة لذلك، بتخفيض المبلغ المالي الذي يرسلانه إليَّ بسبب قراري ذلك. فجأة وجدتني أواجه مشكلة حاسمة لكسب قوتي اليومي.

وهكذا، قمت بإجراء المقابلة مع مشغلي القادمين، حيث تعين عليَّ تحرير بعض الجمل، وبعد أسبوع، استلمت وظيفتي. ثم قام المدربون خلال أسبوع بتلقيني مختلف تقنيات التصحيح، وبنصائح إلى المنخرطين، وأشياء مختلفة أخرى لم تكن صعبة على كل حال.

كان يعهد للنساء المنخرطات بمصحح محنك والعكس. كنت مسؤولاً عن أربع وعشرين عضوة في بان سوسايتي، تتراوح أعمارهنَّ ما بين أربعة عشر وثلاثة وخمسين عامًا، لكن في المعدل كان عمر هذه النساء ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين. بمعنى أن الأغلبية كانت أكبر مني سنًّا. في الشهر الأول، اختلط عليَّ الأمر. إذ كانت جل زبوناتي ذوات حنكة في فن التراسل، ويكتبن أحسن مني. ومن جهتي، لم أكن قد كتبت في حياتي رسالة تستحق أن تندرج في هذا الفن. انقضى شهر التجربة بطريقة ما، لكن ليس بدون حرق أعصاب، لكوني كنت على يقين بأن المنخرطات اللائي عهد إليَّ بهنَّ لن يتأخرن في المطالبة بمصحح محنك آخر، وهو حقهن المطلق بمقتضى قانون بان سوسايتي.

ومع ذلك، عند نهاية الشهر، لم يحتج شخص عن عدم رضاه على كفاءاتي في فن التراسل. بالعكس، وكما علمت من زملائي كانت حصة حظوتي عالية جدًّا. بعد ثلاثة أشهر، بدأت أقتنع بأن أسلوب المنخرطات كان يتحسن بفضل

توجيهاتي. كان ذلك غريبًا. فقد بدا أنهنَّ يثقن فيَّ كـ «أستاذ». وكنت متى أدركت هذا، كان ذلك يشجعني على تطويرِ نقدي للأسلوب ببساطة وبشكل عميق.

بدا لي ذلك مؤكدًا وأنا أفكر فيه ثانية اليوم. لكن في الواقع كانت كل هذه النساء يشعرن بالوحدة، وكل ما كن يرمنه في العمق هو الكتابة لشخص ما. الأدهى من هذا – في تلك الفترة، لم أستطع تصديق شيء ممكن من هذا القبيل- أنهن لم يجدن مَن يكتبن إليه. لم يكنَّ من تلك الطينة التي تكتب رسائل إعجاب لمنشط في الراديو. ما كنَّ يرغبن فيه هو علاقة شخصية. ولو كانت على شكل تصحيحات ونقد.

هكذا قضيت أولى عشرينياتي أتطوَّر مثل دب البحر وحيد الساق وسط حريم من الرسائل الودية.

كان أعضاء الشركة يرسلون إليَّ رسائل متنوعة جدًّا، من بينها ما هو مزعج، أو غريب، أو حزين. قبل مدة ليست بالقصيرة وللأسف، لم يكن مسموحًا لي بالاحتفاظ بأي من هذه الرسائل (يفرض علينا القانون إعادتها إلى الشركة)، بحيث لم أستطع فعلاً تذكر فحواها، لكنها كانت تسيل بالحيوية، وتطفح بتوصيفاتٍ أدق أحداث وجودها، وكذا بأحداث مهمَّة. وبرغم ذلك فالرسائل التي كانت هؤلاء النساء توجهنها إليَّ قد بدت باستغراب غير حقيقية لطالب في الواحد والعشرين، أو الثانية والعشرين، الذي كنته. كانت

تبدو لي رسائلهنَّ، في غالب الأحيان، خالية بالكل من الحقيقة، وفي حالات أخرى سخيفة تمامًا. لم يكن ببساطة افتقاري للتجربة في الحياة هو ما جعلني أشعر بهذه الأشياء على هذا النحو. اليوم أدرك ذلك: في جل الأحيان، عندما نكتب، فإن حقيقة الأشياء تبنى ولا تبث. وإنه من هنا ينشأ المعنى. بطبيعة الحال، كنت أجهل ذلك، والأمر نفسه بالنسبة للنساء. هذا واحد من الأسباب التي من أجلها كان كل ما يُضَمِّنه في رسائلهنَّ يبدو أمام عيني تافهًا بغرابة.

في اليوم الذي قررت ترك منصبي، عبرت كل المنخرطات اللائي كنت أرشد عن أسفهنَّ. أنا أيضًا، بمعنى ما، وبصريح العبارة، وإن كنت متقززًا من هذه المهمة المتمثلة في كتابة الرسائل باستمرار، قد تأسفت، إذ بدا لي أنه لن تسنح لي الفرصة مرة أخرى لرؤية أناس يكشفون أمامي عن أنفسهم بهذا الصدق.



على كل حال، وعودة إلى الهامبرجر، سنحت لي الفرصة لتذوق واحد أعدته واحدة من تلميذاتي بعناية (تلك التي أرسلت إليَّ رسالتها الأولى لتصحيحها).

لم تكن طفلة، كانت في الثانية والثلاثين. يعمل زوجها بإحدى الشركات اليابانية الكبرى الذائعة الصيت. في رسالتي

الأخيرة، أخبرتها، بأسف شديد بمغادرتي في نهاية الـشهر. وفي إجابتها دعتني للغذاء. أعدت لي هامبرجرا عاديًّا جدًّا، كتبـت قائلة. كان ذلك منافيًا لقانون الـشركة، لكنني قـررت بـدون تردد قبوله. فلا شيء يقف حجر عثرة أمـام فـضول شـاب في الثانية والعشرين.

كانت عمارتها تقع في الجهة المواجهة لخط أوداكيـو. شـقة مرتبة جيدًا، تناسـب تمامًـا زوجـين بـدون أطفـال. الأثـاث، والإنارة، وثيابها لم تكن حقًّا ذات جودة عالية، إلا أنها تنم عن ذوق ما. بدت لي أصغر من سـنها، واندهـشتْ لرؤيتـي أننـي كنت أصغر مما كانت تتوقع. اعتقدت أنني أكبر منها. كانـت القاعدة الأساسية في بـان سوسـايتي كالتـالي: عـلى المـصحح المحنك ألا يكشف عن سنه.

كلانا اندهش، ما جعل الجليد يذوب بسرعة بيننـا، مثـل مسافرين فوتا القطار نفسه، وقرَّبت بيـنهما الظـروف. تناولنـا الهامبرجرين، وشربنا القهوة. بخصوص القطار، كنـا نـشاهد بجلاء خط السكة الحديدية من خلال نافذة شقتها الواقعـة في الطابق الثاني. في ذلك اليوم، كان الجو جمـيلاً، وعـلى شرفـات الشقق المجاورة، كنا نرى الفَرْشات وقد وضعت كي تتهوى، والأقمصة منشورة كي تجـف. بـين الفينـة والأخـرى نـسمع شخصًا يضرب على الفرشة. حتى الآن مازلـت أتـذكر ذلـك الصوت. كان صخبًا قريبًا بغرابة.

كان الهامبرجر بهجة، والتتبيل ممتازًا، واللحم تارا وفق المراد تحت قشرته المشوية في أوانها، والصلصة مثالية. «بكل صدق، قلت لها، لا يمكنني إلا أن أعترف بأن هذا أحسن هامبرجر تناولته في حياتي، والحق أنني لم أتذوق مثله منذ زمن طويل جدًّا». كانت سعيدة بهذا الإطراء.

بعد القهوة، تحدثنا قليلاً عن حياتينا بالتناوب ونحن نستمع لإحدى اسطوانات بيرت باشاراه. الواقع أنني كنت حديث السن لحكي أشياء كبيرة، كانت هي التي حكت. عندما كانت طالبة، قالت لي، رغبتْ في أن تصبح كاتبة. كانت تعشق فرانسواز ساجان التي تحدثت لي عنها بإسهاب. كانت تحب بشكل خاص هل تحبون البراهمانيين؟ بالنسبة لي لم أكن أكره ساجان. على كل حال، لم أجدها عادية مثلما يدعي البعض. فليس ثمة قانون يجبر كل الروائيين على الكتابة مثل هنري ميللر أو جان جنيه.

- ولكنني عاجزة عن الكتابة، أكدت لي قائلة.

- لم يفت الأوان، قلت.

- لا، أعرف ذلك. أعرف أنني غير قادرة، زد على أنك أنت الذي أخبرني بذلك، قالت ضاحكة. لقد أدركت ذلك وأنا أكتب إليك كل هذه الرسائل. ليست بداخلي تلك القوة.

احمر وجهي وأنا أستمع إليها. لا يحدث لي هذا الأمر الآن. في العشرين من عمري كان وجهي يحمر بسهولة.

- ومع ذلك، ثمة صدق كبير في كل ما تكتبينه، قلت.

ظلت صامتة، وارتسمت على زاوية شفتيها ابتسامة. ابتسامة صغيرة.

- على كل حال، منحتني رسالتك رغبة غريبة في تناول هامبرجر.

- لا شك أنك كنت جائعًا في تلك اللحظة. قالت بصوت خافت.

- أجل. ربما.

مر قطار من تحت النافذة محدثًا فرقعات.

حين أشارت ساعتي إلى الخامسة، استأذنت بالرحيل.

- لا شك أن لك أمرًا آخر للقيام به. ربما عليك أن تحضري العشاء لزوجك قبل عودته؟

- دائمًا يعود متأخرًا، قالت. كان خدها مستندًا على يدها. لن يأتي قبل منتصف الليل.

- لا شك أنه مشغول جدًّا.

- أجل، قالت. ساد الصمت لحظة.

- أظن أنني حدثتك عن ذلك في إحدى رسائلي؛ يشق عليَّ أن أبلغ زوجي، كما تعلم. فلن يتفهم الأمر. عندما أتناقش معه، أشعر دائمًا بأنني أتكلم لغة غريبة.

لم أدر بما أجيب. لم أكن في تلك الفترة أفهم كيف يمكن للمرء العيش مع شخص لا يفهم ما نحس به.

- لكن، لا بأس. قالت بصوت خافت، وفعلاً، حسب صوتها، لم يكن الأمر يبدو جسيمًا. شكرًا على التراسل معي طيلة هذه المدة. لقد كنت سعيدة. وشخصيًّا، ساعدتني كثيرًا كتابةُ كل هذه الرسائل لك، قالت.

- أنا أيضًا، أسعدني ذلك، أجبت قائلاً، لكن بصراحة لم أعد أتذكر جيدًا ما نوع الرسائل التي كانت تكتبها إليَّ، ولا ما الذي كانت تعبر عنه.

ظلت صامتة لحظة، ونظرها مثبت على الساعة الحائطية، وكأنها تتحقق من الطريقة التي يمر بها الزمن.

- ماذا تنوي فعله بعد إنهاء دراستك؟ سألتني.

أجبتها بأنه ليست لديَّ أي فكرة حتى ذاك الحين. لم أكن أعرف ما سأقوم به. ابتسمتْ من جديد.

- برأيي عليك أن تقوم بشيء له علاقة بالكتابة. فالرسائل التي كتبتها إليَّ، مبديًا فيها نقدك، رائعة. كنت

أنتظرها بفارغ الصبر. الحق يقال. وهذا ليس تملقًا. ربما كنت تكتبها فقط بهدف تأدية عملٍ، لكن بالنسبة لي، في هذه الرسائل، كنت أشعر بتأثر حقيقي. حتى الآن أحتفظ بها كلها، وبين الحين والآخر، أخرجها، وأعيد قراءتها.

- شكرًا. قلت. شكرًا أيضًا على الهامبرجر.

* * *

مرت عشر سنوات على هذه القصة، وكلما مررت بالقطار على مقربة من عمارتها، على خط أوداكيو، أتذكر ذاك الهامبرجر القضيم. أشاهد العمارات المحاذية للخط، وأتساءل عن أي من هذه النوافذ كانت نافذتها. أتذكر المشهد الطبيعي الذي كنا نشاهده من نافذتها. وأحاول تحديد الموقع الذي يوجد فيه. لكن عبثًا.

ربما تكون قد رحلت من هذه العمارة. أما إذا ما زالت تقطن بها، فإنني أتخيلها خلف النافذة، وهي تستمع أبديًا لاسطوانة بيرت باشراه.

أتساءل إن كان عليَّ أن أضاجعها.

في الواقع، إنه موضوع هذا النص.

لا أعرف الجواب. بل حتى اليوم، لا أعرف دائمًا. بعد كل هذه السنوات، وهذه التجارب المتراكمة، تظل هناك

أشياء أجهلها. ببساطة، من نافذة القطار، أرفع بصري نحو ما يبدو لي نافذة شقتها. أحيانًا تبدو لي، كيفما اتفق، أي من نوافذ العمارة نافذتها، وأحيانًا أخرى، لا تشبه أي نافذة نافذتها. على كل حال، فللعمارة عدة نوافذ.

9

صفصاف أعمى، امرأة نائمة

أغمضت عيني لأستوعب جيدًا عطور الرياح. نسيم شهر مايو، منتفخ مثل فاكهة بقشرة خشنة، ولباب دسم بحبات وافرة. ينتشر اللباب في الهواء، ناثرًا الحبات الشبيهة برصاص خافت كان يصل إلى يدي العاريتين. لم أكن أشعر بأي ألم.

«كم الساعة؟» سألني ابن عمي. ولكونه أقصر مني بعشرين سنتمترًا، تعين عليه رفع نظره ليكلمني.

نظرت إلى ساعتي.

«العاشرة وعشرون دقيقة.

- هل ساعتك مضبوطة؟

- أجل، أظن».

أمسك بمعصمي ليتأكد بنفسه. كانت أصابعه الرقيقة الرطبة قوية بغرابة.

- قل لي. هل اشتريتها بثمن باهظ؟

- كلا. بثمن بخس»، أجبته وأنا أنظر ثانية إليها.

ظل صامتًا. نظرت إليه خلسة. بدا مرتبكًا. كانت أسنانه البيضاء بين شفتيه وكأنها عظام متحجرة.

إنها بثمن بخس، كررت قائلاً، وأنا أنظر إليه، وأنطق كل كلمة بعناية. ثمن بخس، لكنها مضبوطة».

هز رأسه في صمت.

* * *

لم يكن ابن عمي يسمع جيدًا بأذنه اليمنى. فبعد دخوله إلى المدرسة الابتدائية بوقت قصير، تلقى ضربة بكرة البيزبال، نتج عنها تغيير في قدراته السمعية. مع ذلك، ويوميًّا، لم تفضِ هذه الحادثة إلى صعوبة محددة. كان بمقدوره الذهاب إلى المدرسة بشكل عادي، ويمارس حياته بطريقة عادية. في الفصل، كان يجلس دائمًا في الصف الأول على اليمين، بحيث تكون أذنه اليسرى الجيدة متجهة نحو المعلم. وكانت نتائجه

المدرسية جيدة. لكن المشكل الذي كان يطرح تمثل في فترات خلالها كان يسمع نسبيًّا الضجات في الخارج، وفي أخرى لا. وكأنما يحدث نوع من التناوب، شيء يشبه نوعًا ما شكل المد والجزر. بشكل خاص، وربما مرتان في كل سنة، يحدث له أن يفقد السمع تقريبًا نهائيًّا من هذه الأذن أو تلك. وكأن الصمت المطبق لأذنه اليمنى قد تكثف لدرجة سحق الأصوات التي تصل لأذنه اليسرى. في هذه الفترات، بطبيعة الحال، يكون عاجزًا عن ممارسة حياة عادية، ويصعب عليه الذهاب إلى المدرسة. لم يجد الأطباء تفسيرًا يقدمونه له حول أسباب هذه التغييرات، لكونهم لم يصادفوا مثل هذه الحالة. لهذا، لم يصفوا له أي علاج بالطبع.

«أن تكون ساعتك باهظة الثمن لا يعني أنها تضبط الوقت، قال ابن عمي، وكأنما يروم إقناع نفسه. الساعة التي كانت لديَّ من قبل، كانت غالية الثمن، لكنها دائمًا مختلة. فقد أهديت لي عند انتقالي إلى الإعدادية، إلا أنني أضعتها في نهاية العام. وهكذا، لم أعد أملك أي ساعة. فقد رفضوا شراء واحدة أخرى لي.

- أن يظل المرء بدون ساعة، فذاك غير عملي، قلت له.

- نعم؟

- أليس صعبًا أن يعيش المرء بدون ساعة؟ كررت قائلاً

وأنا أحدق فيه مليًّا.

- بلى، ليس صعبًا، أجاب وهو يهز رأسه. ليس كما العيش وحيدًا في جبل. بوسعي دائمًا أن أسأل شخصًا آخر عن الوقت.

- معك حق.

بعد ذلك، ساد الصمت بيننا لحظة. كنت أعرف أنه وجب عليَّ أن أضيف شيئًا آخر، كلام لطيف. أن أحاول التخفيف عنه قبل الوصول إلى المستشفى. لكن كانت قد مرت خمس سنوات منذ لقائنا الأخير. خلال هذه السنوات، كان هذا الطفل الصغير ذو التسع سنين قد بات مراهقًا ذا أربع عشرة سنة، وأنا في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين. هذا الفاصل الزمني رفع بيننا حاجزًا نصف شفاف أسأنا اجتيازه. وحتى عندما كان لديَّ شيء مهم أبلغه به، ينعقد لساني. وعند كل مرة كنت أتردد فيها، وأبتلع الكلمات التي كانت على طرف لساني، كان يرفع رأسه، وينظر بانزعاج. ويميل قليلاً بأذنه اليسرى نحوي.

«كم الساعة؟ سألني من جديد.

- العاشرة وتسع وعشرون دقيقة».

عندما وصلت الحافلة في النهاية، كانت العاشرة واثنين وثلاثين دقيقة.

بالمقارنة مع الحافلات التي كنت أستقل للذهاب إلى المدرسة، كانت هذه الحافلة من النوع الجديد تمامًا؛ مثلاً الزجاج الأمامي عريض جدًّا. الحافلة في مجملها تذكر بقاذفة ضخمة تم نزع جناحيها. ومكتظة أكثر مما كنت أتصور. لم يكن أحد من الركاب واقفًا في الممر، لكننا لم نجد مقعدين فارغين جنبًا إلى جنب. ظللنا واقفين بالقرب من الباب الخلفي. على كل حال، لم تكن المسافة طويلة. غير أنني تساءلت عبثا عن هذا العدد الضخم من المسافرين في تلك الساعة. تنطلق هذه الحافلة من محطة إحدى شركات السكك الحديدية الخاصة، وتواصل سفرها على طول الطريق الصاعد في الروابي – هناك كانت منطقة المنازل الفردية- ثم تعود إلى نقطة الانطلاق؛ وطوال هذه المسافة لم يكن ثمة شيء خاص، لا انجذاب سياحي، ولا بناية لافتة للنظر. كانت ثمة بالأحرى بعض المدارس، ما يفسر تدفق التلاميذ عند ساعات معينة. لكن في غمرة الصباح، توقعت أن تكون الحافلة فارغة

أمسكت أنا وابن عمي بالقضبان أو بالأحزمة الجلدية. بدت الحافلة الجديدة وكأنها خرجت للتو من المصنع. السطح المعدني من اللمعان، بدون خدوش، بحيث تنعكس عليه صورة الوجه. وتغليفات المقاعد هائلة، بل كانت حتى لأصغر البراغي سمة التفاؤل والتغطرس، تلك المواصفات التي تمتلكها الآلات الجديدة.

كل ذلك- الحافلة جديدة، والعدد الهائل للركاب- تركني في حيرة. هل تم تغيير المسافة منذ أن استقللتها آخر مرة؟ تفحصت بدقة داخل الحافلة، وشاهدت المنظر الطبيعي من خلال النوافذ. المنظر نفسه كما المرة السابقة، منظر المنطقة السكنية الهادئة.

«قل لي، هل نحن في الحافلة الصحيحة؟ سألني قلقًا. فمنذ أن صعدنا إليها، والحيرة بادية على وجهي دونما شعور مني.

«لا تشغل بالك، أجبته، في محاولة لأطمئن جزئيًا نفسي. نحن لم نخطئ الطريق. على كل حال، ليس هناك طريق آخر.

- هل كنت تأخذ هذا الخط عند ذهابك إلى المدرسة؟ سألني.

- أجل.

- وهل كنت تحب المدرسة؟

- ليس إلى حدٍّ كبير، أجبته بصدق. غير أن ذلك سمح لي بالالتقاء برفاقي. على العموم لم يكن في الأمر مشقة».

تأمل ابن عمي جوابي.

«هل ما زلت ترى هؤلاء الأصدقاء؟

- لا. لم نلتقِ منذ مدة طويلة، قلت له وأنا أنتقي كلماتي.

- لماذا؟ لماذا توقفت لقاءاتكم؟

- لأننا نعيش بعيدين عن بعضنا البعض».

لم يكن ذلك صحيحًا، لكنني لم أجد جوابًا آخر.

كان يجلس إلى جانبي رهط من الأصدقاء في سن متقدم. حوالي خمسة عشر شخصًا. أدركت فجأة أنهم السبب في اكتظاظ الحافلة. بشرتهم سمراء بفعل الشمس، بل حتى القفا، وكانوا أقوياء البنية. أغلب الرجال يرتدون أقمصة سميكة – تلائم الجولة. أما بالنسبة للنساء، فكن يرتدين وزرة بسيطة جدًّا، بدون زخارف. كلهم يضعون على ركبهم أكياسًا تحمل على الظهر – ذلك النوع المستعمل في الرحلات القصيرة. والغريب أن هؤلاء المسنين كانوا يتشابهون إلى حدٍّ بعيد. وكأنما تم فتح جارور مليء بعينات متشابهة، ومرتبة بشكل جيد.

مسألة محيرة. فلم يكن ثمة رحلة يمكن القيام بها في ضواحي خط هذه الحافلة. وإذن، إلى أين كانوا ينوون الذهاب؟ فكرت في السؤال، ولم أجد أي تفسير.

«أتظن أن هذا سيؤلمني، أعني علاج اليوم؟ سألني ابن عمي.

- أوه، لا أعرف. لم يقدموا لي شرحًا مفصلاً.

- هل زرت طبيب أذن من قبل؟».

أومأت برأسي نفيًا. لا. حاولـت أن أتـذكر، لكـن، لا. لم أزر البتة طبيب الحنجرة والأنف والأذن (ORL).

«هل أحسست بالألم في المرات الأخرى؟».

- ليس كثيرًا، أجاب قائلاً، وهو كئيب. بطبيعة الحال، لا أعني أنني لا أشعر مطلقًا بالألم. ثمة أوقات أشعر فيها ببعض الألم، لكن ليس آلمًا فظيعًا.

- مثل هذا الألم هو ما ستشعر به اليوم. وحسب ما قالت أمك، لن يكون العلاج مختلفًا إلى حدٍّ ما عن المرات الفائتة.

- ولكن كيف سأشفى إذا كان دائمًا العلاج نفسه؟

- لا أعرف. قد يحدث ما لم يكن متوقعًا.

- مثلما حين تفتح قنينة؟»

رمقتـه بنظـرة خاطفـة عـلى مـرأى منـه. لم يكـن يـروم السخرية. واصلت حديثي.

«قد يكون العلاج فعالاً مع طبيب آخر. أحيانًا، نحـصل على نتائج إيجابية بفضل تغيير طفيف. أرى أن عليك ألا تفقد الأمل بهذه السرعة.

- لا. لن أفقد الأمل.

- ولكن هل مللت؟

- أجل. قال وتنهد. صعب هو الإحساس بالخوف. يعني أن الأشد مشقة هو الخوف. فالألم الذي أتصوره أكثر من الألم الذي أشعر به الآن. هل تفهم ما أود قوله.

- نعم، أفهم ذلك».

* * *

حدثت عدة أشياء ذاك الربيع. وشاءت الظروف أن أغادر الوكالة الصغيرة للإشهار بطوكيو حيث اشتغلت لمدة سنتين. في الفترة نفسها تقريبًا انقطعت صلتي بفتاة كنت أخرج معها منذ أيام الجامعة. بعد شهر، توفيت جدتي بسبب سرطان المعي. ولأول مرة خلال خمس سنوات، عدت إلى كوبي، لحضور مراسم الدفن. لم أكن أحمل معي سوى جراب صغير. في البيت، وجدت غرفتي كما تركتها. الكتب التي كنت قد قرأت مرتبة جيدًا على الرفوف، والسرير الذي كنت أنام عليه ظل في مكانه مرتبًا. مكتبي والاسطوانات القديمة التي كنت أستمع إليها سنوات قبل ذلك، كل شيء كان في موضعه، إلا أن كل شيء كان متصلبًا، بدون لون ولا بالرائحة التي عهدت. ظل فقط الزمن الذي لا يقاوم.

كنت أنوي العودة إلى طوكيو بعد يومين أو ثلاثة على دفن جدتي، في محاولة لاكتشاف ميادين جديدة للعمل، تحذوني أيضًا رغبة في الرحيل إلى مسكن جديد. حاجة إلى تغيير الجو.

وبقدر ما كانت الأيـام تمـر، كنـت أشـعر بملـل في التحـرك. بشكل أكثر دقة، وحتى ولو كنت أرغب في تغيير المكان، فقـد كنت عاجزًا. ظللـت لابـدًا في غرفتـي، أسـتمع لاسـطواناتي القديمة، وأعيد قراءة الكتب التي قـرأت مـن قبـل، وأحيانًـا أتمشى على عشب الحديقـة. لم أكـن أرى شخـصًا، ولا أكلـم أحدًا ما خلا أفراد عائلتي.

مرة، زارتنا خـالتي، وطلبـت منـي اصـطحاب ابنهـا إلى مستشفاه الجديد. قالت لي إنـه كـان عليهـا مرافقتـه، غـير أن طارئًا حال دون ذلك. كان المستشفى يقع بالقرب من ثانويتي، وبالتالي فإنني أعرف المكان. ولما لم يكن لـديَّ شيء أقـوم بـه، فقد كان صعبًا أن أرفض بلباقـة. قـدمت لي مظروفًـا بداخلـه مبلغ مالي لتناول وجبة الغذاء.

وإذا كان ابن عمي قد غير المستشفى؛ فلأن العلاج الـذي وصفوه له لم يثبت نجاعته. والأسوأ أن دورية ضـعف سـمعه قد تفاقمت. ولما احتجت خالتي على الطبيب، لمح لها أن حالة ابنها قـد تكـون مرتبطـة بالوسـط الأسري أكثـر مـن مرضـه الفعلي. استتبع ذلك نزاعًا بينهما. الواضـح أن خـالتي لم تكـن تتوقع حـلاً لمـشاكل ابنهـا الـسمعية فـورًا مـن خـلال تغيـير المستشفى ببساطة. صراحة، لا أحد كان له هذا الأمل. وحتـى إذا لم يتم الاعتراف بذلك علانية، فقد تأكد للكل بأن أذنه لـن يحالفها الشفاء.

كان ابن عمي يسكن بالقرب منا، لكن فارق عشر سنوات لم يقرب بيننا. كنت، خلال الاجتماع العائلي، دائمًا أرافقه أو نلعب معًا بشكل محدود. ومع ذلك، اعتقد الجميع أننا نشكل «ثنائيًا مناسبًا». كانت أسرتانا تلاحظان درجة ارتباطه بي، وإلى أي حد، من جهتي، كنت أدل-له. لم أتمكن من إدراك الأسباب لمدة طويلة. إلا أن الآن، وأنا أراه وهو يميل برأسه، وأذنه اليسرى باتجاهي، وجدت ذلك مؤثرًا بشكل غامض. كان هذا النوع من الخرق لديه، مثل صخب مطر ممتد ذات مرة، يجد صداه في دواخلي. هكذا بدأت أدرك لماذا كان أهلنا يرغبون في اجتماعنا.

* * *

تجاوزت الحافلة سبع أو ثماني محطات عندما نظر ابن عمي إليَّ بوجه قلق.

«هل مازال الطريق بعيدًا؟

- أجل، مازال. فالمستشفى كبير، ولن تفوتنا الفرصة».

كنت أشاهد، مشيحًا بوجهي عنه، الريحَ تدلف عبر النوافذ المفتوحة للحافلة، وتهز بلين قبعات المسافرين المسنين، أو تجدل مناديلهم الملتفة حول أعناقهم.

مَن كان هؤلاء؟ وإلى أين يتوجهون؟

«قل لي، هل ستشتغل في شركة أبي؟» سألني ابن عمي.

نظرت إليه مندهشًا. يدير عمي مطبعة كبيرة بكوبي. لم أتصور قطعًا هذه الإمكانية، زد على أن لا أحد لَمَّح لذلك.

«لا أحد كلمني في الأمر، أجبته. لماذا تطرح هذا السؤال؟».

احمر وجهه. «اعتقدت إمكانية ذلك فقط، قال. سيكون جيدًا، أليس كذلك؟ هكذا ستظل معنا، وسيسعد الجميع».

في الحافلة، أعلنت الرسالة المسجلة مسبقًا عن المحطة القادمة، لكن لا أحد ضغط على الزر. ولا أحد كان ينتظر في هذه المحطة ليصعد.

«ولكن عليَّ أن أعود إلى طوكيو، لديَّ أشياء يتوجب القيام بها هناك»، قلت له.

أومأ برأسه، وظل صامتًا.

لم يكن لديَّ أي شيء مخصوص. لكن لم يكن باستطاعتي البقاء هناك.

كانت الحافلة تصعد العقبة، وكان عدد المساكن يتقلص. بدأت بعض الأغصان الكبيرة تلقي بظلالها الكثيفة على الطريق. تجاوزنا منازل ذات أسلوب غربي، مطلية، وبجدران واطئة من الأمام. صار الجو شديد البرودة. وعند كل

منعطف، نشاهد البحر في التحت يتوارى في الحال. تأملنا، أنا وابن عمي، هذا المنظر الطبيعي إلى أن وصلنا إلى المستشفى.

* * *

«ستأخذ الفحوصات بعض الوقت. بإمكاني أن أدبر أمري لوحدي، قال ابن عمي. انتظرني في أي مكان تريده».

بعد أن حييت الطبيب بإيماءة صغيرة، غادرت قاعة الفحوصات، وتوجهت إلى الكافيتريا. لم أكن قد تناولت فطوري، كنت جائعًا. ولا شيء على قائمة المأكولات جذبني. اكتفيت بطلب قهوة.

كانت صبيحة أسبوعية. لم يكن في الكافيتريا سوى أسرة واحدة. الأب في حوالي الخامسة والأربعين، يرتدي منامة زرقاء مخططة، وينتعل خفين بلاستيكيين. والأم بمعية فتاتين توأمين جئن لزيارته. الصغيرتان مرتديتان فستانين أبيضين متشابهين، تشربان بمظهر حازم عصير البرتقال، وهما منحنيتان إلى الأمام على المائدة. لم تكن جروح الأب أو مرضه تبدو بليغة. وبرغم ذلك كان يظهر على الجميع القلق الشديد.

على الجهة الأخرى من النافذة امتدت حديقة بأرض خضراء. صخب منتظم كان يتناهى من دوارة أوتوماتيكية تشتت على العشب سحابة بخارية. حلق طائران بذيل طويل، وبصوت يصم الأذن، أمام فوارة الماء، ثم اختفيا بسرعة. على

مبعدة من الأرض الخضراء، كانت هناك ملاعب كرة التنس خالية، تم تجريدها من شباكها. في الجهة الأخرى، صف من شجر الدردار يبين المحيط من بين تشابكها. كانت شمس مستهل الصيف تلمع هنا وهناك على صفحة الأمواج الصغيرة. والريح تَصفِق أوراق الدردار الفتية، مشتتة في بخار رقيق رذاذ الدوارة المنتظم.

انتابني إحساس بأنني رأيت هذا المشهد من قبل، منذ مدة طويلة. حديقة بأرض خضراء فسيحة، وصغيرتان تشربان عصير البرتقال، وطائران بذيل طويل يعبران المنظر الطبيعي، متجهين نحو وجهة مجهولة، وملاعب تنس بدون شباك، وفي جهةٍ قصيةٍ البحرُ. كان، حقًّا، وهمًا مسكونًا بحقيقة حية قوية. ومع ذلك كنت أعرف أن الأمر يتعلق بوهم. فقد كانت هذه أول زيارة لي للمستشفى.

مددت رجلي، وأخذت نفسًا عميقًا، وأغمضت عيني. في الظلام بدت لي كتلة بيضاء، مثل جسم صغير يعاينه الميكروسكوب، يتمدد بصمت ثم يتقلص. يغير شكله، ويتفكك، ويتشتت، ثم يتركب في جسم واحد.

* * *

قبل ثماني سنوات، ذهبت إلى مستشفى آخر. مؤسسة صغيرة بالقرب من البحر. من خلال نوافذ الكافيتريا، لا

يمكن مشاهدة سوى أزهار الدفلى. كان مستشفى قديمًا بدا أنه مشبع برائحة مطر مستديمة.

كانت عشيقة أحد الرفاق قد أجريت لها عملية، وجئنا لزيارتها في عطلة الصيف خلال سنتنا الثانية في الثانوية.

لم يكن في العملية في حد ذاتها شيء استثنائي، فقد تعلق الأمر بتقويم أحد أضلاعها الذي كان مقوسًا إلى الداخل بشكل طفيف منذ الولادة. ولم يستلزم الأمر إجراء مستعجلاً، بل كما يقال، خير البر عاجله. مرت الأمور على خير ما يرام، إلا أن الأطباء فضلوا الاحتفاظ بالفتاة في المستشفى لعشرة أيام تحسبًا لأي طارئ. جئنا، أنا ورفيقي، على متن دراجة نارية، نوع ياماها cc125. قاد رفيقي ذهابًا، وأنا إيابًا. طلب مني مرافقته، «وإلا لن تطأ رجلي المستشفى»، أسر إليَّ.

توقف عند مخبز للحلويات بجنب المحطة لشراء الشوكولاتة. كنت أقبض على حزامه بيد، وبالأخرى أمسك علبة الشوكولاتة. تبللت قمصاننا بالعرق بفعل حرارة ذلك اليوم، وكانت الرياح تجففها في الحال. كان صديقي يغني بصوت فظيع كل ما يخطر على باله وهو يقود. أتذكر اليوم أيضًا رائحة العرق. توفي بعد ذلك بفترة قصيرة.

*   *   *

كانت صديقته مرتدية منامة زرقاء، فوقها كساء على شكل جلباب خفيف يصل إلى ركبتيها. جلسنا ثلاثتنا إلى

المائدة في الكافتيريا. وَدَخَّنَّا سجائر شورت هوب، وشربنا الكوكا، وتناولنا مثلجات. من شدة جوعها، التهمت دغنوتين رش عليهما سكر صقيل، وشربت كأس شوكولاتة متوجًا بكمية كبيرة من القشدة. ومع ذلك لم يبدُ عليها الشبع.

«انتبهي، ستصيرين بدينة عندما تغادرين المستشفى! قال لها صديقي، وقد بدا مصدومًا.

- كلا، إنني بحاجة إلى استعادة وزني، لا غير»، أجابته وهي تمسح أصابعها المدهونتين بالفطائر بمنديل ورقي.

أثناء تحادثنا، كنت أشاهد من النافذة أزهار الدفلى الهائلة، وكأنها في غابة. وأسمع أيضًا صخب الأمواج. كان درابزين النافذة صدئًا بفعل الرياح البحرية الدائمة. من السقف تدلت مروحة ذات طراز عتيق، تنشر في كل أرجاء الصالة هواء ساخنًا رطبًا. كانت الكافتيريا برائحة المستشفى، حتى الأطعمة والمشروبات بدت برائحة المستشفى. كان على صدر منامة الفتاة جيبان، في واحد منهما يبين قلم جاف مذهب. في كل مرة تنحني، أرى من خلال فتحة، على شكل V، سترتها نهديها المسطحين والأبيضين لم تلونهما الشمس بالسمرة.

* * *

فجأة تجمدت أفكاري. حاولت استعادة ما حدث بعد ذلك. كنت قد شربت الكوكا، وشاهدت أزهار الدفلى،

وألقيت نظرة على نهدي الفتاة. عقب ذلك، ما الذي حدث؟

غيرت جلستي على الكرسي البلاستيكي، وخدي على يدي، في محاولة للحفر في طبقات ذاكرتي. كان الأمر مثل كشط سدادة فلين بحد سكين ضامر.

لم ألتفت، حاولت تخيل الأطباء الذين كانوا يشقون صدرها بأصابعهم المُقَفَّزة، محاولين تقويم انحناءة ضلعها. غير أن ذلك كان أكثر خيالاً، شيء شبيه بحكاية رمزية.

بالتأكيد. بعد ذلك تحدثنا عن الجنس. على كل حال صديقي هو مَن تحدث. إنما ماذا قال بالضبط؟ ربما حكى شيئًا عني. عن كيف حاولت التقرب من فتاة، وكيف أخفقت. كان جوهر القصة سخيفًا بالكل. بيد أن مبالغته في الحكي جعلت صديقته تنفجر ضاحكة، ضحكت بدوري. كان ماهرًا في سرد القصص.

«لا تجعلني أضحك، من فضلك! قالت له، مقطبة وجهها بشكل خافت. يؤلمني صدري عندما أضحك!

- في أي جهة تشعرين بالألم؟» سألها صديقي.

ضغطت على مكان في منامتها، عند نهدها الأيسر فوق قلبها. أطلق صديقي مزحة أخرى، وضحكت ثانية.

* * *

نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، غير أن ابن عمي لم يظهر بعد. اقترب وقت الغذاء ، وبدأت الكافيتريا تمتلئ شيئًا فشيئًا. جميع أصناف الهرج والأصوات تمتزج مثل دخان يغزو تدريجيًّا المكان. عدت ثانية إلى حقل ذاكرتي، ورأيت مرة أخرى القلم الجاف الصغير المذهب الذي كان في جيب الفتاة في جهة الصدر.

- أجل، أتذكر الآن...

استخدمتْ هذا القلم لخربشة شيء ما على المنديل الورقي. رسم. كان المنديل فاترًا مما جعل رأس القلم يحدث ثقبًا في الورقة. ومع ذلك، فقد وُفقت في رسم رابية عليها منزل صغير بداخله امرأة وحيدة، نائمة. أُحيط المنزل بأجمة صفصاف أعمى. كان هذا الصفصاف هو ما نومها.

«صفصاف أعمى، ما هذا؟ سألها صديقي.

- إنها أشجار مثل تلك.

- لم يحدث أن سمعت بهذا.

- بالطبع. أنا التي ابتكرتها، قالت مبتسمة. الصفصاف الأعمى مليء بلقاح قوي جدًّا. يدخل ذباب صغير جدًّا محملاً بهذا اللقاح إلى أذني المرأة وينومها».

كانت الفتاة قد أخذت منـديلاً ورقيًّـا جديـدًا ورسـمت عليه صفصافة عمياء تقريبًا بحجم دغـل صـحراوي. كانـت الـشجرة مزهـرة، والزهـور محاطـة بـأوراق خـضراء داكنـة. الأوراق؟ لا. بـل أذيـال عظايـة مجتمعـة في باقـة. هـذه «الصفصافة العمياء» لا تشبه إطلاقًا صفصافة حقيقية.

«هل لديك سيجارة؟» سألني صـديقي. قـدمت لـه مـن فوق المائدة علبة الشورت هوب كلها لزجـة بـالعرق، وعلبـة الثقاب.

«الصفصافة العمياء تبدو صغيرة شيئًا ما منظورًا لهـا مـن الخارج، لكن جذورها تغوص عميقًـا في الأرض، أوضـحت قائلة. الواقع أنها عندما تصل إلى حجم ما، تتوقف عن النمو، لكن جذورها تستمر في التمدد تحـت الأرض، وكـأنها تغـذيها الظلمة.

- وينقل الذباب اللقاح إلى غاية أذني المـرأة، ثـم يلـج إلى الـداخل وينومهـا، أضـاف صـديقي الـذي جهـد في إشـعال سيجارته بأعواد الثقاب الرطبة.

- وبعد، ما مسار الذباب؟

- يركن في جسد المرأة، ويأكـل لحمهـا، بطبيعـة الحـال، أجابت الفتاة.

- يأكلها بشراهة»، ختم صديقي قائلاً.

أجـل. هـذا الـصيف، نظمـتْ قـصيدة مطولـة بـصدد الصفصاف الأعمى، وعلقت لنا عليها. كان ذلك هو الواجب المنزلي الوحيد الذي أنجزته خلال عطلة الصيف.

كانت قد كتبت محكيًا انطلاقًا من حلـم، ونظمـت هـذه القصيدة الطويلة خلال الأسبوع الذي قضته على السرير. قال لها صديقي إنه يرغب في قراءتها، لكنها رفـضت لأنهـا أرادت إدخال بعض التفاصيل. بـدل ذلـك، خططـت هـذا الرسـم، وقدمت لنا الخطوط العريضة للنص.

شاب يتسلق الرابية لإنقاذ المرأة الغارقة في النـوم بـسبب لقاح الصفصاف الأعمى.

«هذا أنا، بالتأكيـد!» صـاح صـديقي متعجبًـا. حركـت الفتاة رأسها نفيًا.

«كلا، لست أنت».

- هل أنت متأكدة؟

- أجل، أجابت، وعلى وجهها الجد. أجهل لماذا أعـرف، ولكنني على يقين تام. أنت غاضب، أليس كذلك؟

- «طبعًا. دمدم صديقي»، بنصف تفكه.

كان الشاب يحاول شق طريقه وسط أدغـال الصفـصاف الأعمى الكثيفة، يتقدم ببطء نحو قمة الرابية. في الحقيقة، كان أول رجـل يـشق هـذا المنحـدر منـذ أن تكـاثر هنـاك هـذا

الصفصاف الأعمى. قبعته مغروزة في رأسه إلى حد عينيه، وبيده يطرد جحافل الذباب، محاولاً التقدم بجهد جهيد. كان يروم رؤية المرأة النائمة، وإيقاظها من نومها الطويل العميق.

«لكن في الوقت الذي يبلغ القمة، يكون الذباب قد التهم المرأة كلها، هل هذا ما سيحدث؟ سألها صديقي.

- أجل، بمعنى ما. أجابته عشيقته.

- أن يلتهمها الذباب، بمعنى ما، بالفعل، فهذه قصة أجدها حزينة، معنى ما.

- أي نعم. أقرت الفتاة، متأملة مليًّا. ثم التفتت إليَّ:

«وأنت، ما رأيك؟

- أرى أنها قصة حزينة».

* * *

أشارت الساعة إلى الثانية عشرة ونصف عندما عاد ابن عمي وبيده كيس أدوية، ويظهر عليه التشوش. تجسدت قامته عند مدخل الكافتيريا. مر بعض الوقت قبل أن يراني، ويتقدم باتجاه المائدة التي كنت أجلس إليها.

مشى متصلبًا. وكأنه لا يقوى على التوازن. جلس أمامي، وكأنما إلى حد تلك اللحظة كان من الانشغال بحيث نسي أن يتنفس، أخذ نفسًا عميقًا.

«كيف مرت الأمور؟ سألته.

- مم»، دمدم. انتظرت عبثًا التتمة للحظات.

- هل أنت جائع؟ استطردت.

أومأ برأسه إيجابًا بصمت.

«أتريد أن نأكل هنا؟ أم أن نأخذ الحافلة ونتناول طعام الغذاء في المدينة؟ ماذا تفضل؟

ألقى نظرة مرتابة على الصالة وقال:

«هنا، من الأحسن».

ذهبت لشراء تذكرتي الوجبتين. طلبت وجبة اليوم. في انتظار ذلك، كان ابن عمي يتأمل في صمت من خلال النافذة المنظر الطبيعي نفسه الذي شاهدته. البحر - صف الدردار - ودوارة السقي.

في المائدة المجاورة، كان رجل وامرأة في منتصف العمر، بأناقة عالية، يتناولان سندويشيهما، ويتحدثان عن أحد أصدقائهما نزيل المستشفى والمصاب بسرطان الرئة.

كان قد توقف عن التدخين قبل خمس سنوات، لكن الأوان قد فات. كان يبصق الدم عندما يستيقظ في الصباح. طرحت المرأة أسئلة، وقدم الزوج أجوبة. بشكل ما، أوضح لها

قائلاً، للسرطان ميل لأن يكون خلاصة مجمل حياة مَن يصاب به.

تألفت وجبتنا من هامبرجرين، وسمك مقلي، وسلطة، وخبز. أكلنا في صمت، ونحن جالسان الواحد مقابل الآخر. أثناء ذلك، واصل الزوجان حديثهما الدائر حول موضوع السرطان. كيف ولماذا يتكون هذا الداء. ولأي سبب يكبر. لماذا لا يوجد أي علاج طبي فعَّال.



«إنها مع ذلك القصة نفسها أينما ذهبت، أسر إلي ابن عمي بنبرة سطحية وهو يتأمل يديه. دائمًا يطرحون عليك الأسئلة نفسها، ويصفون لك العلاج نفسه».

جلسنا على مقعد أمام أبواب المستشفى في انتظار الحافلة. بين الفينة والأخرى، تهز الريح الأوراق الخضراء الفتية فوق رؤوسنا.

«أحقًا لا تسمع البتة شيئًا في بعض الأحيان؟ سألته.

- نعم، أجاب. أحيانًا لا أسمع شيئًا.

- وبماذا تحس؟»

أطرق برأسه، وبدأ يفكر.

«فجأة لا صوت يصل إلى سمعي. ويتعين عليَّ انتظار بعض الوقت لاستعادة وعيي. خلال ذلك لا أسمع شيئًا، وكأنني في عمق بحر عميق وعلى أذني غطاءان. يستمر ذلك على هذا الحال بعض الوقت، خلاله لا تسمع الأذنان أي شيء، لكن لا يتعلق الأمر بالأذنين وحدهما، فليستا سوى الجزء المسؤول عن ذلك. بسبب هذا لا يصلني أي صوت.

- إحساس بشع؟

أومأ ابن عمي بحركة عصبية سريعة برأسه.

«لا أستطيع أن أقول لك لماذا، ولكن لا، ليس بالإحساس البشع. بالطبع، عدم السماع يفضي إلى كل أنواع السلبيات».

«هل رأيت من قبل فيلم جون فورد، إبادة قلعة الأباش؟ سألني قائلاً.

- أجل، من مدة طويلة.

- بثه التلفزيون مؤخرًا. إنه فيلم مهم جدًّا.

- أجل.

- في البداية، يظهر كولونيل جديد. يصل إلى القلعة الواقعة بعيدة في الغرب. يأتي قبطان عجوز لاستقباله. هذا القبطان هو جون واين. والكولونيل يجهل وضعية القلعة في

هذه المناطق من الغرب. وحول القلعة انتفاضةُ الهنود».

أخرج ابن عمي من جيبه منديلاً أبيض مطويًّا بشكل جيد، ومسح شفتيه.

«يلتفت الكولونيل نحو جون واين، ويقول له: «وأنا قادم إلى هنا، رأيت عددًا من الهنود في طريقهم إلى القلعة». يرد عليه جون واين بهدوء أعصاب كعادته: «ممتاز، أيها الكولونيل، إذا كنت شاهدت الهنود في الطريق، فهذا يعني أنهم ليسوا هنا». لا أتذكر بالضبط الرد الدقيق. باختصار، رد من هذا القبيل. ماذا تفهم من هذا؟».

لم أتذكر ردًّا بهذا الشكل في إبادة قلعة الأباش. خيل إليَّ بأن هذا الحوار قد كان معقدًا جدًّا بالنسبة لفيلم لجون فورد. لكنني كنت قد شاهدته منذ زمن بعيد.

«حسنًا، أعتقد أنه كان يريد أن يقول شيئًا مثل: إذا كان بوسع العالم أن يراهم، فالوضع بالتأكيد ليس خطرًا للغاية. عمومًا، هذا ما أتصور. لا أعرف جيدًا».

قطب ابن عمي حاجبيه.

«ولا أنا. لا أفهم حقًّا المعنى. في كل مرة يشفق فيها أحد على أذني، أتذكر هذا الرد: «إذا كنت شاهدت الهنود في الطريق، فهذا يعني أنهم ليسوا هنا»».

ضحكت.

«هل هذا غريب؟ سألني ابن عمي.

- أجل، ضحك بدوره. لم أره يضحك منذ مدة. بعد ذلك، استطرد قائلاً، وكأنه يود البوح إليَّ بسر:

«قل لي. هل تحب أن تفحص أذني؟

«تريد أن أفحص أذنك؟ رددت قائلاً باندهاش.

- فقط ما يمكن أن تراه من الخارج.

- موافق. ولكن لماذا أنا؟

- لا أعرف، رد قائلاً محمرَّ الوجه.

- حسنًا. قلت له. سأرى».

أدار ظهره، ومال بأذنه اليمنى إليَّ. كان لها شكل لافت للنظر، ذات حجم صغير بشحمة ملساء ممتلئة، مثل مادلين خرجت للتو من الفرن. لم أكن قد رأيت حتى تلك اللحظة أذنًا بهذه الحدة. يفضي الفحص الدقيق للأذن البشرية إلى الاعتقاد، بالمقارنة مع الأعضاء الأخرى، بأنها ذات بنية عجيبة. بكل أنواع الانحناءات، والتقوسات، والحدبات. ربما التطور هو ما صاغها على هذا النحو، من فرط البحث عن أفضل الشروط القابلة لالتقاط الأصوات، والحفاظ على الداخل. وهذا الجدار الملوي المحيط بها يجعل ثقب الأذن ينفتح مثل مدخل مغارة سرية معتمة.

تمثلت عشيقة صديقي، وذباب صغير جدًّا يعشعش في أذنها. كان ينقب في ظلمتها الساخنة، وفي أرجله الست لقاح بطعم السكر، وينهش لحمها الناعم الوردي الشاحب، ويمص إفرازاته، ويضع بيوضًا متناهية في الصغر داخل دماغها. إنما لا يمكن رؤيته، ولا سماع رفرفة أجنحته.

«حسنًا، يكفي هذا»، قال ابن عمي.

دار واستعاد جلسته على المقعد.

«هل رأيت، إذن، شيئًا غريبًا؟

- لا شيء غير طبيعي من الخارج حسب ما رأيت.

- بالنسبة لك... يبدو كل شيء بخير؟

- بالنسبة لي، أذنك عادية تمامًا.

بدا مستاءً. ربما كان لا يجب عليَّ أن أكلمه بهذا الشكل.

- هل تألمت أثناء العلاج؟

- لا. كما العادة. قلَّبوا المكان نفسه بالطريقة نفسها. أحسست أنهم أفسدوه من فرط ما قلبوا فيه. أحيانًا يبدو لي أنها لم تعد أذني».

«الرقم 28، قال لي ابن عمي بعد بضع لحظات. الرقم 28، إنها حافلتنا، أليس كذلك؟».

كنت غارقًا في أفكاري. رفعت رأسي، وشاهدت الحافلة تخفف من سرعتها عند منعرج الساحل. كانت من النوع القديم الذي لازلت أحتفظ بذكراه. في الواجهة الأمامية، علقت لوحة عليها «28». حاولت أن أنهض من المقعد، لكن شق عليَّ أن أقف، وكأنني محبوس وسط تيار عنيف، وأعضائي لا تطاوعني.

في تلك اللحظة، كنت أفكر ثانية في علبة الشوكولاتة التي كنا أحضرناها خلال زيارتنا إلى المستشفى في أمسية ذاك الصيف. كانت الفتاة قد رفعت الغطاء بفرح لتجد دزينة الشوكولاته قد ذابت. التصقت بعضها ببعض، وبالورق، وبالغطاء.

في الطريق إلى المستشفى، توقفنا، أنا وصديقي، عند الشاطئ. تمددنا على الرمل، وتحدثنا. تركنا العلبة، خلال تلك المدة، تحت حر شمس أغسطس. وبسبب عدم اكتراثنا، وأنانيتنا، فسدت الشوكولاتة وضاعت. كان علينا توقع ما سوف يحدث، وقول شيء، من جانبه أو من جانبي، كيفما كانت الأحوال. غير أن تلك الأمسية انصرمت دون أن نشعر بأي شيء.

اكتفينا بتبادل بعض المزح السخيفة قبل أن نفترق. وتركنا أيضًا الرابية المكسوة بالصفصاف الأعمى.

أمسك ابن عمي بذراعي بقوة شديدة.

«هل أنت بخير؟»

أعادتني كلماته إلى الواقع، ونهضت. هذه المرة تمكنت من الوقوف دونما مشكل، وأحسست ثانية بهبوب هواء شهر مايو. كنت في حيز زمني قصير أقف في مكان غريب، معتم حيث الأشياء التي كنت أشاهد ليس لها وجود، وحيث الأشياء اللامرئية لها وجود. في لمح البصر، توقفت الحافلة الحقيقية رقم 28 بالقرب منا. فُتِح بابها الحقيقي. صعدت إليها متوجهًا إلى مكان آخر.

وضعت يدي على منكب ابن عمي، وقلت له:

«إنني بخير».

10

الرجل السابع

«كادت موجة هائلة أن تقضي عليَّ في فترة ما بعد الظهيرة من شهر سبتمبر وكنت آنذاك في العاشرة مـن عمـري»، شرع الرجل السابع يحكي بصوت هادئ.

كان آخر مَن يحكي في تلك الليلة، حيث عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة. وكان يتناهى للأشخاص الذين اجتمعوا في دائرة عصف الـريح في الـدياجي بالخـارج، جهـة الغـرب. والزوابع تهز بدقة أوراق الأشجار في الحديقة، وتطقطق زجاج النوافذ قبل أن تذهب أصوات ريح الشمال الحادة، مثل صـفير يصم الآذان، وتعوي بعيدًا جدًّا.

«كانت حقًّا موجة مـن نـوع خـاص، استطرد الرجـل. موجة عملاقة بالتأكيـد، لم أر لهـا مثـيلاً في حيـاتي. كـادت أن تجرفني، غير أنها ابتلعت كل ما كان ثمينًا في نظري، وألقت به

في عالم آخر. كنت بحاجة إلى وقت طويل كي أشفى من هذه التجربة. سنوات رائعة ليس لها بديل».

كان الرجل السابع في الخمسينيات من عمره، طويلاً، نحيفًا، بشارب، وبندبة صغيرة بدت غائرة، بالقرب من عينه اليمنى، ربما تلقاها بشفرة خنجر؛ وبخصلات بيضاء مجعدة ومنتفشة تتخلل شعره القصير هنا وهناك. وعلى وجهه تعبيرُ مَن لا يتمكن من إيجاد العبارات اللازمة. برغم ذلك، بدا مظهره هذا لصيقًا به، كما لو أنه جزء منه. كان يرتدي قميصًا أزرق بلا زخارف تحت سترته المصنوعة من التويد الرمادي، ولا يتوقف عن وضع يده على ياقته. لا أحد كان يعرف اسمه ولا مهنته.

نظف الرجل السابع حنجرته. وخلال لحظات، ابتلع الصمت كلماته الأولى، وظل الآخرون، دون أن يضيفوا أدنى تعليق، ينتظرون تتمة حكيه.

* * *

«كانت موجة، في حالتي هذه. أما في حالتكم، فلست قادرًا على أن أقول لكم ما قد تكون بطبيعة الحال. قد يحدث أن تتخذ، في حالتي، مظهر موجة هائلة. جاءت يومًا، دفعة واحدة بلا سابق إنذار، وتجسدت في شكل موجة عملاقة. مدمرة.

«نشأت في مدينة ساحلية صغيرة بعمالة S. مدينة لا أهمية لها، وحتى لو قلت لكم اسمها، لن يفيدكم الأمر في شيء. كان أبي طبيبًا محليًّا ما جعل طفولتي تمر في ظروف ميسورة. تحضرني، من تلك الفترة، ذكرى أعز أصدقائي، طفل سأدعوه ك. كان يسكن بالقرب منا، ويدرس في القسم الأسفل من قسمي. كنا في الواقع مثل أخوين؛ نذهب معًا إلى المدرسة، ونعود معًا، ونلعب دائمًا سويًّا. لم يحدث طوال تلك الصداقة أن وقع بيننا خصام، علمًا بأنه كان لي أخ يكبرني بست سنوات. لكن فارق السن، واختلاف شخصيتينا جعلا التقرب بيننا صعبًا. الحميمية الأخوية الحقيقية عرفتها مع ك.

«كان ك. هزيلاً بسحنة شاحبة، ووجه مليح وكأنه وجه فتاة. وكان مصابًا بعاهة في النطق منعته من التكلم بسهولة. الذين لا يعرفونه، يعتقدون أحيانًا أنه متخلف عقليًّا. بسبب بنيته الجسمانية الضعيفة، كنت ألعب دور المدافع عنه في البيت كما في المدرسة. كنت قويًّا ورياضيًّا، ويعترف بتفوقي الأطفال الآخرون. ولئن كنت أحب مرافقة ك، فلأنه كان له، قبل كل شيء، قلب حنون سليم. لم يكن إطلاقًا متخلفًا عقليًّا، لكن بسبب عاهته في النطق، لم يكن يحصل على نتائج جيدة في المدرسة، وإنما بالكاد يحصل على المعدل في جل المواد الدراسية. ورغم ذلك، فقد كان ممتازًا في الرسم. ينجز بالريشة أو بالقلم مخططات من الحيوية بحيث يعجب بها الأستاذ نفسه. وقد

حصد كل أصناف الجوائز في المسابقات. أنا على يقين تام بأنه كان سيصبح رسامًا مشهورًا لو أنه واصل نشاطه الفني في فترة رشده. وأشد ما كان يستهويه هي المناظر الطبيعية. يجلس لساعات على الشاطئ يرسم أو يصبغ. كنت أجلس إلى جنبه في جل الأحيان، أشاهد الحركات اليقظة والدقيقة لفرشاته، متسائلاً كيف تمكن في بضع دقائق من إبداع هذه الأشكال وهذه الألوان النابضة بالحياة، حيث، في تلك اللحظة، لم يكن ثمة سوى ورقة بيضاء. الآن أدرك أنه كان بلا ريب عبقريًّا.

«في سبتمبر إحدى السنوات، ضرب إعصار قوي منطقتنا. وأعلن الراديو أن تلك العاصفة ستكون ولا شك أخطر العواصف خلال السنوات العشرة الأخيرة. أُغلقت المدارس، وأسدلت كل متاجر المدينة ستائرها لمواجهة الإعصار. استيقظ أبي وأخي عند الفجر، وطافا بالبيت حيث ثبتا بقوة صفق الشباك فيما كانت أمي منشغلة في المطبخ بإعداد الوجبات مسبقًا. ملأنا القناني والقرب بالماء، ووضعنا أشياءنا الثمينة في أكياس الظهر في حالة إخلاء محتمل. كانت الأعاصير بالنسبة للبالغين نكبة، وتهديدًا تعين عليهم مواجهته كل عام، أما بالنسبة لنا، نحن الصغار البعيدين عن هذه المتاعب، فلم يكن ذلك سوى سيرك كبير، ومناسبة رائعة للمرح.

«بعد منتصف النهار، تغير لون السماء فجأة. كان ثمة شيء غريب وخيالي في هذا التحول. ظللت في الفراندا أحدق في السماء إلى أن بدأت الريح تعوي والمطر يهطل على البيت محدثًا أصواتًا مدهشة بلا صدى، وكأن حفنات رمل تلقى في الهواء. اجتمعنا في غرفة معتمة بعد أن تم تثبيت آخر شباك، مشدودين إلى الأخبار الجديدة التي يبثها الراديو الذي أذاع بأن تلك العاصفة لن تكون مصحوبة بكمية مهمَّة من الأمطار، لكن الرياح العنيفة أحدثت عدة خسائر، بكشطها سقوف المنازل، وإغراقها للمراكب. وكان قد ترتب عن ذلك، من قبل، عدة قتلى أو جرحى بسبب الحطام الذي حملته الرياح. تكررت الإنذارات دونما توقف لجعل السكان يراوحون مساكنهم. أحيانًا كان منزلنا يهتز تحت وقع طقطقة مهولة، كما لو أن يد عملاق هائل تهز جنباته. وفي أحيان أخرى، يتناهى إلينا صوت ضربات مروعة على الشبابيك. لا شك أنها بعض الأشياء المقتلَعة التي تصطدم بها وتُسحَق. بحسب أبي، فقد كانت شظايا القرميد الذي نزعته الريح من سقف بيوت الجيران. تناولنا في الغذاء كريات الأرز والأومليت الملفوف الذي كانت أمي قد حضرته. وتابعنا الاستماع إلى الراديو، في انتظار توجه الإعصار إلى جهة أخرى.

«لكن بدا أن الإعصار الحلزوني لم يبتعد. إذ فقد، وفق الأخبار، سرعته لدى بلوغه إلى سواحل عمالة S. وفي تلك

اللحظة كان متجهًا صوب مناطق الشمال الشرقي بسرعة رجل يركض براحة بال. إلا أن الريح كانت ترسل زمجراتها العنيفة دون هوادة، وكأنها تسعى إلى اجتثاث كل ما ينمو على الأرض ونقله إلى أقاصي العالم.

«انقضت، فيما أعتقد، ساعة على هذا النحو، منذ أن كانت الريح تعصف بتلك القوة. وعلى حين غرة، ساد هدوء تام. كل شيء كان من الصمت بحيث بات بإمكاننا الاستماع إلى تغريد عصفور من بعيد. فتح أبي الشباك بحذر، وألقى نظرة على الخارج. كانت الريح قد سكتت، والمطر قد توقف. كانت بعض الغيوم الرمادية الكثيفة تتنقل ببطء، وبعض الفجوات في السماء الزرقاء تبين هنا وهناك. وأشجار الحديقة تقطر.

«نحن في عين الزوبعة، أوضح أبي قائلاً. سيستمر الهدوء بهذا الشكل خلال لحظات، ربما لربع ساعة، أو عشرين دقيقة، ثم تعود العاصفة كما من قبل».

«سألته إن كان باستطاعتي الخروج لحظات. وافق شرط عدم الابتعاد بعيدًا.

«إنما بمجرد ما أن تعصف الريح، أضاف قائلاً، عليك أن تعود حالاً».

خرجت وبدأت اكتشافي. كان صعبًا تصور حدوث عاصفة هوجاء خلال دقائق معدودات من قبل. رفعت بصري إلى السماء: «عين الزوبعة» الهائلة، تحدجنا بنظرتها الباردة. والحق أن هذه «العين» لم تكن موجودة بطبيعة الحال. كنا بالضبط في قلب الزوبعة، منطقة الهدوء المؤقت.

وفيما كان الكبار يتفحصون الخسائر التي تكبدتها مساكنهم، اتجهت صوب الشاطئ. الطريق مكسو بالحطام وبأغصان الشجر الآتية من الحدائق المجاورة، من بينها أغصان كبيرة من شجر الصنوبر يصعب على رجل أن يحملها بمفرده. في كل الأرجاء شظايا القرميد متناثرة هنا وهناك، وسيارات بواقياتها الزجاجية كسرتها الحجارة. كان هناك أيضًا عش قد ألقي به وسط الطريق، وكأن يدًا عملاقة قد هبطت من السماء لسحق كل ما وجدته في متناولها. هكذا كان المشهد. شاهدني ك.، وخرج بدوره. سألني عن وجهتي. أجبته بأنني أرغب في جولة على الشاطئ. لم يعقب، وتبعني. انضم إلينا كلبه الصغير الأبيض.

بمجرد ما أن تهب الريح، علينا أن نعود إلى البيت» قلت له. أومأ ك برأسه بالإيجاب بصمت.

لم يكن الشاطئ يبعد عن البيت سوى بحوالي مائتي متر. على طول الشاطئ شيد كاسر الأمواج بالإسمنت، حاجزًا تقريبًا بطول قامتي التي كانت لي في تلك الفترة، يتم اجتيازه

بواسطة درج صغير. اعتدنا المجيء هنا تقريبًا كل يوم بقصد اللهو، لدرجة أن المكان قد ألفنا. لكن في تلك اللحظات، وفي عين الزوبعة، بدا المكان بشكل آخر: اللون المختلف للسماء والبحر، والصدى المختلف للأمواج، والرائحة المختلفة للمياه، بل حتى امتداد الشاطئ. جلسنا لحظة على الحاجز تائهين في تأمل صامت. ورغم أننا نوجد في مركز الإعصار، فقد كان البحر يتموج بهدوء. وكغير عادتها كانت تخوم الأمواج بعيدة جدًّا عن الشاطئ، بحيث امتدت الرمال أمامنا على مدى البصر. لم يحدث مرة أن كان الساحل الرملي بتلك الرحابة حتى في فترة الجزر، وكأنه غرفة شاسعة تخلو من أي أثاث، ماعدا صف من الحطام المختلف.

نزلنا من كاسر الأمواج، ومشينا على طول الشاطئ اللامتناهي، متفحصين بقايا الحطام. لعب بلاستيكية، نعال، قطع خشب كانت بدون شك أجزاء الأثاث، ملابس، قناني بأشكال غريبة، صناديق تحمل نقوشًا أجنبية، وأشياء أخرى ذات طبيعة غير محددة. كأنما في متجر حلويات هائل. المؤكد أن العاصفة قد أعادت هذه البقايا من مكان قصي. وفي كل مرة يثير شيء ما فضولنا، نلتقطه، ونتفحصه بعناية، يشاركنا في ذلك كلب ك الصغير، بذيله المهتز، بشم كل قطعة بنشاط.

لم يستغرق مكوثنا في الشاطئ أكثر من خمس دقائق عندما أدركت فجأة أن الأمواج قد اقتربت بشكل خطر. من غير

صخب، ولا سابق إنذار حتى، كان البحر يمد خلسة ألسنته الطويلة السائلة إلى حدود أرجلنا. لم أكن أنتظر البتة أن تكون الأمواج من الرشاقة بحيث توشك أن تدركنا. فقد كبرت بالقرب من هذه السواحل، وحتى لو كنت لا أزال طفلاً، فقد عرفت إلى أي درجة يمكن أن يكون البحر مرعبًا. كنت أدرك الوحشية المفاجئة التي يداهم بها، وأحاذر بعدم المغامرة بعيدًا عن تخومه. ورغم ذلك، فقد انزلقت الأمواج بمكر إلى داخل المنطقة الآمنة. ثم بشكل خفي، تراجعت، وظلت بعيدة. والأمواج التي لعقت نعلي بدت مسالمة تمامًا؛ أما المويجات اللطيفة فكانت تغسل رمال الساحل. لكن شيئًا مشؤومًا يكتنفها قد جمد الدم في عروقي، كما لو أنني لمست جلد ثعبان. كان خوفي حقيقيا وبلا قرار، وبالحدس أدركت أنها كانت حقيقية. لم أكن مخطئًا. فقد كانت الأمواج كائنات حية تخطط بدقة لحملي. شعرت وكأنها غول عملاق، يفترس اللحم البشري، قد جعلني أحد أهدافه، يتربص بي في السهل المعشب، حالمًا باللحظة التي يمزقني فيها إربًا إربًا بأنيابه الحادة. كان علي أن أهرب.

التفت نحو ك.، وصحت: «أنا ذاهب!» كان يبعد عني بحوالي مترين. أدار ظهره إليّ، وانحنى إلى الأمام وهو يتفحص شيئًا ما. كنت قد صرخت بكل ما أملك من قوة، على ما أعتقد، لكن يبدو أنه لم يسمعني، أو ربما منعه انشغاله باكتشافه

من سماع صراخي. ذاك كان سلوكه: حالما يأسره شيء ما، ينسى الأشياء الأخرى. أو ربما لم يكن صوتي من القوة التي أردت. أتذكر أنه بدا لي غير مسموع، وكأنه لشخص آخر.

ثم سمعت دويًا هائلاً بدا لي على وقعه الأرض ارتجت. في الواقع كان هناك أولاً صوت آخر غريب، صوت يشبه قرقرة رهيبة، وكأن كمية هائلة من الماء قد انفجرت من حفرة من تحت الأرض. استمرت هذه البقبقات المنتظمة لفترة، ثم توقفت قبل أن يتناهى إلى سمعي ذاك الدوي المحزن. حتى في تلك اللحظة لم يرفع ك رأسه، واصل تفحصه بشدة لشيء ما عند قدميه، مفتونًا. لا شك أنه لم يسمع أي شيء. كيف حدث أن مثل ذاك الصوت المزلزل لم يثر انتباهه؟ لست أدري. أو حتى ولو بدا ذلك غريبًا، فربما كنت الوحيد القادر على سمع ذاك الدوي، دوي ذو طبيعة خاصة. زد على أنني لاحظت أن الكلب الصغير الأبيض لم يبد قلقًا بالكل، في حين، وكما تعرفون، أن للكلاب حاسة سمع حساسة جدًّا.

فكرت في الركض نحو ك. والإمساك بذراعه، وسحبه بعيدًا عن هناك. كان ذلك هو الحل الوحيد. كنت أعلم أن الموجة ستتدفق، وك. لا يعرف هذا. كانت الأشياء واضحة في ذهني، ومع ذلك، وجدتني أعدو مضطربًا في الاتجاه المعاكس. هربت بمفردي إلى الحاجز الواقي. وأعتقد أن ما دفعني إلى هذا التصرف هو الخوف الشديد. خوف أفقدني الصوت،

وأطلق ساقيَّ للريح. كنت أطير فوق الرمال المرنة نحو الحاجز، وحين بلغته، التفت وصحت من جديد باتجاه ك.: «احذر! الموجة آتية!» هذه المرة، استعاد صوتي حجمه. وأدركت أن الدوي قد اختفى. سمعني ك. ورفع رأسه. كان الأوان قد فات. اندفعت موجة هائلة، تشبه ثعبانًا رأسه منتصبة، نحو الشاطئ. موجة لم ترها عيني من قبل، قد يقارب علوها علو عمارة بثلاثة طوابق. تقدمت بصمت (أو على الأقل، فيما أتذكر، كانت كذلك) وارتفعت خلف ك. حاجبة عنه السماء. نظر لحظة باتجاهي، بمظهر مَن لا يفهم ما يحدث. وكأنما أدرك شيئًا ما، التفت نحو الموجة، واستعد للركض. لكن فات أوان الهرب. في اللحظة الموالية، طوته الموجة. واصطدم من الأمام وكأنما من قبل قاطرة منطلقة بسرعة فائقة دونما شفقة.

تدفقت الموجة بعنف على الشاطئ بألف انفجار؛ تكسرت وارتدت بألف انفجار. بقاياها طارت في الهواء ثم هجمت على الحاجز حيث كنت أقف. كان بإمكاني تجنب ضرباتها بالاحتماء بكاسر الأمواج. وحدها ملابسي تبللت بالرذاذ. وقفت من جديد على الحاجز، وجلت ببصري على الشاطئ. إلا أن الموجة كانت قد انسحبت، يرافقها صياح متوحش، وتراجعت عائدة إلى البحر، وكأن أحدًا ما، في الجانب الآخر من العالم، يسحب بساطًا هائلاً. لم يظهر أثر ل

ك. على الشاطئ، ولا للكلب. وبدا قاع المحيط أجرد بعد أن انسحبت الأمواج بعيدًا، وجف البحر. أما أنا فبقيت وحيدا، متجمدًا على الحاجز.

عاد الصمت ليغطي من جديد كل شيء؛ صمت بدون أمل بالكل، وكأن الأرض قد أخفت الصراخ نفسه. كانت الموجة قد طوت ك.، وابتعدت بمسافة مهمَّة. تسمرت هناك في مكاني، متسائلاً عما يتعين عليَّ فعله. هل أنزل ثانية إلى الشاطئ؟ فربما ك. يرقد في جهة ما تواريه الرمال... بيد أنني قررت البقاء على الحاجز. كنت أعلم، بالتجربة، أن مثل هذا الصنف من الموج العاتي عادة ما يتكرر مرتين أو ثلاث.

لست متأكدًا من المدة الزمنية التي يستغرقها ذلك - ربما عشر أو عشرون دقيقة من فراغ حزين... - عندما، وبالضبط كما توقعته، أتت موجة أخرى ضخمة جدًّا. كان ثمة هدير مذهل اهتزت له أرجاء الأرض، ثم توقفت الضوضاء، واستعدت الأمواج لتضرب الساحل. مثل المرة الأولى بالضبط، انتصبت الموجة أمامي، حاجبة عني السماء، مثل جرف عنيد. لكن هذه المرة، لم يكن لي من مهرب. ظللت واقفًا على الحاجز، وكأنني ممغنط، أحدق في الكتلة السائلة، منتظرًا هجمتها. كان لديَّ إحساس بلا جدوى الهرب في الوقت الذي غاب فيه ك. أو ربما وبكل بساطة شلني الفزع. لا أتذكر هذه اللحظات بوضوح.

كانت هذه الموجة الثانية بحجم قوة الموجة الأولى، أو ربما أكثر. ومن علو كبير فوق رأسي انهارت ببطء، وتلاشى شكلها، مثل سور من الآجر ينهار شيئًا فشيئًا. وكانت من الدهشة بحيث لم تكن موجة بالفعل، إذ بدت شيئًا آخر آتٍ من عالم غريب أبعد من هنا، متقمصة بالصدفة شكل موجة. استعدت في دواخلي للحظة التي ستطويني فيها العتمة. لم أغمض عيني. أتذكر أنني سمعت قلبي يخفق بحدة لا تصدق.

غير أنها توقفت في اللحظة التي وصلت أمامي. فجأة وكأنها خارت قواها، وفقدت ديناميتها، وظلت هناك بحجمها الضخم معلقة في الفضاء، ثم تبددت في صمت. وفي ذروتها، داخل لسانها الشفاف الفظ، شاهدت ك. بجلاء.

قد يستحيل على البعض منكم تصديقي. لن أقول لهم شيئًا آخر. أنا أيضًا أجد صعوبة في تقبل هذه الأحداث. ولست قادرًا على تفسير ما رأيته بطريقة مُرضية، لكنني أعرف أن ذلك لم يكن وهمًا ولا هلوسة. إنني أعرض عليكم بصدق ما حدث – ما حدث بالفعل. كان جسد ك. نائمًا يطفو في جانب من قمة الموجة، وكأنها تحتويه كبسولة شفافة. لم يكن هذا وحسب، فقد كان ك. ينظر باتجاهي، ويبتسم. هناك وتحديدًا أمامي وبالمقدار الكافي الذي يجعلني ألمسه، كان يوجد صديقي، صديقي ك. الذي طوته الموجة قبل لحظات. كان

يبتسم لي، إنما لم يكن الأمر يتعلق بابتسامة عادية، بل ابتسامة عريضة امتدت حرفيًّا من الأذن إلى الأذن. وكانت عيناه الباردتان، والمجمدتان مصوبتين نحوي. لم يكن ك. الذي كنت أعرف. كانت ذراعه اليمنى متمددة باتجاهي، وكأنه يحاول الإمساك بيدي، ويسحبني إلى العالم الذي ينتمي إليه الآن. ما كان يفصلنا سوى قيد أنملة وتلامس يده يدي. ولما لم يحدث ذلك، فقد ابتسم ك. ثانية، ابتسامة عريضة مثل سابقتها، ابتسامة تشبه التكشيرة.

* * *

يبدو أنني فقدت الوعي في تلك اللحظة، والذي أتذكره بعد ذلك، أنني وجدتني على السرير في مستشفى أبي. ما إن استعدت وعيي، حتى نادته ممرضة، وجاء مسرعًا. جس نبضي، وفحص بؤبؤي. حاولت تحريك ذراعي، لكن لم أستطع رفعها. حرارتي مرتفعة، وذهني مضبب. ظلت الحرارة مدة. «لقد نمت ثلاثة أيام»، قال أبي. أحد الجيران الذي عاين كل المشهد هو مَن حملني إلى البيت. في حين لم يتم العثور على جثة ك. وددت أن أقول شيئًا لأبي، كان لدي ما أقوله له، غير أن لساني الفاتر والمنتفخ انعقد. شعرت بأن مخلوقًا غريبًا قد استقر داخل فمي. سألني أبي عن اسمي، لكن قبل أن أتذكر مَن أنا، أغمي عليَّ من جديد، وطوتني الظلمة.

ظللت في الفراش مدة أسبوع، لا أتغـذى إلا بالـسوائل. تقيأت عدة مرات، وداهمتني نوبات الهذيان. فيما بعـد، قـال لي أبي إن حالتي قد كانت من الخطورة بحيث أوجس خيفـة مـن أن أصاب بعاهة مستديمة في جهازي العصبي بسبب الصدمة والحرارة المرتفعة. إلا أنني استعدت عافيتي شيئًا فشيئًا – عـلى الأقل فيزيولوجيًا. أما حياتي فلم تعد كما كانت عليه من قبل.

لم يُعثر على ك. ولا على كلبه. عادة، حـين يغـرق أحـد في هذه المنطقة، يُلقى بالجثة، بعد أيـام، في خلـيج صـغير يقـع في الجهة الشرقية من بيتنا. إلا أن ذلك لم يحدث مع ك. لاشـك أن الأمواج العاتية جرفته بعيدًا جـدًّا في عـرض البحـر بحيـث لم تتمكن من الظهور على الشاطئ. المؤكد أنها هبطت إلى القاع، وافترستها الأسـماك. ظلـت الأبحـاث متواصـلة لمـدة طويلـة بفضل تعاون صيادي المنطقة. الفـشل كـان حلـيفهم. فبـدون جثمان، كان من المستحيل إجراء مراسـيم الـدفن. أمـا والـداه اللذان كاد الحزن الشديد يذهب بعقلهما، فظلا يجوبـان طـول الشاطئ وعرضه، أو يلزمان البيت، ويرتلان السوترا.

ورغم هول الحزن، لم يحقدا عـليَّ لكـوني قـدت ابـنهم إلى الشاطئ في غمرة الإعصار. كانا يـدركان درجـة المحبـة التـي كنت أكنها له، والحماية التي كنـت أحوطـه بهـا، كـما لـو أنـه شقيقي. أما والداي فقد أجمعا أمرهما على عدم إثارة الموضـوع في حضوري.

بيد أنني كنت أعرف الحقيقة. كـان عـليَّ أن أنقـذ ك. لـو حاولت. كـان عـليَّ أن أعـدو نحـوه، وأمـسكه مـن ذراعـه، وأسحبه بعيدًا عن الموجة القاتلة. المحتمـل أنهـا كانـت قريبـة جدًّا، لكن عندما أستعرض شريط الأحداث في ذاكرتي، أشعر دائمًا بأنه كان في مقدوري إنقاذه. مع ذلـك، وكـما أشرت مـن قبل، فالخوف الذي شلني، جعلني أتخلى عنه وأنجو بجلـدي. وما ألمني أكثر كون والداه لم يعاتباني، وكـون الجميـع حـاذروا عدم التلفظ بكلمة عما حدث. لزمني مدة طويلة جدًّا لأشـفى من الصدمة النفسية، وانقطعت عـن المدرسـة لعـدة أسـابيع، كنت خلالها لا آكل سوى بعـض اللقـيمات، وأراوح فـراشي، محدقًا في السقف.

كان ك. دائمًا هناك، في قمة الموجة، مكشرًا في وجهي، يده ممدودة تدعوني إليها. لم أقو على طرد هذه الصورة مـن ذهنـي. وعندما أحاول النوم، تظهر لي في الأحـلام- باسـتثناء أن ك.، في أحلامي، كان يخرج مـن الكبـسولة التـي تحتويهـا الموجـة، ويمسك بمعصمي، ويزج بي فيها.

* * *

حلم آخر يعاودني. أراني أسبح في البحر بعد ظهـيرة يـوم صيف صحو، أقوم بسباحة على البطن براحة البال بعيدًا عـن الشاطئ؛ الشمس تدفئ ظهري، والماء عذب. على حين غـرة، يمسك أحـد بـرجلي اليـسرى. أشـعر بقبـضة صـقيعية عـلى

عرقوبي، قبضة من القوة بحيث أعجز عن التخلص منها. وأحسني أُجر نحو المياه العميقة. هناك، أرى وجهك. بنفس الابتسامة العريضة الممتدة من الأذن إلى الأذن، عيناه تحدقان فيَّ. أحاول أن أصرخ، فيهرب مني الصوت. أبتلع الماء، وتمتلئ رئتي.

أستيقظ في الظلام، صارخًا، مخنوقًا، مبللاً بالعرق.

* * *

عند نهاية السنة، طلبت من والدي السماح لي بالذهاب إلى مدينة أخرى. لم يعد باستطاعتي العيش هناك ومواصلة تأمل الشاطئ الذي غرق فيه ك.؛ كوابيسي لن تتوقف. إن لم أرحل، سأُجن. تفهم والداي الأمر، ووافقا على مغادرتي البيت. رحلت إلى عمالة ناجانو في شهر ديسمبر للعيش مع عائلة أبي في قرية جبلية تقرب من كومورو. هناك أنهيت تعليمي الابتدائي، والإعدادي. لم أعد ثانية إلى البيت، حتى في العطل؛ والداي هما مَن كانا يزوراني بين الفينة والأخرى.

حتى هذه الساعة لا أزال أقطن بناجانو. بعد أن حصلت على دبلوم بمدرسة المهندسين التابعة للبلدية، اشتغلت بشركة محلية متخصصة في الآلات الدقيقة جدًّا، مازلت أعمل هناك، وأعيش مثل الآخرين. وكما قد تلاحظون، ليس بي شيء يدعو إلى الغرابة. ورغم أنني لست اجتماعيًّا، فلديَّ مع ذلك بعض

الأصدقاء الذين أتسلق معهم الجبل. حين أكون بعيدًا عن مدينتي الأصلية، تتوقف كوابيسي، وبرغم ذلك تظل جزءًا مني، وتعود إليَّ بين الحين والآخر، كما الجابي الذي يطرق الباب. يحدث ذلك عندما أكون على مرمى النسيان. يعاودني الحلم نفسه، بالتفاصيل نفسها. أستيقظ وأنا أصرخ، وقد تبللت أغطيتي بالعرق.

ربما هذا هو السبب الذي منعني من الزواج لحد الآن. فلست راغبًا في الاستيقاظ في منتصف الليل وأنا أصرخ، وإلى جانبي شخص آخر. ورغم أنني أُغرمت ببعض النساء طوال هذه السنين، إلا أنني لم أقضِ ليلة كاملة بمعية واحدة منهنَّ. الرعب ينهشني حتى العظم. وهو الأمر الذي ليس بمقدوري مشاركته مع أي كان.

ظللت بعيدًا عن مدينتي الأصلية لأكثر من أربعين سنة، لم أعد البتة إلى ذاك الشاطئ- ولا إلى أي شاطئ آخر. ما كنت أخشاه هو أن تتحول الكوابيس إلى حقيقة إن أنا أقدمت على ذلك. أعشق دائمًا السباحة، لكن، بعد الحادثة، لا أذهب حتى إلى المسبح، ولن أذهب إلى الأنهار العميقة، ولا إلى البحيرات. أتفادى البواخر، ولم أسافر قط على متن الطائرة إلى الخارج. ورغم كل هذا الاحتراس، لا أستطيع أن أطرد من ذهني صورتي وأنا أغرق، وكذا يد ك. الباردة. هذا الهاجس القاتم ترسخ في ذهني إلى الأبد، ورفض الذهاب.

بعـد ذلـك، وخـلال فـصل الربيـع الأخـير، عـدت إلى الشاطئ الذي غرق فيه ك..

كان أبي قد توفي بعد معاناة مع السرطان في العام المـاضي، وباع شقيقي بيتنا العتيق. وبينما كان يرتب المخـزن، عثـر عـلى علبة كرتونية مكدسة بأشياء تعود إلى فترة طفولتي، وأرسـلها إلى ناجانو. لم تكن هذه الأشياء ذات أهمية، لكن ضمنها حزمة من رسومات كان ك. قـد أنجزهـا. وأهـداها إليَّ. المؤكـد أن والديَّ قد احتفظا بها كتذكار بـ ك. إلا أن هذه الرسومات قـد أيقظت في الرعب القديم، وتشكل لديَّ إحساس بأن روح ك. ستنبعث منها. أعدتها بسرعة داخل الـورق الملفـوف، مقـررًا رميها، بيد أنني لم أفعل. بعد عدة أسابيع مـن الـتردد، فتحـت الحزمة، مجبرًا نفسي على تفحص، لوقـت طويـل، الرسـومات المائية التي أبدعها ك.

كان جلها عبارة عن مشاهد طبيعيـة، وصـورٍ للـساحل، والشاطئ الرملي، وغابـة الـصنوبر، والمدينـة، جميـع الأمـاكن المألوفة لديَّ. كلها تحمـل بـصمة ك.، وتلـك الدقـة الخاصـة، والألوان التي عادة ما كان يستعملها. ظلت حية بشكل غريب رغم مرور السنين، وظل إنجازها أكثر توفيقًا مما كنت أتوقع. وبينما كنت أتصفح تلك الصور، وجدتني غارقًا في ذكريـات مـن الحنـين. كانـت الـصور تنـضح بأحاسـيس الطفـل ك.

العميقة، معبرة عن نفسها في تلك اللوحات – تلك الطريقة التي يفتح بها عينيه على العالم.

استحضرت بقوة لا تتصور الأشياء التي قمنا بها معًا، والأماكن التي ارتدناها. وأدركت أن عينيه كانت عيني، وأنني أرى العالم بالرؤية الحية والواضحة نفسها التي كانت للطفل الذي يسير إلى جانبي.

مذ ذاك، اعتدت كل يوم تفحص واحدة من رسومات ك. المائية حالما أعود من العمل. أجلس إلى المائدة لساعات طوال وأتأمل اللوحة. كنت أجد في كل واحدة منها واحدًا من المناظر الطبيعية الهادئة من طفولتي التي طردتها من ذاكرتي منذ زمن طويل. كان لديَّ إحساس، في كل مرة أرى فيها إبداعات ك.، بأن شيئًا منه يتخلل جسدي بصمت.

مر أسبوع على ذاك النحو عندما فاجأتني فكرة ذات مساء: ربما أكون قد اقترفت خطأ جسيمًا طوال كل هذه السنوات. فقد يستحيل أن ينظر إليَّ ك. بتلك الكراهية أو ذاك الإحساس لما كان على قمة الموجة، وأن يسعى إلى جري إلى عالمه. وتلك الابتسامة المكشرة التي صوبها نحوي قد لا تكون سوى زاوية نظر مشوهة، بالصدفة، وليست فعلاً إراديًّا قام به. المؤكد أنه فقد الوعي قبل ذلك، أو رغب في أن يوجه إليَّ ابتسامة حنونة تشي بالوداع الأبدي. لم تكن النظرة المحملة

بالكره التي اعتقدت أنني رأيتها على وجهه إلا انعكاس الهلع الذي استولى عليه في تلك اللحظة.

وبقدر ما كنت أكتنه لوحاته المائية، في ذاك المساء، كان اعتقادي يتقوّى. إذ مهما جهدت في تفحصها، فلم أكتشف فيها سوى دلائل براءته، وطهارة روحه.

ظللت جالسًا إلى المائدة لمدة طويلة، عاجزًا عن فعل أي شيء آخر. غربت الشمس، وجعلت ظلمة خفيفة ذاك المساء تلف الغرفة. بعد ذلك، عم صمت ليلي مطبق. بدا الليل يتمدد بلا حدود. في النهاية، وعندما تساوت الكفتان، استسلمت الظلمة لنور الصبح. وأشرقت شمس يوم جديد، ملونة السماء بلون وردي، واستيقظت العصافير شادية.

عند ذاك أدركت أن عليَّ العودة إلى مدينتي الأصلية. وأن أقوم بذلك على الفور.

حشوت أغراضي في كيس، وأخبرت الشركة بتغيبي، ثم أخذت القطار.

لم أجد المدينة الصغيرة بذلك الصمت الذي أتذكر. فقد نشأت مناطق صناعية في الضواحي في سياق الانفجار الاقتصادي في الستينيات، فارضة تحولات عميقة على المنظر الطبيعي. تحول المحل الوحيد لبيع الهدايا والقريب من المحطة إلى مركز تجاري، وانقلبت قاعة السينما التي كانت ذات مرة إلى

سوبر ماركت. أما منزلنا فلم يعد لـه أثـر. إذ تـم هدمـه قبـل بضعة أشهر، وحلت محله بقعة أرضية بور محفرة. قطعت كـل أشجار الحديقة، ونبتت أعشاب برية هنا وهناك عـلى الأرض السوداء. اختفى أيضًا بيـت ك. وتحولـت أرضـيته إلى مـرأب اسمنتي اصـطفت فيـه الـسيارات والعربـات التـي تـستأجره شهريًّا. والحق أنني لم أكن مغمورًا بـالحنين، إذ لم تعـد المدينـة مدينتي قبل مدة طويلة.

توجهت نحو الشاطئ، وصعدت درج كـاسر الأمـواج. في الطرف الآخر، كما العادة، يمتد المحـيط عـلى مـدى البـصر دونما حاجز. وبعيدًا جدًّا، الخط المستقيم اللامتناهي للأفق. بدا لي الساحل نفسه كما في السابق: الـشاطئ الرحـب، والأمـواج المتموجة، والناس الذين يتنزهون على الساحل الرملي. تجـاوز الوقت الساعة الرابعة، وأشعة الشمس الخافتة لبعـد الظهـيرة كانت تلف كل شيء تحتها، في الوقت الذي جعلت تميل نحـو الغرب ببطء أو بتعبير آخر بشكل تأملي. وضعت كيـسي عـلى رمل الشاطئ، وجلست بمحاذاته. كنت أروم تأمل هذا المنظر الطبيعي الهادئ في صمت. أمام هـذا المـشهد، كـان يـستحيل تصور أن يومًا ما كان قد هاج إعصار مدمر، وأن موجة عاتيـة قد حملت وإلى الأبد صديقي، صديقي الوحيد، الـذي لم أكـن أفارقه. لم يعد هناك، تقريبًا أحد يتذكر تلك الأحداث الرهيبة

التي مر عليها الآن أربعون عامًا. وشيئًا فشيئًا أحسست بأن كل ذلك لم يكن إلا وهمًا اختلقه ذهني اختلاقًا.

فجأة، أدركت أن الظلمة الكثيفة التي في دواخلي قد تبخرت على الفور، مثلما داهمتني على الفور من قبل. نهضت ببطء، وبدون أن أكلف نفسي عناء إزالة حذائي، أو رفع رجلي سروالي، تقدمت نحو البحر كيما تحممني الأمواج. بدا لي، وكما لو أنها تلمح تقريبًا إلى تصالح، أن الأمواج نفسها التي كانت قد غسلتني لما كنت صغيرا، تداعب رجلي في تلك الأثناء، مبللة حذائي وسروالي. اقتربت موجة بإيقاع بطيء جدًّا، ثم سادت وقفة طويلة، أخذت مكانها موجة أخرى وعادت بدورها. والناس الذين يمرون بمحاذاتي، يلقون عليَّ نظرة فضولية، غير أنني لم أهتم للأمر. فقد وجدت في الأخير طريقي.

رفعت رأسي إلى السماء. نتف من غيوم ذات لون رمادي خافت معلقة هناك بثبات، كما لو أنها كانت من أجلي، ولو أن التعبير يخونني. أتذكر كيف أنني رفعت رأسي بذات الطريقة فيما مضى، في محاولة لرؤية «عين» الإعصار الهائل. عندئذٍ، حرك في دواخلي مدارُ الزمن انطلاقة قوية. أربعون سنة انهدت مثل انهيار بيت، وامتزج الكل، الزمن القديم والزمن الجديد، في كتلة وحيدة مزوبعة. وامحى كل الصخب، واضطربت الأضواء حولي. فقدت توازني وسقطت في الماء. خفق قلبي

بشدة بين ضلوعي، ولم يعد لفرائصي أي إحساس. وجهي غاطس في الماء، غير قادر على النهوض. لكنني لم أكن خائفًا إطلاقا. كان الخوف بالنسبة لي غير ذي موضوع. فتلك الأيام ذهبت إلى غير رجعة.

توقفت الكوابيس الرهيبة، ولم أعد أستيقظ في منتصف الليل وأنا أصرخ. أحاول، حاليًا، استعادة حياتي السابقة. لا. فأنا أعلم علم اليقين أن أوان استعادتها قد فات؛ لأنني لن أعيش أكثر مما عشت. وحتى إذا جاء ذلك متأخرًا، فإنني شاكر، في النهاية، لأنني عرفت الخلاص، وأتممت صعودي الجديد. أجل، شاكر؛ لأنه كان يمكن أن أنهي حياتي بدون تحقق هذه المغفرة، وأن أواصل صراخي في الظلام، مرهوبًا.

* * *

ظل الرجل السابع صامتًا لحظة، ينظر إلى الآخرين بالتناوب. لا أحد أخذ الكلمة، ولا أحد قام بأدنى حركة، ولا حتى تنفس. كان الكل بانتظار نهاية قصته. في الخارج، هدأت الريح، ولم يعد يُسمع أي صخب. وضع الرجل السابع يده مرة أخرى على ياقة قميصه، وكأنما يبحث عن كلماته.

علمونا بأن الشيء الوحيد الذي علينا أن نخشاه في الحياة هو الخوف عينه. غير أنني لا أعتقد ذلك»، قال. ترك لحظات تنساب، ثم أضاف: «أجل الخوف، الخوف هناك، إنها

الحقيقة... يأتي إلينا بأشكال متنوعة، وفي أوقات مختلفة من حياتنا، ويغمرنا. لكن أرعب ما يمكننا فعله هو إدارة ظهرنا له، وإغماض أعيننا. لأننا آنذاك نتخلى عن أعز ما نملك في دواخلنا لشيء آخر. في حالتي، هذا الشيء كان تلك الموجة.

الفهرس

الصفحة



قائمة الإصدارات

م	عنوان الكتاب	المؤلف / المترجم	سنة النشر
1	النص والتأويل في الخطاب الأصولي (أليات القراءة وسلطة التناص)	بثينة الجلاصي	2014
2	سلطة الإجماع (الإشكاليات – النقد)	حمادي ذويب	2014
3	فلسفة كارل بوبر السياسية(من الإبستيمولوجيا إلى الأيديولوجيا)	أحمد فاروق	2014
4	نظرية المعرفة العلمية (الإبستيمولوجيا) روبير بلانشية	ت / حسن عبد الحميد	2014
5	الإسماعليون في بلاد المغرب (الفكر – المؤسسات – العمران)	بوبة مجاني	2014
6	إشكالية الخصوصية الثقافية لدى مفكري الغرب الإسلامي	عبد المجيد الصغير	2014
7	المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي	ابراهيم القادري بوتشيش	2014
8	العقل والوحي (منهج التأويل بين ابن رشد وبين بن ميمون وسبينوزا)	أشرف منصور	2014
9	الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي مقاربات منهجية	محمد مفتاح	2014
10	الاصول الفرعية للتشريع في المذهب المالكي	عارف عليمي	2014
11	دلالة الشكل دراسة في الإستطيقا الشكلية	عادل مصطفى	2014
12	كشف أسرار الباطنية وأسرار القرامطة	الحمادي المعافري	2014
13	شروحات السماع الطبيعي لإبن باجة الأندلسي	معن زيادة	2014
14	جنة النساء والكافرين سفارة نامة (محمد جلبي)	ت / خالد زيادة	2014
15	الحركة من الطبيعة إلى مابعد الطبيعة دراسة في فلسفة إبن باجة الأندلسي	تحقيق / معن زيادة	2014
16	تاريخ محمد علي وإبراهيم باشا (إسكندر يعقوب أغابكاريوس)	تحقيق / أحمد العدوي	2014
17	فكرة الإلوهية في فلسفة باركلي	فريال حسن خليفة	2014

18	تجليات الثقافي في الربيع العربي	كمال عبد اللطيف	2014
19	نقد التوراة في الفكر اليهودي والمسيحي والإسلامي	أحمد هويدي	2014
20	نقد العهد القديم (زالمار شازار)	ت / أحمد هويدي	2014
21	الحجاج والمواطنة	توبي لحسن	2014
22	محطات دبلوماسية	أحمد عبد الوهاب	2014
23	شفرات النص دراسة في سمولوجيا القص والقصيد	صلاح فضل	2014
24	التمثيل الجمالي للحياة	صلاح فضل	2014
25	تحولات الشعرية العربية	صلاح فضل	2014
26	قراءة الصورة وصور القراءة	صلاح فضل	2014
27	نقد الخطاب المفارق في السرد النسوي بين النظرية والتطبيق	هوييدا صالح	2014
28	التعالق النصي في الخطاب النقدي والإبداع الشعري	نانسي إبراهيم	2014
29	النص التفاعلي أليات السرد وسحر القراءة	لبيبة خمار	2014
30	القراءة والتجربة حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب	سعيد يقطين.	2014
31	الخبروالحكاية التشكل الدلالي في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي	بشرى قانت	2014
32	مسجونة إحتياطي (رواية)	نيرمين البحطيطي	2014
33	حسن الختام (رواية)	صفاء النجار	2014
34	صاحب الفهم الجديد لللإسلام قراءة في المواقف وتزوير التاريخ	عبداللة الفكي البشير	2014
35	الأفعى والبحر (رواية)	محمد زفزاف	2013
36	أفواة واسعة (رواية)	محمد زفزاف	2013
37	قبور في الماء (رواية)	محمد زفزاف	2013
38	المرأة والوردة (رواية)	محمد زفزاف	2013
39	بيضة الديك (رواية)	محمد زفزاف	2013
40	أرصفة وجدران (رواية)	محمد زفزاف	2013
41	الحي الخلفي (رواية)	محمد زفزاف	2013
42	محاولة عيش (رواية)	محمد زفزاف	2013
43	مستويات الخطاب المنهجي	حسن عبد الحميد	2013
44	صورة المثقف في الرواية الجديدة	هويدا صالح	2013

45	المغالطات المنطقية	عادل مصطفى	2013
46	الفن (كلايف بل)	عادل مصطفى	2013
47	الإورجانون الجديد (فرنسيس بيكون)	عادل مصطفى	2013
48	الصراع بين المتدينين والعلمانين في إسرائيل	أحمد محمود هويدي	2013
49	البداية والنهاية في الرواية العربية	عبد الملك أشهبون	2013
50	التاريخ السياسي للمعتزلة	عبد الرحمن سالم	2013
51	سبينوزا ونقد العقل الخالص	أشرف منصور	2013
52	الصابئة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الخلافة العباسية	أحمد العدوي	2013
53	الثورة في العالم العربي (تونس ومصر ونهاية عصر	ت / هاني حلمي	2013
54	إحدى عشر دقيقة (باولو كويلو) - (رواية)	ت / وائل بحري	2013
55	الشيخ والبحر (أرنست هيمنجواي)	ت / علي القاسمي	2013
56	الوليمة المتنقلة (أرنست هيمنجواي)	ت / علي القاسمي	2013
57	النقد ومستقبل الثقافة العربية	فريال حسن خليفة	2013
58	الفقة والتاريخ في الغرب الإسلامي	لخضر بولطف	2013
59	الغرب الإسلامي مباحث في العلوم التجريبية	سعيد بنحمادة	2013
60	صورة الأنا والأخر في السرد العربي	محمد الداهي	2013
61	التخييل وبناء الانساق الدلالية	سعيد جبار	2013
62	ضفائر شهرزاد (وظائف في مائة ليلة وليلة	محمد تنفو	2013
63	دراسات في الوثائق الشرعية	خالد زيادة	2013
64	في سيمياء الشعر القديم	محمد مفتاح	2012
65	تجاوز الماركسية من النظرية إلى النقدية	هشام عمر النور	2012
66	تدبير المتوحد لإبن باجة الأندلسي	معن زيادة	2012
67	الدين الشعبي في مصر	شحاتة صيام	2012
68	فقراء زمن العولمة	محمد العودي	2012
69	شعرية التناص في الرواية العربية	سليمةعذاوري	2012
70	بنو امية على منبر الرسول	عبد اللة سالم مليطان	2012
71	المرأة المتجردة في مائة ليلة وليلة	محمد تنفو	2012
72	تزفيتان ميخائيل باختين المبدأ الحواري (تودوروف)	ت / فخري صالح	2012

73	قضية الحكم في الفكر الإسلامي الحديث	حمادي ذويب	2012
74	الرواية العربية وأسئلة مابعد الإستعمار	إدريس الخضراوي	2012
75	الصوفية النسوية والدين الناعم	شحاتة صيام	2012
76	خزانة شهرزاد الأنواع السردية في مائة ألف ليلة وليلة	سعاد مسكين	2012
77	اروبا في مرأة الرحلة	سعيد بنسعيد العلوي	2012
78	فقة الديمقراطية	عادل مصطفى	2012
79	الزفير الحار	وجيهة عبد الرحمن	2012
80	ملاك الفرصة الأخيرة	سعيد نوح	2012
81	عمرة الدار	هويدا صالح	2012
82	دفاعاً عن إدوارد سعيد	فخري صالح	2012
83	الحديقة الأندلسية	محمدعزالدين التازي	2012
84	دم الوعول	محمدعزالدين التازي	2012
85	أعلنو مولدة فوق الجبل (جيمس بلدوين)	ت / هاني حلمي	2012
86	ذاكرة الماء	واسيني الأعرج	2012
87	نوار اللوز	واسيني الأعرج	2012
88	حارسة الظلال	واسيني الأعرج	2012
89	مصرع أحلام مريم الوديعة	واسيني الأعرج	2012
90	الخبز الحافي	محمد شكري	2012
91	نحو مشروع مستقبلي للإسلام	محمود محمد طة	2012
92	النفس ودماغها (كارل بوبر)	ت / عادل مصطفى	2012
93	مدخل إلى الفلسفة (وليم جيمس إيرل)	ت / عادل مصطفى	2011
94	أسباب الإنقلاب العثماني - محمد روحي الخالدي	تحقيق / خالد زيادة	2011
95	الدولة العثمانية قبل الدستور وبعدة	تحقيق / خالد زيادة	2011
96	مشكلة العلوم الإنسانية	يمنى طريف الخولي	2011
97	التأويل والمفارقة	كمال عبد اللطيف	2011
98	فقة وشرعية الإختلاف في الإسلام	عبد المجيد الصغير	2011
99	الخطاب الإصلاحي العربي	عبد المجيد الصغير	2011
100	خصوصية التجربة الصوفية بالمغرب	عبد المجيد الصغير	2011
101	إشكالية الدين والسياسة في تونس	عبد الحكيم أبو اللوز	2011
102	الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري	جمال بندحمان	2011